روايات مصرية للجيب

كتاب كوكتيل ٢٠٠٠

أرزاق



أرزاق

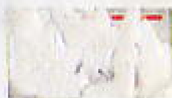
رواية اجتماعية طويلة

... وتمتد الأحداث بعائلة (البنهاوى) ، عَبْرَ سنوات الثورة الأولى ، التى تواجه المزيد من الصراعات والتحدّيات ، ويصعد نجم الأسرة مع مولد العهد الجديد ، وينتقل الصراع إلى داخلها ، مع التطوُّرات المتلاحقة للمجتمع الذى يخوض أمواج السياسة المتلاطمة ، ويتصدَّى للأطماع والعدوان ..

ومرَّة أخرى تُولد قصص الحب ، وتموت ، ويتشكل المجتمع الجديد ، مجتمع ما بعد الثورة ، حيث تتصارع الأجيال القديمة والحديثة ، فى قلب مصر .. وعقل مصر ..

د. نبيل فاروق







رواية اجتماعية طويلة

من قلب الليل يأتى النهار ..
ومن قلب الظلم تأتى الرحمة ..
ومن المحال أن نأمل دوام الحال ..

د. نبيل فاروق

١ ـ ذكريات ..

أطلقت (شريفة البنهاوى) تنهيدة حارة ، من أعماق صدرها ، وهى تقف وحيدة ، فى مطبخ سراى والدها الراحل ، فى ذلك الصباح ..

تنهيدة حملت كل ما يموج به صدرها ، من انفعالات ومشاعر وذكريات ..

ومن عينيها انحدرت دمعة ساخنة ، انزلقت على وجنتها ، وذابت فوق شفتيها ، دون أن تشعر هى بمذاقها الملحى المميَّز ..

كانت ذكرياتها تسبح بعيدًا ..

فى بحر سنوات مضت ..

تذكرت والدها الحاج (محمد البنهاوى) ، ووفاته المفاجئة ، عندما استولى قانون الإصلاح الزراعى على أكثر من ثلثى أرضه ، التى قضى عمره كله يكافح من أجلها ..

تذكرت كيف أنه ترك ثروته كلها لشقيقها (حسين) ، مقابل أن يمنح (حسين) أشقاءه أنصبتهم الشرعية ، من إيراد الأرض ، دون ضابط أو رابط ..

وكانت هذه هى المأساة ، التى تفككت عندها شمل الأسرة ، وانفرط عقدها ..

صحيح أن (حسين) قد بلغ بعدها شأنا كبيرا ، فى عهد السنوات الأولى لثورة يوليو ، إلا أن كل شىء ، فيما عدا هذا ، لم يسر فى الطريق الصحيح ..

شقيقتها (زينب) لقيت مصرعها مع زوجها (ماهر) ، فى أيام زواجهما الأولى ..

شقيقها (حافظ) أصيب بانهيار عصبى حاد ، بعد وفاة والده ، وعاش

حياته كالمعتوه ، حتى زوجه (حسين) من (فاطمة) ، ابنة (عبد الحميد) ، العامل فى أرضهم

وكان هذا أكثر ما يحنقها فى ذكريات الماضى ..

ولكنه ليس أكثر ما يملأ نفسها بالمرارة ..

المرارة الحقيقية كانت فى ذكريات زواج شقيقتها (ناهد) ، التى اقترنت بـ (فؤاد) زميل (حسين) ، الذى أتى فى البداية للزواج منها هى .. من (شريفة) ..

فرت بذهنها وذكرياتها بسرعة من هذه النقطة ، وحاولت أن تشغل نفسها بإعداد الطعام ، قبل وصول (حسين) وضيوفه من (القاهرة) ، إلا أن نهر الذكريات لم يلبث أن شق طريقه فى عقلها ، حاملا صورة أختها (نعيمة) ، التى طلقها زوجها ، عندما أبعد (محمد نجيب) شقيقها (حسين) عن العمل ، ثم أجبره (حسين) على استعادتها ، عندما أعاده (جمال عبد الناصر) إلى عمله ، ومنحه سلطات جديدة ..

ثم قفزت بها الذكريات إلى أصغر أشقائها ، وأحبهم إلى قلبها .. إلى (مفيد) ..

وامتلأت نفسها بالحزن من أجله ..

لقد كان زهرة شباب القرية كلها ، يمتلئ قلبه بحب الدنيا ، الذى وهبه كله لـ (مديحة) ، حبيبة قلبه وعمره ، ابنة عم (إسماعيل) ، التى بادلته حبا بحب ، ونما حبهما الطاهر فى قلبيهما ، حتى انتزعهما (حسين) من بعضهما البعض دون رحمة ، فأجبر (مديحة) على الزواج من أحد أبناء عمومتها ، والخروج من القرية مع أسرتها ، حيث انقطعت أخبارهم تماما ..

ومنذ ذلك الحين تحطم قلب (مفيد) تماما ..

ولم يعد يخفى كراهيته لشقيقه (حسين) ..

ولم يتوقف أبدا عن البحث عن حبيبته الضائعة ..

ياله من مسكين ! ..

إنه - فى رأيها - أكثر من دفع ثمن ديكتاتورية (حسين) وقسوته ..

لم تكد العبارة الأخيرة ترد بخاطرها ، حتى نبض قلبها فى عنف ، وتلفتت حولها فى قلق ، وكأنها تخشى اتهام (حسين) بالقسوة ، حتى فى أعمق أعماق عقلها ..

ولكن قلبها اعترف بالحقيقة ..

نعم .. (حسين) من أكثر من عرفتهم حياتها قسوة ..

إنها لا تنسى ما فعله بالمأمور والعمدة ، عندما أمسك خيوط السلطة كلها فى يده ..

لقد نقل الأول إلى آخر الدنيا ، وتسبب فى وفاة الثانى بأزمة قلبية ، عندما انتزعه من مقعد العمودية ، ووضع بدلا منه (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ..

انقلبت شفتاها فى امتعاض ، عندما تذكرت (فاطمة) ..

تلك القبيحة الخشنة الصوت والمظهر ، التى عملت لديهم كخادمة ، قبل أن يوافق (حسين) على اقتراحها هى بالذات ، ويزوجها لشقيقهما (حافظ) ، نظرا لأنها الوحيدة التى تقبل الحياة مع مختل مثله ..

امتلأت نفسها بالغضب ، عندما امتلأ عقلها بصورة (فاطمة) ، فألقت مابيدها ، واندفعت خارج المطبخ هاتفة :

- (فاطمة) .. أين أنت ؟

ظهرت (فاطمة) من حجرة قريبة ، وهى تقول فى تراخ استفزازى :

- ماذا هناك ؟

صاحت بها (شريفة) فى حدة :

- هل ستتركيننى وحدى بالمطبخ ؟ .. تعالى لمعاونتى .

أجابتها (فاطمة) بصوتها الأجش :

- سأنتهى من حمام (طارق) أولا .

صرخت (شريفة) ، وكأنها تفرغ توترها كله فى ثورتها :

ـ لن أقضى يومى كله فى المطبخ ، من أجل عيد ميلاد ابنك .

قالت (فاطمة) ، وهى تمط شفتها السفلى فى غلظة :

ـ ومن قال إننى أرغب فى الاحتفال بعيد مولده ؟ .. إنه شقيقك (حسين) ، الذى طلب هذا الاحتفال ، حتى يمكنه دعوة بعض رفاقه .

صرخت بها (شريفة) :

ـ لا تنطقى باسم (حسين) قط ، وأسرعى لمعاونتى ، وإلا أمرته بتحطيم رأسك ، عندما يصل .

كان من الواضح أن لذكر اسم (حسين) تأثير كبير داخل الأسرة ، فقد عقدت (فاطمة) حاجبيها الكثين فى ضيق ، ولكنها غمغمت بخشونتها المعهودة :

ـ حسنا .. سألبس (طارق) ثيابه ، وأضعه فى مهده ، وآتى لمساعدتك .

صاحت (شريفة) :

ـ بسرعة .

شعرت أن صراخها فى وجه (فاطمة) قد أفرغ الكثير من توترها ، فعادت إلى المطبخ ، تعد أصناف الطعام ، وذكرياتها تسترسل مرة أخرى ..

لقد أصبحت وحيدة فى السراى ..

بل الأسوأ أنها تقيم مع (فاطمة) و (حافظ) ..

(فاطمة) بخشونتها وغلظتها ، و (حافظ) الذى يقضى يومه صامتًا فى شرفة السراى ، لا يتحدث إلا لماما ، ولا يبتسم إلا وهو يداعب ابنه (طارق) أو يحادثه ..

إنه يعلم أن الجميع لا يقيمون له وزنا ، فلا أحد يهتم بأمره ، سوى زوجته (فاطمة) ، و (عبد الحكيم) ، زوج شقيقتهم (توحيدة) ، الذى يعامله

بود ومحبة ، ويجالسه طويلا ، كلما أتى مع زوجته وأبنائهما إلى السراى ..

أما هى ، فلم تتزوج بعد ..

لم يتقدم أحد لخطبتها ، منذ رفض (فؤاد) الزواج منها ، وفضل عليها شقيقتها (ناهد) ..

إنها تشعر بغصة فى حلقها ، كلما أتت (ناهد) وزوجها مع أطفالهما إلى السراى ، فهذا يذكرها بموقف (فؤاد) ، الذى يبدو أنها وحدها تذكره ، بعد أن نسيه (فؤاد) نفسه ، ونسيته حتى (ناهد) شقيقتها ..

هى وحدها بين نساء الأسرة تذكره ..

تذكره ؛ لأنها لم تتزوج أو تنجب بعد ..

حتى (فاطمة) ، التى تبدو أشبه بالرجال تزوجت ، وانجبت ابنها (طارق) ، الذى سيحتفلون بعيد مولده الأول الليلة ..

أطلقت تنهيدة حارة أخرى ، وعادت تنهمك فى عملها ، محاولة الفرار من النهر ..

نهر الذكريات ..

* * *

، أليس هذا هو (مفيد) يا حاج (سعفان) ؟..

رفع الحاج (سعفان) شفتيه عن كوب الشاى ، الذى اعتاد تناوله عصرًا ، فى مقهى (جودة) ، على مشارف القرية ، وادار عينيه إلى موقف السيارات القريب ، وتطلع مشفقا إلى (مفيد) ، الذى بدا شاردا متعبا حزينا ، وهو يغادر إحدى سيارات الأجرة ، ويتجه إلى طريق السراى ، فى خطوات متهالكة ، اشتركت مع ذلك النحول ، الذى أصابه فى الأشهر الأخيرة ، لتمنحه مظهرا يفوق سنوات عمره ، التى بلغت اليوم بالذات العامين بعد العشرين ، وقال فى أسف :

ـ نعم يا (جودة) .. هو (مفيد) .. (مفيد البنهاوى) .

وضع أمامه (جودة) قدحا من الماء ، وهو يقول فى لهجة تحمل رائحة السخرية :

ـ أما زال يبحث عن (مديحة) ابنة (اسماعيل) ؟

قال الحاج (سعفان) ، وهو يواصل متابعته لـ (مفيد) :

ـ سيمضى وقت طويل ، قبل أن يتوقف عن هذا يا (جودة) ، فالطريقة التى انتزعها بها منه (حسين) ، تركت فى قلبه جرحا لا يندمل .

تلفت (جودة) حوله فى ذعر ، وقال :

ـ أرجوك يا حاج .. لا تذكر هذا الأمر هنا .

سأله الحاج (سعفان) فى دهشة :

ـ أى أمر ؟! .. هل نتحدث عن شيطان رجيم ؟!

مال (جودة) نحوه ، وهو يقول فى هلع :

ـ أرجوك يا حاج .. الحديث عن الشيطان الرجيم أهون أمرًا ، فهو على الأقل يكتفى بالوسوسة ، أما من أخشاهم فقد يلقون بك فى جحيم حقيقى .

هتف الحاج (سعفان) مستنكرًا :

ـ جحيم حقيقى ؟! .. أى قول سخيف هذا ؟

شحب وجه (جودة) ، ولوّح بكفه قائلا :

ـ حسنًا يا حاج .. تظاهر بأننى لم أقل شيئا ، ولكن لا ترفع صوتك بهذا .. أرجوك .

ثم استطرد فى صوت مرتفع ، محاولا التغطية على الموقف :

ـ شاى وقهوة .. من يطلب شايًا أو نرجيلة .

وابتعد فى سرعة ، جعلت الحاج (سعفان) يضرب كفا بكف ، وهو يقول :

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .. ماذا أصاب هؤلاء الناس ؟

هزّ رأسه مستنكرا ، ومستعيذًا بالله (سبحانه وتعالى) من الشيطان

الرجيم ، ثم عاد يتطلع إلى (مفيد) ، الذى بلغ نهاية الطريق تقريبا ، وأكمل مشفقا :

ـ لك الله يا ولدى .. لك الله ..

أما (مفيد) فلم ينتبه إلى الحاج (سعفان) ، صديق والده الراحل ، ولا إلى (جودة) وقهوته وزبائنه ، فقد كان ذهنه كجسده ، مكدودا مرهقًا ، بعد يوم جديد ، قضاه فى البحث عن (مديحة) ..

لم يكن باستطاعته الاستسلام لفكرة اختفائها من حياته ، على الرغم من مرور مايقرب من عام كامل على رحيلها مع أسرتها من القرية ، وانقطاع أخبارها تماما ..

كل ما يعلمه عنها هو أن شقيقه (حسين) قد أجبرها على الزواج من أحد أبناء عمومتها ..

حتى هذا لا يثق به ..

ربما لأن مصدره الوحيد هو (حسين) ..

امتلأت أعماقه بالغضب والكراهية ، عندما تذكر شقيقه ، ومافعله بحبيبته بكل القسوة والجبروت والطغيان ، ثم لم يلبث الغضب والكراهية أن تحوّلا إلى احساس عميق باليأس والمرارة ..

إنه يعلم استحالة عثوره على (مديحة) ، وهو يجهل أين اتخذ لها زوجها مستقرًا ، بين مدن (مصر) كلها ..

ثم أنه ماجدوى العثور عليها ؟ ..

إنها لم تعد له ..

لم تعد الفتاة التى عشقها وأحبها ، فى عفة وطهارة ، وهما بعد صبيين صغيرين ..

لقد صارت زوجة ..

زوجة رجل آخر ..

اختنق حلقه بغصة كادت تدفع الدموع إلى عينيه ، فازدرد لعابه فى محاولة للتغلب عليها ، إلا أن هذا لم يزده إلا شعوراً بالاختناق ، فتوقف عن مقاومة الدموع ، وتركها تتفجر من عينيه ، وتنهمر على وجهه حارة غزيرة ..

ومن بين سحب الدموع رأى السراى أمامه ..

لقد بلغه دون أن يدرى ..

قادته قدماه إليه فى شروده ..

وأسرع يجفف دموعه ، ثم توقف فى مرارة ، يتطلع إلى سيارة فارهة ، تقف أمام السراى ، وإلى جوارها جنديان ، حمل كل منهما سلاحه فى تأهب ، كما لو كانا يتحفزان لشن هجوم على القرية كلها ..

وأدرك ما يعنيه هذا المشهد ..

لقد وصل الطاغية ..

طاغية آل (البنهاوى) ..

وصل (حسين) ..

* * *

٢ ـ خفقات القلب ..

ارتفعت ضحكة (حسين البنهاوى) فى حجرة الضيوف بالسراى ، وبدا شديد الزهو والغرور ، وهو يدير عينيه فى وجه شقيقاته وأزواجهن ، الذين اجتمعوا جميعا لاستقباله مع ضيفيه ، واستقبلوا الثلاثة استقبالا حارا حافلا ، أثلج صدر (حسين) ، الذى مادعا رفيقيه إلا ليبرز لهما مكانته فى قريته ، وبين أسرته ..

وبلهجة تحمل نبرة استخفاف ، اتجه (حسين) إلى شقيقته (نعيمة) ، يسألها :

ـ أين زوجك (عمر) ؟

ارتبكت (نعيمة) ، وحاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة خاوية ، وهى تجيب :

ـ إنه .. إنه مريض ، ويرسل تحياته لك بالطبع ، ولكن مرضه أعجزه عن مشاركتنا عيد ميلاد (طارق) .

كان يعلم أنها كاذبة ، وأن (عمر) لم يطأ أرض السراى بقدمه ، منذ أجبره هو على إعادة (نعيمة) إلى عصمته ، وتطليق زوجته الثانية ، وأنه يتحاشى مقابلته ، منذ ذلك الحين ، إلا أن إجابتها كانت تناسب الموقف ، مما جعله يكتفى بها ، ويسأل بنفس اللهجة :

ـ وأين (مفيد) ؟

أسرعت (شريفة) تجيب :

ـ إنه يقضى بعض شئونه فى الخارج ، وسيأتى بعد قليل .

وفى بساطة متناهية ، أضاف :

ـ أما (حافظ) فهو هنا ، يستعدُ مع (فاطمة) ، لحضور حفل عيد ميلاد (طارق) ، و ...

أنبأها ذلك الوجوم ، الذى ساد المكان ، مع النظرة الصارمة الغاضبة فى عينى (حسين) ، بفداحة ما نطقت به ، فى رأى (حسين) على الأقل ، فبترت عبارتها ، وامتقع وجهها فى خوف ، واتسعت عيناها فى ذعر ، فى حين لم ينتبه (صلاح) و (أمجد) رفيقا (حسين) إلى ماحدث ، فابتسم الثانى ، وهو يتطلّع إليها ، قائلا :

ـ وماذا ؟

أتت كلمته كناقوس مدوّ ، وسط السكون الرهيب ، الذى ران على المكان ، فالتفتت العيون كلها إليه ، فيما عدا عينى (شريفة) ، التى أشاحت بوجهها فى شحوب ، متمتمة :

ـ لا شىء .. معذرة .. سأذهب لإحضار الشاى .

ران على المكان سكون ثقيل ، بعد انصرافها مسرعة من المكان ، وأدرك (أمجد) أنه لم يحسن التصرّف ، فاحتقن وجهه ، وارتبك على نحو واضح ، فى حين ابتسم (صلاح) ابتسامة خبيثة ، وكأنما يسعده خطأ رفيقه ..

كان كلاهما زميلا ومرءوسًا لـ (حسين) ، فى منصبه الجديد ، ولكنهما كانا متناقضين تمامًا فى كل شىء تقريبًا ، فقد كان (صلاح) قصيرًا ، غليظ الملامح ، يلوح الخبث من سماته ، ويطلّ من ملامحه وعينيه ، فى حين كان (أمجد) طويلًا وسيم الطلعة ، تنطق قسماته كلها بالصدق وسلامة الطوية ..

ولكن (صلاح) كان يتميز عن (أمجد) بصفة خاصة ، ألا وهى سرعة الفهم ، والقدرة على سبر أغوار الآخرين ..

شأن أى داهية ..

وعندما طال الصمت ، وازداد ثقلًا ، كان (صلاح) هو أوّل من قطعه ، وهو يقول :

ـ مازالت استقالة (صلاح سالم) تدهشنى .

كانت عبارة ذكية ، طرقت واحدا من أكثر أحداث هذه الفترة سخونة ، وغيّرت مجرى الحديث فى سرعة ، إذ قال (حسين) فى ثقة ، وهو يتكىء فى مقعده فى خيلاء :

ـ إنها لم تدهشنى أنا ، فلقد تقدّم (صلاح سالم) باستقالته أكثر من مرة ، منذ قيام الثورة ، وكان من الطبيعى أن يسأم (جمال) هذا الأسلوب ، ويقبل استقالته يومًا .

اعتدل (عبد الحكيم) ، زوج (توحيدة) ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ ولكننى لم أتوقّع أبدا أن يحدث هذا ، فلقد كان (صلاح سالم) من أبرز شخصيات مجلس قيادة الثورة ، بعد (جمال عبد الناصر) ، و (عبد الحكيم عامر) .. ولن أنسى أبدًا مافعله فى (السودان) .

اندفع (أمجد) يقول مستنكرا :

ـ كانت مهزلة .

هتف (عبد الحكيم) فى دهشة :

ـ مهزلة ؟!

أجابه (أمجد) فى انفعال :

ـ بالطبع .. كيف لضابط فى مكانته أن يرقص عاريًا ، وسط بعض القبائل البدائية .

عقد (حسين) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ كان يجاريهم فى تقاليدهم فحسب .

أدرك (أمجد) من لهجة (حسين) ، أنه ليس من اللياقة ذكر مثل هذا الأمر ، فتورّد وجهه مرة أخرى ، وأضاف فى ارتباك :

- ولكن هذا لايمنع كونه واحدا من أبرز رجال الثورة .

غمغم (عبد الحكيم) متراجعا :

- هذا صحيح .

ابتسم (صلاح) فى خبث مرة أخرى ، وكأنما يسعده أن يخطىء (أمجد) كثيرًا ، ثم قال فى هدوء :

- ولكن (عبد الناصر) هو أعظم الجميع بلا منازع .

قال (حسين) فى سرعة :

- هذا صحيح .

ثم لم يلبث أن مط شفتيه ، مستدركًا :

- ولكننى كنت أتوقع منه مكافأة أعظم بكثير ، بعد موقفى الى جواره ، فى أحداث أكتوبر الماضى .

ابتسم (صلاح) ، وهو يقول :

- ولكنك حصلت على ترقية استثنائية رائعة يا سيّدى ، فأنت الآن برتبة (صاغ)(*) ، وزملاء دفعتك لم يحصلوا بعد على رتبة (بوزباشى)(**) .

مط (حسين) شفتيه مرة أخرى ، وقال :

- كنت أتوقع ما هو أكثر من ذلك .

ثم اعتدل بغتة ، مستطردا :

- لقد ارتفعت شعبية (جمال عبد الناصر) كثيرًا ، بعد حادثة (المنشية) هذه ، فلقد ظهر أمام الناس فى صورة البطل المغوار ، الذى يقف ثابتا فى مواجهة النيران ، ويطالبهم بالصمود ، متحديا الموت والرصاصات .

(*) رائد .

(**) نقيب .

قال (أمجد) فى اهتمام :

- مازال هذا الحادث يحيّرنى يا سيّدى ، فأنا أظن - فى بعض الأحيان - أن (عبد الناصر) كان على علم به قبل وقوعه .

تردد (حسين) لحظة ، اتجهت إليه خلالها أنظار الجميع فى اهتمام بالغ ، قبل أن يهز كتفيه ، قائلًا :

- أظنه كان يعلمه على نحو أو آخر .

تراجع (عبد الحكيم) فى حدة ، فى حين هتف (فؤاد) مستنكرًا :

- هل تعنى أنه مدبّره ؟!

أسرع (حسين) يقول :

- أنا لم أقل هذا .

ثم التقط أنفاسه فى صوت مسموع ، وتابع :

- فارق عظيم بين معرفة الشىء وتدبيره .. فأنتم لا تعرفون (جمال عبد الناصر) كما أعرفه .. إنه كتلة من الحماس والحزم والطموح والعناد .. وحتى لو علم بأمر محاولة الاغتيال ، عن طريق جهازنا مثلًا ، أو أحد الأجهزة الأخرى ، فلم يكن هذا ليمنعه عن إلقاء خطبته فى (المنشية) ، والوقوف أمام الجماهير ، التى يمنحها دائما كل ثقته وحبه .. صدقونى .. ربما كان (عبد الناصر) يعلم بأمر محاولة اغتياله ، ولكن هذا لن يمنعه من الوقوف فى وجهها شامخا .

هزّ (عبد الحكيم) رأسه ، وقال :

- عظيم هو هذا الرجل .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يستطرد فى حماس :

- هل رأيتم كيف استقبلته الجماهير ، عند عودته من مؤتمر (باندونج) ، فى الثانى من (مايو) الماضى ؟. لقد كان استقبالا حارًا ،

يذكرنى باستقبال (مصر) لـ (سعد زغلول) باشا ، عند عودته من المنفى ، بعد أن ...

حبست نظرة (حسين) الصارمة المستهجنة كلمات (عبد الحكيم) فى حلقه ، فازدرد لعابه فى رهبة ، وتمتم :

ـ بل كان أعظم من ذلك كثيرا .. كثيرًا جدًا .

وصلت (شريفة) فى هذه اللحظة ، تحمل صينية كبيرة ، فوقها عدد من أكواب الشاى ، وراحت تقدمها للجميع ، وعندما قدمت أحدها لـ (أمجد) ، ارتجف الكوب فى يدها ، مع اختلاجة قوية لقلبها ..

لقد كانت عينا (أمجد) العسليتان تتطلّعان إليها فى اهتمام بالغ ..

اهتمام رجل بامرأة ..

وخفق قلب (شريفة) بين ضلوعها ..

خفق كما لم يخفق من قبل ..

لقد جذب (أمجد) انتباهها ، منذ قدومه مع (حسين) ..

جذبها بوسامته ، وعينيه العسليتين العميقتين ، اللتين يطلّ منهما حنان الدنيا كلها ، حتى لقد تساءلت : كيف تسنى لمثله العمل مع شقيقها (حسين) ، فى جهاز أمنى واحد ؟ ..

وعندما التقط (أمجد) الكوب من بين أصابعها ، تلامست أناملهما ، فارتجف جسدها كله ، وأسرعت تترك الكوب بين أصابعه ، وتسحب يدها كلها فى حياء ، وجسدها يواصل ارتجافته اللذيذة ..

وارتفعت دقات قلبها فى شدة ، وهى تقدم أكواب الشاى الأخرى للباقين ، حتى لقد خشيت أن تبلغ هذه الدقات مسامعهم ، فيفتضح أمرها ، وينكشف ارتباكها ..

وعندما انتهت من تقديم الشاى للجميع ، استدارت بسرعة ، وغادرت المكان وقدماها تتعثران فى بعضهما البعض ، واختفت فى حجرتها ، ودقات قلبها تتسارع أكثر ، وأكثر ، وأكثر ..

لقد خفق قلبها أخيرا ..

ولكن هل تربح هى من هذه الخفقات ؟ ..

انتزع السؤال منها تلك النشوة ، التى فاضت فى عروقها ، فعاودها قلقها ، وهى تسأل نفسها :

ـ نعم .. هل أربح أنا ؟

وبقى السؤال فى أعماقها حائرا ..

دون جواب ..

* * *

ارتشف (حسين) رشفة من كوب الشاى الساخن ، ثم استرخى فى مقعده ، وقال :

ـ أين (طارق) .. ألسنا هنا للاحتفال بعيد مولده ؟

قالت (ناهد) :

ـ كنت أظننا سنحتفل به فى المساء ، لنوقد الشموع ، وننشد أنشودة عيد الميلاد .

هز (حسين) رأسه نفيا ، وقال :

ـ لن يمكننا هذا للأسف ، فالأمور تمضى بسرعة هذه الأيام ، والأحداث تتلاحق على نحو يحتاج إلى وجودنا باستمرار .

سأله (عبد الحكيم) فى اهتمام :

ـ هل سيقيم (عبد الناصر) علاقات مع الأمريكيين ؟

ابتسم (حسين) ، وأسبل جفنيه قليلا ، ورفع سبابته على نحو تمثيلى ، يجعله يبدو فى صورة العليم ببواطن الأمور ، وهو يقول :

ـ لم يحن موعد إجابة مثل هذا السؤال بعد .

كان من الواضح أن أسلوبه هذا قد أتى ثماره ، إذ تراجع (عبد الحكيم) مبهورا ، وهو يتمتم :

ـ بالطبع .. بالطبع .

وفجأة ارتسمت على شفتى (حسين) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـ (مفيد) .. أهلا يا شقيقى العزيز .. لماذا تأخرت فى العودة حتى الآن ؟

نهض لمصافحة (مفيد) فى حرارة ، ولكن هذا الأخير صافحه فى برود ، حاول أن يخفى به مقته ، ثم صافح (صلاح) و (أمجد) فى سرعة ، وقال :

ـ معذرة .. سأذهب إلى حجرتى بعض الوقت ، و ..

قاطعته (نعيمة) :

ـ ولكن هذا مستحيل .. أنسيت أننا لا نحتفل بعيد ميلاد (طارق) وحده ، وإنما بعيد ميلادك أيضا ، الذى يتوافق معه ؟

هتف (حسين) ، وكأنما لم ينتبه إلى الأمر ، إلا فى هذه اللحظة :

ـ يا إلهى ! .. هذا صحيح .

ثم التفت إلى شقيقته (ناهد) ، وقال :

ـ هيا يا (ناهد) .. أحضرى (البنهاوى) الصغير ، وسنحتفل بعيدى الميلاد معا .

أسرعت (ناهد) لإحضار (طارق) ، ولكن (مفيد) استوقفها فى حزم ، قائلا :

ـ لا تحضرى (طارق) وحده .

وجم الجميع ، وتطلعوا إلى (حسين) فى قلق ، وعقد هذا الأخير حاجبيه فى توتر ، لم يلبث أن تحوّل إلى غضب عارم ، عندما أضاف (مفيد) فى عناد :

ـ أحضرى أيضا والديه .. (حافظ) و (فاطمة) .

وهوت القلوب بين الضلوع ..

لقد أشعل (مفيد) الفتيل ..

فتيل العاصفة .

* * *

٣ ـ العاصفة ..

انعقد حاجبا (فاطمة) الكثين فى غضب ، وراحت تزفر فى غيظ ، وهى تعقد ساعديها ، أمام النافذة الصغيرة ، المطلة على الفناء الخلفى للسراى ، فى حجرة (حافظ) ، وتطلع إليها زوجها فى خنوع ، وهو يحمل طفله الصغير فى حنان ، وتردد طويلا ، قبل أن يسألها فى خفوت :

ـ ماذا حدث ؟

استدارت إليه فى غضب ، وهتفت بصوتها الأجشّ :

ـ أتسألنى ماذا حدث ؟ .. ألا تملك شعورا أو إحساسا يا رجل ؟! .. كيف يكون اليوم هو أول أعياد ميلاد طفلنا الوحيد ، ثم يصدر شقيقك (حسين) أوامره بألا نحضر حفل عيد الميلاد ؟

أطرق أرضا ، وهو يغمغم :

ـ إنه شقيقى الأكبر .

هتفت محنقة :

ـ هذا لا يمنحه الحق فى منعنا من حضور حفل عيد ميلاد ابننا .

حاول أن يهدىء من حدتها ، وهو يتمتم فى استكانة :

ـ ومنذ متى يقيمون حفلات أعياد الميلاد فى قريتنا ؟

قالت محتدة :

ـ لا شأن لى بما يحدث فى القرية ، فأنتم لا تتبعون قواعدها منذ مولدكم يا آل (البنهاوى) .. إنكم حتى ترتدون ثياب أهل المدن منذ طفولتكم .

قال فى لهجة أقرب إلى الضراعة :



استدارت إليه فى غضب ، وهتفت بصوتها الأجش :

ـ أتسألنى ماذا حدث ؟ ألا تملك شعورًا أو إحساسًا يا رجل ؟!

ـ ولكننا لم نكن نحتفل بأعياد الميلاد .

قالت فى غضب :

ـ ولكنكم تفعلون ، وها هوذا حفل عيد الميلاد يقام فى السراى ، وسيكون ابننا هو صاحبه ، دون أن نراه يفعل هذا .. أهذا عدل ؟

عاد يطرق برأسه أرضا ، وهو يقول فى خفوت :

ـ لا أحد يمكنه معارضة (حسين) .

قالت فى حدة :

ـ لماذا ؟ .. إنه شقيقك ، وكلكم تملكون مثلما يملكه .

هز رأسه نفيا ، وقال :

ـ لا .. أنت تعلمين أن والدنا ـ رحمه الله ـ قد أعطى كل شىء لـ (حسين) ، و ..

قاطعته ساخطة :

ـ هذا ظلم .

تجمعت دمعة كبيرة فى عينيه ، وهو يقول :

ـ لا تصفى والدى ـ رحمه الله ـ بالظلم يا (فاطمة) .. لقد كان أفضل أب فى الدنيا كلها ، ولو أنه على قيد الحياة لما ..

لم يستطع إنهاء عبارته ، عندما انهمرت الدموع من عينيه غزيرة ، فقالت (فاطمة) فى عصبية ، زادت من خشونة صوتها :

ـ كف عن ضعفك هذا .

قال منتحبا :

ـ لا يمكننى نسيان والدى أبدا .

لوحت بذراعها ، وقالت :

ـ لقد مات منذ سنوات ، والجميع الآن يحيون حياتهم العادية ، ولا يفكرون حتى فى زيارة قبره ، وأنت وحدك تبكيه إلى الآن .

لم يجب ، وهو يترك لدموعه العنان ، فزفرت مرة أخرى فى غيظ ومرارة ، وعادت تتطلع من النافذة ، مستطردة :

ـ لا فائدة .. إنه رزقى .. رزقى أن أحظى بالأضعف دائما ، ولعلّ الله (سبحانه وتعالى) يعوضنى عن هذا خيرا ..

ثم عقدت حاجبيها أكثر ، مضيفة :

ـ فى الدنيا ..

★ ★ ★

تلبد جو الحجرة بغيوم كثيفة ، بعد أن نطق (مفيد) عبارته الأخيرة ، وتسمرت (ناهد) فى مكانها ، وهى تنقل بصرها فى خوف وقلق ، بين وجه (حسين) ، الذى انعقد حاجباه ، وتطايرت شرارات الغضب من عينيه واضحة ، ووجه (مفيد) ، الذى بدا أشبه بتمثال للتحدى والعناد ..

وأدرك (صلاح) بدهائه وجود مشكلة عائلية كبيرة ، تخص (حافظ) و (فاطمة) ، وأن (مفيد) يبغض شقيقه (حسين) كل البغض ، واختزن عقله الخبيث هذه المعلومات ، وهو يدرك أنها قد تفيده يوما ، فى حين بدد (حسين) ضباب الصمت الرهيب ، المخيم على المكان ، وهو يقول فى لهجة آمرة ، ونبرات باردة كالثلج :

ـ (حافظ) مريض .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ وماذا عن (فاطمة) ؟

أجابه (حسين) بنفس البرود :

ـ واجب الزوجة أن ترعى زوجها .

واجه (مفيد) شقيقه بجسده كله ، وهو يقول فى تحد سافر :

ـ لست أظن هذا يمنعهما من حضور أول أعياد ميلاد طفلهما الوحيد .

ساد الصمت مرة أخرى ، واتجهت الأنظار كلها إلى (حسين) ، وتركزت على شفتيه ، فى انتظار جوابه ، فى حين راح عقل هذا الأخير يعمل فى سرعة ..

من الواضح أن (مفيد) يحاول إحراجه ، وتحديه علنا ، أمام (صلاح) و (أمجد) ، وهذا يضعه فى موقف حرج للغاية ..

إما أن يتصدى له ، ويرفض حضور (حافظ) و (فاطمة) ، مما قد يدفع (مفيد) إلى إعلان السبب الحقيقى لعدم إحضارهما ، فيذاع السر ، ويعلم (صلاح) و (أمجد) على الأقل أن شقيقه مختل العقل ، وإما أن يقبل بحضور (حافظ) و (فاطمة) ، فيفقد بهذا هيبته وسط عائلته ، وأمام مرءوسيه ..

ولم يستغرق تفكيره أكثر من دقيقة واحدة ، ارتسمت بعدها ابتسامة مخيفة على شفتيه ، وهو يقول :

ـ بالطبع لن يمنعهما هذا من الحضور ، وهذا ما أخبرتهما به ، ولكنهما أصرا على عدم إزعاجنا بمرض (حافظ) ، حتى لا يفسدا على ابنهما حفل عيد ميلاده الأول .

بدا الجواب منطقيا لـ (أمجد) ، فى حين ابتسم (صلاح) فى خبث ، وقد أدرك أن رئيسه يحيك خيوط لعبة ما ، أما أفراد أسرة (حسين) ، فقد تبادلوا نظرات القلق ، وقد بدا لهم جواب (حسين) عجيبا ، وتحول قلقهم إلى خوف يمتزج بدهشة بالغة ، عندما أضاف هذا الأخير :

ـ هيا يا (مفيد) .. سنحضرهما معا .

اتجه إلى شقيقه ، ووضع يده على كتفه ، ودفعه أمامه فى رفق إلى حجرة (حافظ) ، وفتح بابها وهو يقول فى صوت مرتفع ، حرص على أن يسمعه الجميع :

ـ مساء الخير يا أخى العزيز (حافظ) .. مساء الخير يا زوجة أخى الحبيبة .

وتضاعف الخوف والقلق والدهشة فى القلوب ، عندما دلف مع (مفيد) إلى الحجرة ، وأغلق بابها خلفهما فى هدوء ..

وسط الصمت الرهيب ، عادت (ناهد) تجلس إلى جوار زوجها ، وعيناها تتطلعان فى قلق إلى باب حجرة (حافظ) ، فى حين تنحنح (عبد الحكيم) ، والتفت إلى (صلاح) و (أمجد) ، قائلا :

- هل تتوقعان إعلان الجمهورية فى (السودان) ؟

جذبهما السؤال إلى حديث آخر ، حول (السودان) وظروفه بعد الاستقلال ، فى حين مالت (ناهد) نحو زوجها (فؤاد) ، وسألته فى قلق :

- أتظن أن (حسين) سيستجيب لـ (مفيد) ؟

أجابها (فؤاد) ، وهو يتطلع بدوره إلى حجرة (حافظ) :

- سيدهشنى كثيرا لو فعل ، فهو لم يعتد التنازل عن رأيه أبدًا .

سألته :

- ما الذى سيفعله إذن ؟

هز رأسه مجيبا :

- مع شقيقك (حسين) يستحيل استنتاج هذا أو توقعه ، ولكن ثقى أنه سيفعل أى شىء ليربح .

وصمت لحظة ، ثم استطرد :

- أى شىء ..

* * *

لم يكد (حسين) يغلق باب حجرة (حافظ) خلفه ، حتى تلاشت تلك الابتسامة الزائفة ، التى يرسمها على شفتيه ، وانعقد حاجباه فى غضب عنيف ، وهو يلتفت إلى (مفيد) ، قائلا :

- هل تحاول إحراجى أمام ضيفى ؟

قال (مفيد) فى حدة :

- بل أنت الذى يحاول فرض إرادته لى الجميع ، فى ديكتاتورية لا مثيل لها .

قال (حسين) فى غضب :

- إننى أحاول المحافظة على سمعة عائلة (البنهاوى) واسمه

صاح (مفيد) فى وجهه :

- بل تحافظ على اسمك وحده ، ولكننى لن أتراجع عن قولى يا (حسين) بك .. سيحضر (حافظ) و (فاطمة) حفل عيد ميلاد (طارق) ، وإلا خرجت لزميليك المحترمين ، وأوضحت لهما حقيقة رئيسهما الأنانى المغرور .

خشيت (فاطمة) ثورة (حسين) ، فقالت مرتجفة :

- لا داعى لهذا يا (مفيد) بك .. لست أريد حضور حفل عيد الميلاد هذا .

هتف (مفيد) :

- بل ستحضرينه ، وسيحضره (حافظ) أيضا .

تمتم (حافظ) فى خوف :

- لو أمرنى (حسين) .

قال (حسين) فى عصبية :

- هل رأيت ؟ .. إنهما يرفضان الحضور .

هتف (مفيد) :

- بل هما يخشيانك .

لوح (حسين) بكفه ، قائلا :

- فليكن .. المهم أنهما لن يحضرا الحفل .

قال (مفيد) فى عناد :

- بل سيحضرانه يا (حسين) ، وإلا كشفت حقيقتك للجميع .

أمسكه (حسين) من ياقته فى عنف ، وهو يقول :

ـ لا تحاول تهديدى يا (مفيد) .. إننى مستعد لسحق أى مخلوق ، يحاول اعتراض .. مسيرتى وطموحى ، حتى ولو كان أنت .

دفعه (مفيد) فى حدة ، قائلا :

ـ أتحداك أن توقفنى .

هتف (حسين) فى غضب :

ـ فليكن .

وأطلقت (فاطمة) شهقة ذعر ، واحتضنت ابنها فى قوة ، فى حين تراجع (حافظ) فى خوف ، عندما أخرج (حسين) مسدسه بحركة حادة ، وألصقه بصدغ شقيقه ، و ..

وقفزت سبابته إلى الزناد ..

* * *

٤ ـ القـوة ..

تسللت (نعيمة) إلى حجرة (شريفة) على أطراف أصابعها ، وابتسمت فى خبث ، عندما رأت تلك النظرة الشاردة الهائمة ، فى عينى (شريفة) ، فاقتربت منها فى خفة ، ومالت على أذنها هامسة :

ـ هل بلغت الجنة ؟

انتفضت (شريفة) فى ذعر ، وكأنها لم تنتبه لقدوم شقيقتها ، إلا فى هذه اللحظة ، وهتفت وهى تهب جالسة على الفراش :

ـ (نعيمة) .. لقد أفزعتنى .

ضحكت (نعيمة) فى مرح ، وهى تقول :

ـ أفزعتك أم انتزعتك من أحلام الحب والهوى ؟

تضرج وجه (شريفة) بحمرة الخجل ، وهى تقول :

ـ أى حب وأى هوى يا (نعيمة) ؟.. أنت تعلمين أننى لا أغادر السراى تقريبا .

مالت (نعيمة) نحوها ، وابتسمت قائلة :

ـ ومن قال إن الحب يحتاج إلى الخروج من السراى ؟

ثم غمزت بعينها ، مستطردة فى خبث :

ـ لقد جاء إلى هنا .

أشاحت (شريفة) بوجهها فى حياء ، وهى تتمتم :

ـ لست أفهم ماذا تعنين .

أطلقت (نعيمة) ضحكة أخرى ، وهمست :

- (أمجد) .. ذلك الوسيم .. هل أدركت ما أعنيه ؟

تضاعفت علامات الخجل على وجه (شريفة) ، وهى تقول فى ارتباك :

- ماذا عنه .

قرصتها (نعيمة) مداعبة ، وهى تقول :

- أتظنين شقيقتك الكبرى غبية ؟! .. لقد لاحظت نظراته إليك ، منذ رآك .. إنه يلاحقك بعينيه أينما ذهبت .

وضحكت مرة أخرى ، قبل أن تستطرد :

- لقد سقط فى بحر الهوى .

خفق قلب (شريفة) لكلمات شقيقتها ، وشعرت بالسعادة ؛ لأن غيرها قد انتبه إلى اهتمام (أمجد) ، ولكنها عادت تشيح بوجهها خجلا ، وهى تقول :

- أى قول هذا يا (نعيمة) ؟ .. إننى لم أره ، ولم يرنى ، إلا منذ ساعات قليلة ، فهل يمكن أن ينبث الحب ، فى هذا الوقت القصير ؟

كانت لهجتها تحمل من التساؤل واللهفة ، أكثر مما تحمل من الاستنكار ، مما جعل (نعيمة) تبتسم فى حنان ، ثم تهمس فى أذن شقيقتها :

- لم لا تسأله هذا السؤال ؟

تضرج وجه (شريفة) بحمرة الخجل ، وهى تقول :

- يا إلهى ! ومن يجرؤ على فعل هذا ؟

أطلقت (نعيمة) ضحكة أخرى ، وانحنت تطبع قبلة حانية على وجنة شقيقتها ، وهى تقول :

- أسعدك الله يا أحب شقيقاتى إلى قلبى .

اختلط الخجل بالسعادة فى قلب (شريفة) ، وأسرعت تحاول تغيير مجرى الحديث ، وهى تسأل شقيقتها :

- كيف حال زوجك (عمر) ؟

لم تدر لماذا اختارت هذاالسؤال بالذات ، ولكن يبدو أن فكرة الزواج ، التى تملأ رأسها ، وهى التى قادتها إليه ، ولكنه على - أية حال - لم يكن بالسؤال المناسب ؛ فلقد تلاشى المرح من ملامح (نعيمة) فور سماعه ، وبدا الحزن فى عينيها واضحا ، وهى تقول فى أسى :

- صدقينى يا (شريفة) .. إننى أحيا مع (عمر) تحت سقف واحد ، ولكننا نحيا كغريبين .. انه حتى لا يتحدث معى الا لماما ، ولا يداعب ابنته الا نادرا .

تجمعت دمعة كبيرة فى عينيها ، وسقطت على وجنتيها بسرعة ، وهى تستطرد :

- لقد علمت أنه يزور زوجته الأخرى سرا ، وخاصة بعد أن أنجبت له ذكرا ، وأظنه قد تزوجها مرة أخرى .

ضربت (شريفة) صدرها براحتها ، هاتفة :

- تزوجها مرة أخرى ؟! يا للنذل ! .. ينبغى ان تخبرى (حسين) ، و ..

قاطعتها (نعيمة) فى هلع :

- لا .. أرجوك .. لا أريد أن يعلم (حسين) أى شىء عن هذا .

هتفت بها (شريفة) فى دهشة :

- لماذا ؟ .. (حسين) يمكنه أن يجبره على أن يطلقها ثانية .

قالت (نعيمة) فى حدة :

- ومن قال اننى ارغب فى هذا ؟

ثم جففت دموعها بكفها ، وهى تستطرد فى أسى :

- لقد أجبر (حسين) (عمر) على إعادتى ، ولكنه لا يستطيع إجباره على أن يحبنى .. ان (عمر) يكرهنى يا (شريفة) ..نعم .. يكره (حسين) فى شخصى انا .. صحيح انه لا يستطيع اساءة معاملتى ، خشية إغضاب (حسين) ، الا ان هذا وحده لا يكفى لاسعاد أية زوجة .. إننى أريد حبه يا (شريفة) .. اريد المودة والرحمة ، اللذين هما عماد أى زواج ..

فليتزوج (عمر) أخرى لو أراد ، لو أن هذا سيعيد إلىّ حبه .

انهمرت الدموع من عينيها غزيرة ، عند هذه النقطة ، فأحاطت (شريفة) كتفيها بساعديها فى حنان ، وربتت عليهما مغمغمة :

ـ سيعود إليك حبه يا (نعيمة) صدقينى .

احتضنتها (نعيمة) ، قائلة :

ـ كم أتمنى هذا يا (شريفة) .. كم أتمنى هذا ..

وعادت دموعها تنهمر فى غزارة ..

* * *

لم يشعر (مفيد) بالخوف ، عندما التصقت فوهة مسدس شقيقه بصدغه ..

بل لم يشعر حتى بالدهشة ..

إنه يتوقع إقدام شقيقه على أى أمر ، مهما بلغت وضاعته ، لو أن هذا يعود عليه بالنفع ..

حتى قتله ..

لن يدهشه حتى أن يبلغ هذا المبلغ ..

وفى حدة ، تطلع (مفيد) إلى عينى شقيقه ، وقال :

ـ هل ستقتلنى ؟

أجابه (حسين) فى غضب صارم :

ـ نعم .. لو اضطرنى الأمر .

هتفت (فاطمة) فى ذعر :

ـ لا .. الشقيق لا يقتل شقيقه .. الدماء أبدا لا تتحول إلى ماء .. والـ ..

قاطعها (حسين) فى غضب :

ـ اصمتى .

انكمشت فى موضعها رعبا ، وأطرق (حافظ) بوجهه أرضا ، وهو يعض شفته السفلى فى مرارة ، فى حين شعر (طارق) الصغير بجو الاضطراب والتوتر ، الذى يسود الحجرة ، فانفجر باكيا ، وهو يتشبث بأمه فى هلع ، فراحت (فاطمة) تربت على ظهره مهدئة ، وهى تتطلع فى خوف إلى (مفيد) ، الذى قال فى تحد :

ـ حسنا يا (حسين) .. أطلق النار لو أردت .. اقتلنى لو أنك لا تجد غضاضة فى هذا يا شقيقى .. هيا .. اقتل أخاك يا (قابيل) .

ارتجفت شفتا (حسين) فى غضب ، وهو يبعد مسدسه عن صدغ (مفيد) ، قائلا :

ـ لا يا (مفيد) .. لن أقتلك .

ثم أضاف فى صرامة :

ـ ولكننى سأقتل من لا تتردد فى قتل نفسك من أجلها .

امتقع وجه (مفيد) ، وتطلع إليه فى تساؤل قلق ، فأعاد (حسين) مسدسه إلى جيبه ، وهو يستطرد فى غضب مخيف :

ـ إنك تقضى أيامك كلها فى البحث عن (مديحة) .. أليس كذلك ؟ .. أنا أعرف أين هى .

اتسعت عينا (مفيد) ، وهو يقول بصوت مختنق :

ـ تعلم ؟!

أجاب (حسين) فى حدة :

ـ نعم .. أعلم .. ولن أخبرك بمكانها أبدا ، ولكننى قد أرسل أحد رجالى لتصفيتها ، إذا ما لزم الأمر .

هتف (مفيد) فى هلع ، وهو يلتصق بالحائط :

ـ تصفيتها .. أتقصد قتلها ؟!

أجابه (حسين) فى صرامة :

ـ نعم .. قتلها .

عضَ (مفيد) شفتيه فى غضب ، وأمسك صدر شقيقه ، صائحا :

ـ أيها الوغد القذر ..

دفع (حسين) يده جانبا فى قسوة ، وهو يقول :

ـ إياك يا (مفيد) .. إياك أن تلفظ بلفظ واحد يسىء إلىَ ، سواء أكنا وحدنا ، أو مع الآخرين ، وإياك أن تتحدَى أوامرى مرة أخرى على هذا النحو ، وإلا فأقسم بكل ما حققته حتى الآن ، أن تكون حياة (مديحة) هى الثمن .. عندئذ فقط سأخبرك أين هى .. أو بمعنى أدق .. أين قبرها .

شحب وجه (مفيد) فى شدة ، وخيل إليه أنه سيهوى أرضا ، فاقد الوعى ، وأن الغثيان قد يدفعه لإفراغ محتويات معدته تحت قدمى شقيقه ، إلا أنه بذل أقصى جهده ليتماسك ، وهو يقول فى مرارة :

ـ أعلم أنك قادر على فعلها .

قال (حسين) فى صرامة :

ـ ودون أدنى تردد .

لم ينبس (مفيد) ببنت شفة هذه المرة ، ولكن ملامحه أنبأت شقيقه بقبوله للأمر ، من أجل (مديحة) ، لذا فقد اعتدل (حسين) فى ظفر ، ومد يديه إلى (فاطمة) ، قائلا :

ـ هاتى (طارق) .

ناولته الصغير ، الذى تشبث بها باكيا ، فضمه إلى صدره ، وهمس فى أذنه فى لهجة حانية ، بدت شديدة التناقض ، مع صرامته السابقة :

ـ اهدأ أيها الصغير .. أهدأ يا حفيد (البنهاوى) .

ثم استعاد صرامته بغتة ، وهو يلتفت إلى (مفيد) ، مستطردا :

ـ هيا بنا .

تبعه (مفيد) فى استسلام ومرارة إلى الخارج ، ولم يكد (حسين) يغادر الحجرة ، حتى عادت تلك الابتسامة الزائفة ترتسم على شفتيه ، وهو يقول :

ـ ألم أقل لكم ؟ .. لقد رفضا الحضور ..

وكان من الواضح للجميع أن (حسين) قد ربح المعركة .. ربحها بكل جدارة ..

* * *

كان حفل عيد الميلاد سريعا قصيرا ، على الرغم من أصناف الطعام العديدة ، التى حفلت بها المائدة ، ولم يتناول (مفيد) لقمة واحدة ؛ بسبب تلك الغصة ، التى ألمت حلقه ، فى حين أقبل (صلاح) على الطعام فى نهم واضح ، والتهبت وجنتا (شريفة) بالخجل ، وخفق قلبها فى سعادة ؛ لأن (أمجد) لم يرفع عينيه عنها طيلة الوقت ..

وبعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام ، وقفت (شريفة) تقدم المناشف للجميع ، بعد غسل أيديهم ، وعندما حانت لحظة تقديمها المنشفة لـ (أمجد) ، تطلع هذا الأخير إلى عينيها ، وهو يقول فى ارتباك :

ـ آنسة (شريفة) .. تسعدنى جدا مقابلتك اليوم .

خفضت عينيها فى حياء ، وغمغمت :

ـ أشكرك .

ران عليهما الصمت لحظة ، تلفت (أمجد) خلالها حوله ، ليتأكد أن أحدا لا ينتبه إليهما ، قبل أن يقول :

ـ آنسة (شريفة) .. هل .. هل ..

لم يتم كلمته ، وانتظرت هى أن يفعل ، إلا أن الوقت بدا لها أطول مما ينبغى ، فتمتمت :

ـ هل راق لك الطعام ؟

لم تحصل على جواب لهذا السؤال أيضا ، فرفعت عينيها إليه فى بطء ، ولم تكد عيناها تلتقيان بعينيه ، حتى بدا وكأنه قد حسم أمره على الفور ، وسألها فى سرعة :

ـ آنسة (شريفة) .. أتقبليننى زوجا ؟

وكادت (شريفة) تسقط فاقدة الوعى .

* * *

٥ ـ من القلب ..

اتخذ (صلاح) المقعد المجاور لـ (حسين) ، وأشعل سيجارته ، وهو يقول فى لهجة تفوح منها رائحة النفاق :

ـ اليوم فقط عرفت سر عبقريتك يا (حسين) بك .

التفت إليه (حسين) فى تراخ ظاهرى ، وهو يسأله :

ـ أى سر هذا ؟

أجابه (صلاح) :

ـ إنك تمتلك شخصية قوية ، يعجز أى مخلوق عن تحدى أوامرها ، وهذا يبدو واضحا .

أومأ (حسين) برأسه فى بطء ، وكأنما يعلن موافقته ، ثم استرخى فى مقعده ، وأسبل جفنيه ، فنفث (صلاح) دخان سيجارته ، ومال على أذن (حسين) ، هامسا :

ـ لقد وصلتنى بعض المعلومات من (باريس) .

بثت العبارة الكثير من الحماس فى عروق (حسين) ، ففتح عينيه فى سرعة ، وألقى نظرة سريعة على أفراد أسرته ؛ ليتأكد من انهماكهم فى أحاديث جانبية ، ثم مال نحو (صلاح) ، يسأله فى اهتمام بالغ :

ـ عن (عايدة) .

أجابه (صلاح) بابتسامته الخبيثة :

ـ نعم يا سيدى .. عن الأميرة السابقة (عايدة) .

قفزت ذاكرة (حسين) إلى علاقته الماضية بالأميرة (عايدة) ، التى خدعته ، وتظاهرت بوقوعها فى حبه ، حتى حصلت منه على تصريح

بالسفر إلى (باريس) ، حيث أموالها ومجوهراتها ، ثم نبذته فى ازدراء مهين ، مازال يؤلم كرامته حتى اليوم ..

وبكل لهفته ، سأل (صلاح) :

ـ ماذا لديك عنها ؟

أجابه (صلاح) :

ـ إنها تحيا حياة لاهية عابثة فى (باريس) ، وتلعن الثورة ورجالها فى كل مجلس ، وهى تصادق الآن ثريًا فرنسيًا ، يمتلك فندقًا كبيرًا ، فى قلب (باريس) ، ابتاع لها فيلا أنيقة ، فى أرقى ضواحى العاصمة .

استمع إليه (حسين) فى انتباه ، ثم سأله :

ـ ألم تتزوج بعد ؟

هز (صلاح) رأسه نفيا ، وقال بابتسامته الخبيثة :

ـ لا .. ليس بعد .. يبدو أن حياة الاستقرار لا تناسبها .

وافقه (حسين) بإيماءة شاردة ، ثم اعتدل فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وعقد حاجبيه فى تفكير عميق ، فمال (صلاح) نحوه ، وقال :

ـ يمكننا تصفيتها فى سهولة .

هز (حسين) رأسه نفيا فى حزم ، وهو يقول :

ـ لا .. ليس هذا .

قال (صلاح) :

ـ ما رأيك فى إحراق الفيلا ؟

قال (حسين) :

ـ وليس هذا أيضا .

ثم التفت إلى (صلاح) ، وقال فى صرامة :

ـ أريدها هنا .

تراجع (صلاح) ، والتمعت عيناه فى قوة ، وهو يقول :

ـ هنا ؟!

أجابه (حسين) فى نفس الصرامة :

ـ نعم يا (صلاح) .. أريدها هنا .. هل يمكنك إحضار الأميـرة (عايدة) إلى هنا ؟

ارتسمت على شفتى (صلاح) ابتسامة شبيهة بابتسامة ذئب ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. يمكننى هذا .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ لو أمرتنى به .

اعتدل (حسين) ، وأدار جسده كله إلى (صلاح) ، وقال :

ـ حسنا يا (صلاح) .. انا آمرك بإحضار (عايدة) إلى هنا .. على قيد الحياة .

التمعت عينا (صلاح) أكثر ، ونفث دخان سيجارته فى بطء ، وهو يقول :

ـ سأحضرها يا سيدى .. سأحضرها على قيد الحياة ..

★ ★ ★

لم يخفق قلب (شريفة) ، فى عمرها كله ، كما خفق فى هذه اللحظة ، و (أمجد) بكل وسامته ـ يطلب يدها ، على هذا النحو الصريح ..

ولدقيقة كاملة ، تجمدت كتمثال من الرخام ، وهى تتطلع إليه فى ذهول ..

أهذه حقيقة أم حلم ؟

هل طلب يدها حقا ؟ ..

هل شاء لها القدر أخيرا أن تنعم بالحب والزواج ؟ ..

دوى صوت دقات قلبها فى أذنيها ، أو هكذا خيّل لها ، عندما كرّر (أمجد) سؤاله فى ترقّب قلق :

ـ هل تقبلينني زوجا يا آنسة (شريفة) ؟

هنا فقط خفضت عينيها فى حياء ، وتمتمت فى ارتباك :

ـ (حسين) وحده صاحب الرأى فى هذا .

سألها فى تشبث :

ـ وماذا عنك ؟ .. أريد رأيك الشخصى .

أومأت برأسها إيجابا فى حياء ، ثم ألقت المنشفة بين يديه ، واندفعت نحو حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها ، ثم هتفت فى سعادة :

ـ نعم .. نعم .. أوافق .. أوافق يا (أمجد) .

ورقص قلبها طربا ..

★ ★ ★

انهمرت دموع المرارة من عينى (مفيد) غزيرة ، وهو يجلس فوق فراشه ، ويضمّ ركبتيه إلى صدره فى قوة ..

كان ما حدث بينه وبين (حسين) ، منذ ساعة واحدة ، يمزّق قلبه تمزيقًا ..

لم يصدّق أبدا أنه سيخضع يوما لديكتاتورية (حسين) ..

لقد تصوّر أنه الوحيد القادر على التصدى له ومواجهته ، مهما كان الثمن ..

ولكن الثمن كان أكثر فداحة مما يتصوّر ..

بل مما تصوّرته حتى أبشع كوابيسه ..

الثمن هو حياة من يحبّ ..

حياة (مديحة) ..

وعلى الرغم مما يدعيه العلماء ، من أن الدموع كلها ذات منشأ وتركيب

كيميائى واحد ، إلا أنه شعر بمذاق دموعه يختلف ، عندما ذكر قلبه اسم (مديحة) ..

لقد تحولت من دموع المرارة إلى دموع اللوعة والحرمان ..

تُرى أين هى ؟ ..

أين ذهبت ؟ ..

عادت به الذاكرة إلى أيامهما معًا ، ولقاءاتهما عند جذع الشجرة العجوز ..

تذكر كيف هرعت إليه ، عندما اتهمه العمدة والمأمور بالسرقة ، وكيف تلامست أناملهما عبر قضبان نافذة حجرة الحجز ..

وبكل اللوعة والوجد فى صدره ، وجد نفسه يهتف :

ـ فعلتها من أجلك يا (مديحة) .. من أجلك يا حبيبتى .

وانهمرت الدموع من عينيه أكثر غزارة ..

★ ★ ★

تطلّع (حسين) إلى ساعة معصمه ، وقال فى لهجة شبه آمرة :

ـ حان موعد الرحيل .

نهض (صلاح) على الفور ، وهو يقول :

ـ أنا على أتم استعداد للرحيل .

أما (أمجد) ، فقد ارتبك وفرك أصابعه فى توتر ، وهو يغمغم :

ـ بهذه السرعة .

التفت إليه (حسين) ، وتطلّع إليه لحظات فى تساؤل ، ثم سأله على نحو مباشر :

ـ ماذا هناك ؟

نهض (أمجد) ، وهو يقول فى تلعثم :

ـ هناك أمر .. أعنى موضوعًا خاصًا .. أردت أن أتحدث فيه معك يا سيّدى .

سأله (حسين) :

ـ أى أمر هذا ؟

ألقى (أمجد) نظرة مرتبكة على (صلاح) ، وكرّر :

ـ إنه أمر خاص و ..

أدرك (حسين) مقصده على الفور ، فالتفت إلى (صلاح) ، وقال آمرًا :

ـ انتظرنا فى السيارة .

ابتسم (صلاح) فى خبث ، وقال :

ـ سمعًا وطاعة يا سيّدى .

وغادر السراى فى خطوات سريعة ، دون أن يصافح أسرة (حسين) ، فى حين قال (حسين) لـ (أمجد) فى حزم :

ـ تعال .

تبعه (أمجد) فى استسلام إلى حجرة جانبية ، فى حين تابعهم الجميع بأبصارهم فى حيرة ، وقالت (توحيدة) :

ـ ماذا حدث ؟ .. لقد انصرف (صلاح) بك دون تحيتنا ، وها هوذا (حسين) يصحب (أمجد) إلى حجرة جانبية .

حاول (عبد الحكيم) إخفاء قلقه ، وهو يقول :

ـ ربما هو أمر يخصّ عمل (حسين) .. إن عمله بالغ السرية ، أليس كذلك ؟

جاءت لهجته أكثر إثارة للقلق ، إلا أن أحدًا لم ينبس ببنت شفة ، وإنما تعلقت أنظارهم بالحجرة ، وأرهف كل منهم سمعه ، فى محاولة لمعرفة مايدور داخلها ..

أما (أمجد) ، فقد تضاعف ارتباكه ، عندما وجد نفسه وحيدًا مع (حسين) ، الذى سأله فى صرامة :

ـ حسنًا ، ما هو هذا الأمر الخاص ؟

أجابه (أمجد) فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يُلجم لسانه ، لو لم يبح بما لديه على الفور :

ـ الآنسة (شريفة) .

عقد (حسين) حاجبيه ، قائلا :

ـ ماذا عنها ؟

فرك (أمجد) أصابعه فى توتر ، وهو يجيب :

ـ إننى .. أعنى أن .. الواقع ..

قال (حسين) فى غضب :

ـ قل ماذا لديك على الفور .

ازدرد (أمجد) لعابه ، واندفع يقول :

ـ أريد الزواج منها .

رفع (حسين) حاجبيه فى دهشة ، هاتفًا :

ـ الزواج ؟!

ثم شبك أصابع كفيه أمام صدره ، واستطرد :

ـ لماذا ؟

بدا السؤال عجيبًا ، مما أدهش (أمجد) ، وزاد من ارتباكه ، فغمغم :

ـ الزواج سنة من سنن الكون يا سيدى ، وكل الأديان تحض عليه ، و ..

قاطعه فى حدة :

ـ لست أريد محاضرة فلسفية ، بل أريد جوابًا واحدًا .. لماذا (شريفة) بالذات ؟

ثم اعتدل مستطردًا :

ـ ألأنها شقيقتى .

هزَّ (أمجد) رأسه نفيًا فى بطء ، ثم أطرق بوجهه أرضًا ، وقال :

ـ كان يمكننى أن أجيب بالإيجاب يا سيدي ، فيسعدنى بالطبع أن أصاهرك ، ولكن الواقع أن سبب اختيارى للآنسة (شريفة) يعود إلى حيائها الواضح ، فمنذ صباى أؤمن تمامًا بأن الحياء هو عنوان أنوثة المرأة ، وأن المرأة الخجول تكون دائمًا زوجة صالحة .. هكذا كانت أمى ، وهكذا أتمنى زوجتى دائمًا .

ران عليهما الصمت لحظة ، ثم سأله (حسين) :

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا سيدى .. هذا هو السبب الوحيد .

تأمله (حسين) لحظات فى صمت ، ثم نهض من مقعده ، وشبك كفيه خلف ظهره ، وقال :

ـ اسمع يا (أمجد) .. أنت شاب ممتاز ، سينتظرك حتمًا مستقبل مبهر ، ولن أجد من هو أفضل منك زوجًا لشقيقتى ، و ..

قاطعه (أمجد) فى لهفة :

ـ أيعنى هذا موافقتك يا سيدى ؟

ابتسم (حسين) ، وهو يقول :

ـ ما رأيك أنت ؟

وتهللت أسارير (أمجد) ..

★ ★ ★

تحركت (شريفة) فى حجرتها فى قلق ، وهى تسأل نفسها عما سيسفر عنه حديث (أمجد) و (حسين) ..

كانت الوحيدة التى أدركت مغزى اجتماعهما معًا فى الحجرة الأخرى ، فلم تحتمل البقاء والانتظار ، وأسرعت مرة ثالثة إلى حجرتها ..



تضرج وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت ، وأشاحت بوجهها فى حياء ، فاتسعت ابتسامته ..

وفى عقلها دارت عشرات التساؤلات ..

هل يوافق (حسين) ؟ ..

هل يرضى بـ (أمجد) زوجا لها ؟ ..

راحت تحلم بزواجها من (أمجد) ، وتبنى القصور فى بحر أحلامها ، حتى سمعت دقات رصينة على باب الحجرة ، تعرفت فيها دقات (حسين) ، فانتفض قلبها بين ضلوعها ، وهى تقول :

ـ تفضل .

دلف (حسين) إلى الحجرة ، ووجهه يحمل ابتسامة كبيرة ، وقال :

ـ كيف حال شقيقتى العزيزة ؟

تضرج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تقول :

ـ فى خير حال .

اتجه إلى فراشها ، وجلس على طرفه ، وراح يتطلع إليها لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ يبدو أنك كنت فاتنة هذا المساء .

سألته فى حياء :

ـ لماذا ؟

ابتسم وهو يقول :

ـ هناك من سقط صريع هذه الفتنة .

تضرج وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت ، وأشاحت بوجهها فى حياء ، فاتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ أتعلمين أن زميلى (أمجد) .. اليوزباشى (أمجد) ، قد طلب يدك منى منذ قليل .

رقص قلبها طربا ، وخفق فى سعادة ، وكادت تبكى بدموع الفرح ، لولا أن أضاف (حسين) فى صرامة وقسوة مفاجئتين :

ـ ولكننى رفضت طلبه .. رفضته تماما .

وهوى قلبها صريعا .

* * *

٦ ـ القلق ..

اختطفت (فاطمة) طفلها ، من بين يدى (نعيمة) فى لهفة ، وانهالت عليه بالقبلات فى حرارة ، فمصمصت (نعيمة) شفتيها ، وهى تقول :

ـ إلى هذا الحد ؟!

رمقتها (فاطمة) بنظرة عصبية ، وهى تضمّ الصغير إلى صدرها ، هاتفة :

ـ إنه ابنى .

مصمصت (نعيمة) شفتيها مرة أخرى ، وقالت فى ازدراء :

ـ ابن الغبراء .

أجابتها (فاطمة) فى تحد ساخط :

ـ إنه ابن شقيقك على الأقل .

هزت (نعيمة) كتفيها فى احتقار ، وغادرت الحجرة ، لتصفق بابها خلفها فى عنف ، فقالت (فاطمة) فى غضب ، وهى تلقم الصغير الجائع ثديها :

ـ لماذا تعاملنى شقيقاتك بهذا الازدراء ؟

رفع (حافظ) عينيه إليها فى استكانة ، وغمغم :

ـ إنهن طيبات القلب .

مطت شفتيها فى شدة ، وهى تقول :

ـ طيبات القلب ؟! .. يالك من غر ساذج .

ثم ربتت على الصغير فى حنو بالغ ، وهى تضمه إليها ، قائلة :

ـ لماذا وافقن على زواجى منك ، مادمن يحتقرننى إلى هذا الحد ؟

شرد ببصره ، وهو يتمتم :

ـ (حسين) هو الذى وافق على زواجنا .

بدا المقت فى نظراتها وصوتها ، وهى تردد :

ـ (حسين) .

كان الاسم يبعث فى نفسها دائما ذلك المزيج ، من الرهبة والمقت والخوف ، فهى تبغض احتقاره لها ، وتدين له بنقل والدها من مصاف العامل الأجرى ، إلى منصب عمدة القرية فى الوقت ذاته ..

صحيح أنها تعلم أنه لم يفعل هذا من أجلها ..

ولا من أجل والدها ..

لقد فعله من أجل نفسه ..

من أجل أن يصبح حموه عمدة القرية ، لا مجرد عامل أجرى ..

وحتى بعد أن أصبح والدها عمدة ، مازالت شقيقات زوجها يعاملنها كالخادمات ..

وفجأة عجز قلبها عن كتمان مايجيش به صدرها ، فنقل غضبها ومقتها إلى لسانها ، وهى تقول فى حدة :

ـ حمدا لله أن (حسين) قد انصرف .

غمغم (حافظ) ، وهو يلقى ببصره عبر النافذة ، إلى السيارة المدنية الأنيقة ، ذات الرقم الفردى الصغير :

ـ إنه لم ينصرف بعد .

هتفت فى دهشة :

ـ لم ينصرف ؟!

ثم اتجهت إلى النافذة ، وألقت نظرة بدورها على السيارة ، ورأت (أمجد) يغادر السراى ، ووجهه يحمل باحتقانه عدة معان ، ويدلف إلى جوار (صلاح) فى السيارة ، فغمغمت :

ـ لماذا بقى ؟

وحدثها قلبها أن بقاء (حسين) يعنى قرب اتخاذ قرار جديد فى الأسرة ..

قرار حاسم ..

★ ★ ★

لم تستطع (شريفة) كتمان دموعها هذه المرة ..

لقد حطم (حسين) قلبها للمرة الثانية ..

حطمه بلا رحمة ..

وتفجرت الدموع من عينيها غزيرة ، فأشاحت بوجهها لتخفيها عن شقيقها ، إلا أن نحيبها تجاوز حلقها وشفتيها ، فهتف (حسين) فى غضب :

ـ أيتها الغبية .. لقد رفضت هذا الزواج من أجلك .

تمتمت فى مرارة :

ـ من أجلى أنا ؟

لوّح بذراعه هاتفا :

ـ نعم .. من أجلك أنت .. أتتصورين أنك لا تستحقين سوى الزواج من يوزباشى فى إدارتى ؟! .. لا يا (شريفة) .. أنت لا تفهمين الحياة إذن .. تلك الطيبة والوداعة ، اللتان يتظاهر بهما (أمجد) هذا ، لن تخدعانى قط .. السبب الحقيقى الوحيد لرغبته فى الزواج منك هو استغلال مركزى وموقعى ، للرقى والترقى .. ألا تفهمين هذا ؟

أرادت أن تهتف به .. إنها لاتفهم هذا ..

لم تفهمه أبدا ..

هو وحده يفهم تلك العلاقات المريبة المعقدة ، التى تستغل الزواج نفسه لتحقيق الأغراض والطموحات ..

هو نفسه فعل هذا ، عندما وافق على أن يتزوج (فؤاد) شقيقتها

(ناهد) بدلا منها ، لمجرد أنه شقيق أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ..

أما هى ، فلا تفهم سوى طبيعة مشاعرها ، وأنوثتها ..

ولقد شعرت أن (أمجد) يريدها بحق ..

يريد فيها الأنثى ، لا شقيقة رئيسه ..

ولكن ماذا يمكنها أن تفعل ؟ ..

كيف يمكنها أن تعترض على رأى شقيقها ؟ ..

وفى مرارة ، راحت دموعها الحارة تغرق وجنتيها ، و (حسين) يواصل :

ـ إننى أدخر لك زواجا رائعا ، لن تحلم فتاة بمثله أبدا .. صدقينى يا (شريفة) .. ستتزوجين يوما من وزير .. وهذا وعد .

خفضت عينيها ، متمتمة فى ألم :

ـ كما تشاء يا (حسين) .

تطلع إليها لحظة فى صمت وصرامة ، وهو يشعر أنها لم تقتنع بقوله ..

ولكن هذا لم يكن يعنيه كثيرا ..

المهم أنها خضعت لأمره ..

هذا هو المهم ..

وفى صمت ، ودون أن يبالى بقلبها المحطم ، أو مشاعرها الممزقة ، غادر حجرتها ، وأوصد بابها خلفه فى حذر ، ثم هبط إلى الطابق السفلى ، وألقى تحية الوداع على شقيقاته وأزواجهن ، ثم غادر السراى إلى السيارة ، وجلس فى أريكتها الخلفية ، دون أن يلقى نظرة واحدة على (أمجد) ، الذى بدا محتقن الوجه ، كسير القلب ، ممزق الفؤاد ..

وانطلقت السيارة لتغادر القرية ، وهى تحمل الصمت ، إلى جانب ركابها الثلاثة ، حتى قال (صلاح) ، محاولا تحطيم ذلك الراكب المعنوى الرابع :

ـ ما رأيكما فى ذلك الميثاق العسكرى ، الذى تم توقيعه ، بين (مصر) و (سوريا) ؟

لم ينبس (أمجد) ببنت شفة ، إذ لم يجد فى نفسه الرغبة فى الحديث ، فى حين قال (حسين) فى هدوء ، وهو يسبل جفنيه ، ويسترخى فى مقعده :

ـ خطوة موفقة ، وهى الصفعة الثانية للأمريكيين ، بعد صفقة الأسلحة التشيكية ، التى أعلن عنها (جمال) ، فى معرض التصوير الضونى ، الذى أقامته إدارة الشئون العامة للجيش .

هز (صلاح) رأسه ، وقال :

ـ عظيم هو (جمال) هذا .. أراهن أن الأمريكيين يمقتونه أشد المقت ، بعد كل ما فعله ويفعله بهم .

ثم التفت إلى (أمجد) ، يسأله فى خبث :

ـ أليس كذلك أيها الزميل ؟

لم يسمع (أمجد) السؤال ..

كان ذهنه شاردا ، يفكر فى رفض (حسين) زواجه من شقيقته ، ويتساءل : لماذا فعل (حسين) هذا ؟ ..

من المؤكد أنه ينتظر لشقيقته زوجًا أفضل ..

(أمجد) ..

أيقظه صوت (حسين) من أفكاره ، فانتفض انتفاضة خفيفة ، لم ينتبه إليها زميلاه ، لحسن حظه ، والتفت إلى (حسين) ، قائلا :

ـ ماذا يا (حسين) بك ؟

سأله (حسين) فى صرامة :

ـ ما رأيك فيما يقول (صلاح) ؟

تطلع إليه (أمجد) فى حيرة ، فابتسم (صلاح) فى خبث ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنك لم تسمع ماأقول .

غمغم (أمجد) :

ـ هذا صحيح .

رمقه (حسين) بنظرة صارمة ، وقال :

ـ من الخطأ أن تشرد أفكار رجل يعمل فى مجالنا يا (أمجد) ، فلحظة شرود واحدة ، قد تكلف المرء مستقبله كله .

احتقن وجه (أمجد) ، وهو يتمتم :

ـ معذرة يا (حسين) بك .

قالها وأشاح بوجهه فى ضيق ، فرمقه (حسين) بنظرة صارمة أخرى ، ثم التفت إلى (صلاح) وقال :

ـ أظن أنه من الأفضل أن تستعد للسفر قريبا يا (صلاح) .

أدرك (صلاح) مايرمى إليه رئيسه المباشر على الفور ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سأله فى اهتمام :

ـ إلى أين يا (حسين) بك ؟

التقط (حسين) نفسا عميقا ، استرجع معه عشرات الذكريات من الماضى ، يتوسطها وجه (عايدة) ، بجمالها وفتنتها ، وشعرها الأسود الفاحم الطويل ، المنسدل على كتفيها فى رقة ونعومة ، وعينيها الخضراوين ، وفمها الدقيق الساحر ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ إلى (باريس) .

تألقت عينا (صلاح) ، وتراجع فى مقعده ، وهو يقول هامسا :

ـ فهمت يا (حسين) بك .. فهمت

وكان فى القول الكفاية ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا ، عندما دفع (عمر)

زوج (نعيمة) باب منزله ، وعبره فى صمت ، ثم اتجه إلى حجرة نومه فى خطوات واسعة ، ولم يكد يدلف إليها ، حتى استقبلته نظرات (نعيمة) ، التى تحمل عتابا عميقا ، يختلط بحزن لاحصر له ، وهى تقول :

- مساء الخير .

ألقى عليها نظرة تفيض بالكراهية ، وهو يغمغم :

- مساء الخير .

راح يبدل ثيابه فى تجاهل تام لوجودها ، حتى قالت فى خفوت :

- (حسين) يرسل إليك تحياته .

همهم بكلمات مبهمة ، لم تع منها شيئا ، ثم اتجه الى الفراش ، ودس جسده تحت أغطيته ، دون أن يتبادل معها كلمة زائدة ، وتطلعت إليه هى لحظات فى ضيق ، قبل أن تقول فى عصبية :

- كنت عندها .. أليس كذلك ؟

قال دون أن يلتفت إليها :

- عند من ؟

أجابته فى حدة :

- عند (فاتن) .. زوجتك الثانية .

ساد الصمت لحظة ، قبل أن يجيبها فى برود :

- ومن قال ان لى زوجة ثانية ؟

ثم اضيفت الى صوته رنة ساخرة مريرة ، وهو يضيف :

- ألم يخبرك شقيقك أننى طلقتها ؟

قالت فى عصبية تمتزج بالمرارة :

- ولكنك أعدتها الى عصمتك ، وخاصة بعد أن أنجبت لك (نجيب) .

قال فى اقتضاب :

- خطأ .

صرخت :

- بل صواب .. الجميع فى البلدة يعلمون هذا ، ويعلمون أيضا انك تقضى معظم وقتك عندها .

نهض فى حركة حادة ، وهو يقول :

- لماذا لا تخبرين شقيقك العظيم بهذا إذن ؟ .. ربما أمكنه إجبارى على تطليقها مرة ثانية . ولكن هل يمكنه منع (نجيب) من كونه ابنى ؟

سالت الدموع من عينيها ، وهى تقول :

- أعلم أنك تكرهنى بسبب هذا .. تكرهنى منذ أجبرك (حسين) على إعادتى لعصمتك ، ولكن ماذنبى أنا ؟ .. إننى زوجتك يا (عمر) ، ولست مسئولة عما فعله بك شقيقى .. إننى لم اطلب منه أن يفعل شيئا مما فعل .

قال فى سخرية غاضبة :

- حقا ؟!

بكت فى حرارة ، وهى تقول :

- أقسم لك الا شأن لى بما حدث .. إنه لم يطلب من رجال الثورة إلقاء القبض عليك فى المرة الاولى ، كما لم يسالنى رأيى ، قبل أن يجبرك على إعادتى لعصمتك فى المرة الثانية .

أشاح بوجهه عنها ، دون أن يعلق بحرف واحد ، فتشبثت بكتفه ، مستطردة :

- أبق على (فاتن) لو أردت يا (عمر) .. أبق عليها زوجة ثانية لك ، فهذا حق منحك الله (سبحانه وتعالى) إياه ، ولكن تذكر أنه حق مشروط بالعدل ، فلابد لمن يتزوج أكثر من واحدة أن يعدل بين زوجاته ، وأنت لا تفعل .

غمغم فى مرارة :

- لا يمكننى أن أفعل .. العدل يحتاج إلى شىء من الحب على الأقل .

اعتدلت فى حركة حادة ، وشعرت بطعنة عنيفة فى كرامتها ، فجفت الدموع من عينيها ، وقالت فى عصبية :

- لا يوجد سوى حل واحد إذن .

سألها فى ضجر :

- ماهو ؟

أجابته فى انفعال :

- أن تطلقنى يا (عمر) .. وإلى الأبد ..

وبدا من الواضح أنها ليلة طويلة ..

طويلة جدا .

* * *

٧ - المسافر ..

ارتسمت ابتسامة واسعة ، على شفتى (جودة) ، وهو يرفع كفه إلى رأسه ، مرسلا تحية إلى (مفيد) ، وهاتفا :

- صباح الخير يا (مفيد) بك .. تفضل .

رد (مفيد) تحيته ، وهو يهمهم بكلمات غير مسموعة ، فى طريقه إلى موقف السيارات بالقرية ، ولكن (جودة) صاح به فى حرارة :

- تفضل يا (مفيد) بك .. لا توجد سيارات الآن .. يمكنك انتظار وصول أية سيارة هنا .

غمغم (مفيد) :

- أشكرك يا معلم (جودة) .. إننى ..

ولكن (جودة) قاطعه ، وهو يحمل مقعدا ، ويسرع به إلى حافة المقهى ، فيضعه أمام (مفيد) ، هاتفا :

- تفضل يابك .. تفضل .. لا يصح أن تقف ، والمقهى على قيد خطوات منك .

تردد (مفيد) فى حرج ، الا أن خجله منعه من رفض دعوى مقدمة على هذا النحو ، فاتجه فى حياء إلى المقعد ، ولم يكد يستقر فوقه ، حتى كانت أمامه مائدة معدنية صغيرة ، وفوقها كوب من الشاى الساخن ، فغمغم :

- شكرا يا (جودة) .

ابتسم (جودة) فى دهاء ، وهو يقول :

- إنه مقهاك يا (مفيد) بك .

لم يكن (مفيد) يشعر برغبة حقيقية فى تناول الشاى ، ولكنه التقط الكوب الساخن ، وارتشف منه رشفة صغيرة ، خشية إحراج (جودة) ، الذى قدم إليه سيجارة رفيعة ، وهو يبتسم قائلا :

ـ أفضل أنواع التبغ فى المنطقة .

هز (مفيد) رأسه نفيا ، وقال :

ـ لست أدخن .

هتف (جودة) مستنكرا :

ـ لماذا .. ألم تحصل على شهادتك الكبرى ؟

ابتسم (مفيد) ابتسامة شاحبة ، هو يقول :

ـ وما شأن شهادتى بالتدخين ؟

هز (جودة) كتفيه ، قائلا :

ـ الحصول على الشهادة يعنى أنك قد أصبحت رجلا ، والتدخين يعنى الرجولة .

سأله (مفيد) فى دهشة :

ـ من قال أن التدخين يعنى الرجولة ؟ .. إنه على العكس ، يعنى ضعف الإرادة .

هتف (جودة) :

ـ خطأ .

ثم لوح بكفه ، وهو يضيف كخبير هزلى :

ـ الدخان هو أكبر علامات الرجولة ، والشهامة ، و ..

أتاه صوت من خلفه ، يقول فى صرامة :

ـ كفاك وسوسة أيها الشيطان .

التفت الاثنان إلى مصدر الصوت ، وأطلق (جودة) ضحكة باهتة ، قائلا :

ـ صباح الخير يا حاج (سعفان) .. جزاك الله على وصفى بالشيطان .

جذب الحاج (سعفان) مقعدا ، وجلس إلى جوار (مفيد) ، وهو يقول لـ (جودة) :

ـ إنك كذلك بالفعل .. شيطان الإنس .. هيا .. أحضر لى كوبا من الشاى كالمعتاد .

ذهب (جودة) لإحضار الشاى ، فى حين التفت الحاج (سعفان) إلى (مفيد) ، وقال :

ـ صباح الخير ياولدى .. كيف حالك ، وكيف حالكم جميعا ، بعد زيارة (حسين) بك ؟

تنهد (مفيد) ، وقال :

ـ لقد أشعل النيران فى الأسرة كلها كالمعتاد .

رفع الحاج (سعفان) حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أشعل النيران ؟! .. كيف ؟

مط (مفيد) شفتيه ، وقال :

ـ أهان (فاطمة) و (حافظ) ، ورفض زوجا لـ (شريفة) ، فأصابها بجرح لم يندمل بعد ، كما تركت (نعيمة) زوجها ، وهى تصر على طلب الطلاق منه .

ضرب الحاج (سعفان) كفا بكف ، وقال :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. كنت أتصور أن زيارته ستسعدكم .

تنهد (مفيد) ، دون أن يجيب ، وتلفت إلى موقف السيارات ، فسأله الحاج (سعفان) فى تردد :

ـ أما زلت تبحث عنها ؟

لو ألقى هذا السؤال على شخص آخر لا ستنكره ، أو نفاه فى عصبية ،

أما (مفيد) ، فقد استقبله فى بساطة ، وهو يهز رأسه نفيًا فى حزن ، ويقول :

ـ لا .. لم أعد أفعل .

ساد الصمت لحظة ، بينه وبين الحاج (سعفان) ، قبل أن يضيف فى خفوت :

ـ إننى أبحث عن وظيفة .

رفع الحاج (سعفان) حاجبيه عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ تبحث عن وظيفة ؟! .. أنت تبحث عن وظيفة ؟!

سأله (مفيد) :

ـ وماذا فى هذا ؟

كان (جودة) قد أحضر شاى الحاج (سعفان) ، فى هذه اللحظة ، فتطوّع بالجواب ، قائلا :

ـ المفروض أن يجلب لك نفوذ (حسين) بك ألف وظيفة ، دون أن تبذل أدنى جهد .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ لا شأن لـ (حسين) بهذا .

أجابه (جودة) ، وهو يقلّب الشاى :

ـ من قال هذا ؟ .. كل شىء هنا يسير بالوساطة ، ووساطة رجل مثل (حسين) بك لا يمكن رفضها ، ولا ..

قاطعه (مفيد) فى عصبية :

ـ قلت لك : لا شأن له بهذا .

ثم نهض مستطردًا :

ـ ما ثمن الشاى ؟

قال (جودة) فى حماس :

ـ إنه على نفقة المقهى .

صاح به (مفيد) فى صرامة :

ـ لا .. إننى أصرّ على دفع ثمنه .

ربّت الحاج (سعفان) على كفه ، قائلا :

ـ لا عليك ياولدى .. إنه أمر بسيط ، فثمن الكوب لا يتجاوز قرشًا واحدًا .

ألقى (مفيد) القرش على المائدة ، وهو يقول :

ـ ها هوذا .. معذرة .. سأضطر للانصراف ، فقد وصلت إحدى السيارات . قالها واندفع مغادرا المقهى ، فهتف (جودة) فى دهشة :

ـ لماذا غضب هكذا ؟

أجابه الحاج (سعفان) :

ـ هكذا هو يا (جودة) .. إنه أقرب الجميع إلى والده ـ رحمه الله ـ شهم ، كريم ، وقوى فى الحق .

لم يسمع (مفيد) هذه العبارة الجميلة ، وهو يسرع نحو السيارة الكبيرة ، التى هبط سائقها يستقبله فى احترام ، ثم أفسح له وحده المقعد المجاور له ، الذى يحتله ـ عادة ـ ثلاثة ركاب ، وانتظر حتى اكتظت الأريكة الخلفية بالبشر ، ثم انطلق بالسيارة إلى (طنطا) ، ومحرّكها يصدر سيمفونية أشبه بالأنين ، من كثرة ما يحمله من أجساد مكدودة متعبة ..

ولقد اعتاد (مفيد) هذا الأنين ..

اعتاده كما اعتاد ذلك العذاب ، الذى يملأ قلبه ، منذ ما يقرب من عام كامل ..

عذاب فقدان محبوبته (مديحة) ..

لقد بحث عنها ، حتى كلّت قدماه ، وانفطر قلبه ، فلم يعد يحتمل المزيد ..

وأخيرا قرر أن يتوقف عن البحث ..

اتخذ قراره هذا ، فى نفس ليلة عيد ميلاد (طارق) ، بعد ذلك العذاب ، الذى تركه (حسين) خلفه ، قبل أن يرحل عائدا إلى (القاهرة) ..

ليلتها قرر أن يبعد (مديحة) عن تفكيره تماما ، بعد أن كشف أنها صارت نقطة ضعفه وآلامه ، التى نجح (حسين) فى استغلالها ، لتحطيم إرادته ، ومنعه من منح (فاطمة) و (حافظ) حق الاحتفال بعيد ميلاد ابنهما الوحيد ..

ولم يكن القرار سهلا ..

لقد تعذب بسببه طويلا ..

وما يزال يتعذب ..

إنه لم ينس (مديحة) ..

لن ينساها أبدا ..

كل ماحدث هو أنه قرر إيقاف حملة بحثه عنها ..

هذا ما تصوره ..

ولكن عقله الباطن لم يقنع بهذا القرار ، فقد خدعه وخدع عينيه ، وجعلهما تجوبان محطة القطار فى (طنطا) ، بحثا عن وجه (مديحة) ..

لقد ضبط عينيه تفعلان هذا ، فعقد حاجبيه فى ضيق ، وهتف فى أعماقه يستنكر فعلتهما ، قبل أن يقفز داخل قطار (القاهرة) ، ويلقى جسده على أقرب مقعد للباب ..

ومع جلوسه ، ارتطم جسده بجسد ضئيل ، فاحت منه رائحة عطرية هادئة وجميلة ، جعلته يلتفت إلى صاحبته ، وهو يقول معتذرا :

ـ آسف .. لم أنتبه إلى ..

استقبلته ابتسامة عذبة ، انفرجت عن أسنان كاللؤلؤ ، وصاحبتها تقول فى رقة :

ـ لا عليك .

تطلع إلى وجهها لحظة فى انبهار ..

كانت جميلة بحق ..

جميلة بذلك الجمال الهادى المحترم ، الذى يجبرك منذ اللحظة الأولى على توقيره وتقديره ..

كانت فى أوائل العشرينات من عمرها ، يحيط بوجهها حجاب أنيق ، يتوسطه وجه بيضاوى ، يحوى عينين واسعتين سوداوين ، وشفتين نصف ممتلئتين ، وذقنا رفيعة ، يتوسطها طابع حسن جميل ..

وكانت ابتسامتها فاتنة ..

بل ساحرة ..

إنها ابتسامة تحمل كل وداعة الأنوثة ورقتها ..

وكل طيبة الدنيا ..

والعجيب أن هذا الوجه بدا له مألوفا ، وإن لم يذكر أين رآه من قبل ، فسألها ببساطته المعهودة :

ـ هل التقينا من قبل ؟

ابتسمت وهى تقول :

ـ إننا نسافر سويا باستمرار .

رفع حاجبيه فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ حقا ؟!

أومأت برأسها إيجابا فى حياء ، وهى تقول :

ـ نعم ، ولكنك لم تنتبه إلى هذا ؛ لأنك دائما تجلس وحيدا وحزينا ، و ..

بترت عبارتها بغتة ، وتضرج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتمتم :

ـ معذرة .. لم أقصد هذا .

ولكنه لم يبال بما قالته ، وإنما سألها فى اهتمام :

- اذن فنحن نسافر معا منذ زمن .

أومأت برأسها إيجابا ، فهتف :

- لا ريب أننى أعمى إذن .

هتفت فى سرعة :

- بعد الشر .

ثم خفضت عينيها فى حياء ، وقلبها ينبض فى سعادة ..

وكان من الواضح أن المسافر قد وجد أخيرا محطة جديدة .. وقلبا جديدا ..

* * *

« (فاطمة) .. أين أنت أيتها الكسول ؟ »

صاحت (شريفة) بالعبارة فى حدة ، وكأنها تفرغ الكثير من التوتر ، الذى لم يفارقها ، منذ يوم عيد ميلاد (طارق) ، وزفرت فى غضب ، وهى تضيف :

- أين ذهبت تلك السخيفة ؟

أتاها صوت (فاطمة) الأجش ، وهى تقول فى لهجة استفزازية :

- أنا هنا يا سيدة الدار .. لماذا تنادينني ؟

صاحت بها (شريفة) :

- أريد تنظيف السراى اليوم ، ولن أفعل هذا وحدى .. أليس كذلك ؟

هزت (فاطمة) كتفيها ، وهى تقول :

- أرسلى فى طلب من تعاونك إذن .

صاحت بها (شريفة) :

- وماذا عنك أيتها المتحذلقة ؟ .. أنسيت من أنت ؟

أجابتها (فاطمة) فى غلظة :

- ليس لدى وقت لتنظيف السراى .

أطلقت (شريفة) شهقة استنكار ، قبل أن تهتف :

- لماذا يا سيدة الحسن والجمال ؟ ..ماذا لديك لتفعليه ؟

رفعت (فاطمة) أحد حاجبيها ، وقالت فى سخرية :

- لدى زوج أرعاه ، وطفل أرضعه .. ولكننى أعذرك ، فأنت تجهلين مايعنيه هذا .

شحب وجه (شريفة) ، وانحبست الكلمات فى حلقها ، وشعرت بالطعنة تغوص فى قلبها ، و (فاطمة) تنسحب من المكان ، وعلى شفتيها ابتسامة ظافرة شامتة كبيرة ، ثم لم تلبث أن هتفت فى غضب :

- أيتها الحقيرة .

ثم اندفعت خلفها تواصل :

- غدا أتزوج أفضل رجل فى (مصر) كلها .

أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة ، وقالت :

- عندما يأتى غدا هذا .

ظهرت (نعيمة) عند مدخل الردهة ، وهى تهتف فى (فاطمة) بغضب :

- اخرسى أيتها الملعونة .

هزت (فاطمة) كتفيها فى لا مبالاة ، وكأنما اعتادت هذا ، وأسرعت إلى حجرتها مع زوجها ، وأغلقت بابها خلفها فى إحكام ، فصاحت (نعيمة) خلفها :

- يا ابنة الملاعين .

ثم التفتت إلى (شريفة) ، التى انخرطت فى بكاء حار ، وأضافت :

- لا تجعلى هذه الحقيرة تدفعك للبكاء .

هتفت (شريفة) من وسط دموعها :

- إنها لا تطاق .

قالت (نعيمة) فى حدة :

- إنها مشورتك أنت .

صاحت (شريفة) :

- كانت مشورة سوداء .

أومأت (نعيمة) برأسها موافقة ، وهى تمط شفتيها فى ازدراء ، قائلة :

- سأطلب من (حسين) وضع حل لهذه المهزلة .

جففت (شريفة) دموعها ، وقالت :

- وماذا عن مشكلتك أنت ؟ .. ألن تطلبى منه حلها ؟

عقدت (نعيمة) حاجبيها ، وهى تقول فى حدة :

- لا ..لست أريد أن يتدخل (حسين) هذه المرة .

سألتها (شريفة) :

- لماذا ؟ .. إنه يستطيع إجباره على تطليق زوجته مرة ثانية ، و ..

صاحت بها (نعيمة) :

- قلت لك لا أريد منه أن يتدخل هذه المرة .. لا أريد منه حتى أن يعلم بما بينى وبين زوجى .

تمتمت (شريفة) :

- لا بأس يا (نعيمة) .. إنه لن يعلم .

ولكنها فى أعماقها كانت قد اتخذت قرارا عكسيا ..

لقد قررت أن يعرف (حسين) ما حدث ، بين (نعيمة) و (عمر) ..

وأن يتدخل هذه المرة أيضا .

وبكل قوته .

* * *

٨ - الرحلة ..

رسم (صلاح) على شفتيه ابتسامة منافقة واسعة ، وهو يدخل مكتب (حسين) ، فى الصباح ، قائلا :

- صباح الخير يا (حسين) بك .. كيف حالك هذه الأيام ؟

لوح (حسين) بيده ، قائلا :

- مرهق للغاية يا (صلاح) ، فمن الواضح أن شهر ديسمبر هذا سيكون حافلا .

أجابه (صلاح) ، وهو يتخذ مجلسه ، على مقعد قريب :

- بالتأكيد ، فـ (السودان) أعلن قيام الجمهورية ، و (أمريكا) و (انجلترا) أعلنتا موافقتهما على تمويل مشروع السد العالى ، ولا ريب أن الرؤساء سيطلبون فيضا من المعلومات .

مط (حسين) شفتيه ، وقال :

- لقد طلبوها بالفعل .

استرخى (صلاح) فى مقعده ، وقال :

- مشروع ضخم هو ذلك السد ، الذى ينوون إقامته فى (أسوان) .. يخيل إلىّ أنه سيلتهم ميزانية الدولة كلها ، لأكثر من ربع قرن .

ابتسم (حسين) ، وقال :

- ليس إلى هذا الحد .

ثم التفت إليه ، يسأله فى اهتمام :

- هل حصلت على تأشيرة (فرنسا) ؟

أومأ (صلاح) برأسه إيجابا ، وغمز بعينه فى خبث ، وهو يقول :

ـ كل شىء يسير على ما يرام يا (حسين) بك .. جواز سفرى يقول إننى رجل أعمال ، ومكتبنا فى (باريس) أعد كل شىء هناك ؛ لاستكمال الصورة .

هز (حسين) رأسه ، وقال :

ـ عظيم .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى مقت واضح :

ـ أريد منك أن تحضرها إلى هنا يا (صلاح) ، وأن يكون أول وجه تراه ، عندما تصل إلى (القاهرة) ، هو وجهى أنا .

ابتسم (صلاح) فى دهاء ، وقال :

ـ سأفعل .

ثم اعتدل فى مقعده ، مستطردا :

ـ ولكن يدهشنى أنك نجحت فى وضع ميزانية ضخمة لهذه العملية ، على الرغم من أنها ، ومعذرة لقولى ، عملية شخصية بحتة .

هز (حسين) كتفيه ، وقال :

ـ ومن قال إنها كذلك ؟

ثم مال نحوه ، وابتسم فى مكر ، وهو يستطرد :

ـ لقد أدرجتها فى كشف عمليات تحطيم أعداء الثورة فى الخارج .

تألقت عينا (صلاح) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة واسعة ، وهو يقول :

ـ عبقرى يا (حسين) بك .. عبقرى .

تراجع (حسين) ، وهو يرمقه بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

ـ المهم أن تنجح العملية يا (صلاح) .

تنهد (صلاح) فى ارتياح ، واسترخى أكثر فى مقعده ، وهو يقول :

ـ ستنجح يا (حسين) بك .. ستنجح .. اطمئن .

وكانت ابتسامته أشبه بابتسامة ذئب ..

ذئب مفترس ..

* * *

الآن أصبح لرحلة القطار معنى جديد ..

معنى ينبض بعلاقة تولد ، بين قلبين بسيطين ، جمعتهما رحلة يومية ، وهدف مشترك ..

وفى ذلك اليوم بالذات ، شعرت (سوسن) بالقلق ، عندما شارف القطار على الانطلاق ، قبل أن يصل (مفيد) ..

وخفق قلبها فى قوة ، عندما بدأ القطار تحركه بالفعل ..

ثم ظهر (مفيد) ..

ظهر بوجهه الشاحب النحيل ، وهو يصعد فى درجات السلم عدوا ، ثم يركض نحو القطار فى لهفة ، فمدت (سوسن) يدها عن آخرها إليه ، وهى تهتف :

ـ اسرع يا (مفيد) .. اسرع .

تعلق بقائم الباب ، وقفز داخل القطار ، وهو يمسك كفها ، ويلهث فى قوة ..

وارتجف جسدها كله ..

كانت أول مرة تتلامس فيها أصابعهما ..

أول مرة تشعر بكفها فى راحته ، منذ تحدثا لأول مرة ..

وفى هدوء ، ترك (مفيد) كفها ، وألقى جسده إلى جوارها ، فوق المقعد الخشبى الكبير ، فهمست له فى حنان :

ـ كدت تفقد القطار

لهث وهو يجيب :

ـ كان الطريق مزدحما .

قالت ، وهى تتطلع إليه :

ـ حمدا لله أنك وصلت فى الموعد .

ثم أطلقت ضحكة خجلى ، وهى تضيف :

ـ كنت سأفتقدك كثيرا ، لو سافرت وحدى .

ابتسم مغمغما :

ـ وأنا كذلك .

ساد بينهما الصمت لحظات ، ثم سألته فى اهتمام :

ـ أتظننا سننجح فى العثور على وظيفة اليوم ؟

هز كتفيه ، قائلا :

ـ ربما .. إننا نبحث بلا جدوى منذ أكثر من شهر ونصف الشهر .

هتفت فى دهشة :

ـ هل مضى شهر ونصف الشهر حقا ؟!

أسبل جفنيه فى إرهاق ، وهو يقول :

ـ تصورى .

لم تكن تتصور حقا أن كل هذا الوقت قد مضى ، فهى تسعد بكل لحظة تقضيها معه ..

بكل ثانية ..

إنها تحبه ..

قلبها يعلم هذا ويدركه جيدا ..

تحبه قبل حتى أن يتحدثا ..

كان دائما يجذب انتباهها ، وهو يدلف إلى القطار ، ويجلس وحيدا ، وعيناه تحملان حزن الدنيا كله ..

وطالما تساءلت عن سر كل هذا الحزن ..

حتى فى هذه اللحظة ، وهو يجلس شبه نائم إلى جوارها ، كانت تتساءل عنه ..

من الواضح أنه يحمل فى قلبه حزنا عميقا ، استقر طويلا فى أعماقه ، حتى حفر لنفسه منزلا فى عينيه ..

ولكنها تحبه ..

تحب وسامته ، وأدبه ، ورقى مشاعره ..

تحب كل خلجة من خلجاته المهذبة ..

ولكن ما شعوره تجاهها ؟ ..

صحيح أنه يعاملها بكل تقدير واحترام ، ولكنها تشعر دائما أن علاقته بها لا تتجاوز علاقة الزمالة أو الصداقة ..

إنها لا ترقى أبدا إلى علاقة حب ..

هناك حاجز ما ، يحول بينها وبينه ..

حاجز لم تنجح فى بلوغه أو معرفته بعد ، ولكنها ستبذل أقصى جهدها لتفعل ، وتعبر الحاجز إلى عقله

وإلى قلبه ..

★ ★ ★

كان الهدوء يحيط بالسراى ، بعد غروب الشمس ، ولم يكن (مفيد) قد عاد من (القاهرة) بعد ، عندما أنهت (شريفة) أعمالها المنزلية ، وألقت تحية المساء على شقيقتها (نعيمة) ، التى سألتها فى دهشة :

ـ أتأوين إلى الفراش ، فى هذا الوقت المبكر ؟

أجابتها (شريفة) بإيماءة من رأسها ، وهى تجيب :

ـ أشعر بإرهاق ، من كثرة العمل .

لوحت (نعيمة) بكفها ، وهى تقول :

- إنك تعملين أكثر مما ينبغي .

تنهدت (شريفة) ، دون أن تجيب ..

نعم .. انها تعمل أكثر مما ينبغي ..

لتنسى ..

هذه هى الحقيقة ..

إنها تعمل أكثر مما ينبغي ، لتنسى ذلك الحزن ، الذى غرسه (حسين) فى أعماقها ، دون أن يدرى ، عندما رفض زواجها من (أمجد) ..

صحيح انها لم تلتق بـ (أمجد) هذا ، الا لساعات معدودة ، ولكن شيئا ما فى قلبها تعلق به ..

ربما لوسامته ..

أو لأدبه ..

وربما لانه أول رجل ، يطلب منها الزواج مباشرة ، على هذا النحو ..

أول رجل تلمح فى عينيه كل هذا الإعجاب ..

أول رجل يوقظ فى أعماقها مشاعر الأنثى ..

والأنثى لا تنسى ابدا الرجل ، الذى يفعل بها هذا ..

لا يلفظه خيالها قط ..

ولكنها كانت تشعر بمرارة أكثر ، كلما استعادت هذه الذكرى ..

ولهذا تعمل كثيرا ..

ولهذا أيضا أرادت تغيير الموقف ، فسألت (نعيمة) :

- ألم تصلك أية أخبار عن (عمر) ؟

بدا الضيق والحزن على وجه (نعيمة) ، وضمت ابنتها (نادرة) الى صدرها ، وهى تقول :

- يقولون : إنه يكثر من زيارة (فاتن) ، منذ غادرت أنا المنزل ، وإنها ..

تفجرت الدموع فجأة من عينيها ، وهى تضيف :

- وإنها حامل .

قالت (شريفة) فى حدة :

- يالحقارته !

ثم أضافت فى حزم :

لو أردت رأيى ، فالمفروض أن نبلغ (حسين) .

هتفت (نعيمة) فى ذعر :

- لا .. أرجوك .. (حسين) لن يصلح الامر كما تتصورين ، بل سيزيده سوءا .

ثم خفضت عينيها ، مستطردة فى ألم :

- كان المفروض الا أغادر منزلى ابدا ، فـ (عمر) لم يحاول السؤال عنى ، أو عن (نادرة) مرة واحدة .

قالت (شريفة) لنفسها :

- ولن يفعل .

ثم قالت لشقيقتها بصوت مرتفع :

- من يدرى ؟ .. ربما اتى فيما بعد .

وألقت عليها تحية المساء ، ثم صعدت إلى حجرتها ..

وأغلقت (شريفة) باب الحجرة خلفها ، ثم التفتت إلى حيث فراشها ..

وفجأة أحاطت يد كبيرة بشفتيها ، وكتمت صوتها ، فشهقت فى أعماقها ، وارتجفت فى رعب هائل ، قبل أن تسمع صوتا يقول فى لهجة أقرب إلى الرجاء :

- لا تصرخى .. أرجوك .

ارتجف قلبها ، عندما تعرفت صوته ، وهوى بين ضلوعها ، وهو

يديرها لتواجهه ، وانطلقت من حلقها ـ على الرغم منها ـ شهقة ، وهى تحدق فى وجهه ..

فى وجه (أمجد) ..

* * *

نفث (فؤاد) زوج (ناهد) ، دخان سيجارته فى عمق ، قبل أن يسأل زوجته فى اهتمام :

ـ أخبرينى .. أما تزال العلاقة بين (حسين) و (عمر) متوترة ؟

تنهدت ، قبل أن تجيبه :

ـ نعم .. للأسف ، ولست أظنها تنصلح ، فالخلاف بينهما جوهرى ، و (عمر) يشعر بجرح فى كرامته ، ليس من السهل اندماله .

مطّ (فؤاد) شفتيه ، وهو يومئ برأسه متفهمًا ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ لو أردت رأيى ، فـ (عمر) على حق .

تلاحقت ضربات قلبها فى قلق ، وهى تقول :

ـ ليس هذا من شأننا .

اعتدل وهو يقول فى حدة مباغتة :

ـ من قال هذا ؟

نهضت بدورها من الفراش ، وقالت فى توتر ، وهى تخشى أن يتصاعد الأمر :

ـ إنه خلاف بين (حسين) و (عمر) ، ولست أظن هذا يمسّنا بسوء ، أو ..

جذب نفسًا عميقًا من سيجارته ، قبل أن يقاطعها ، قائلا :

ـ خطأ يا (ناهد) .. إنه خلاف بين (حسين) ، وبينكم جميعًا .



ارتجف قلبها ، عندما تعرفت صوته ، وهو بين ضلوعها ، وهو يديرها لتواجهه ، وانطلقت من حلقها ــ على الرغم منها ــ شهقة ، وهى تحدق فى وجهه ..

ثم نفث الدخان فى قوة ، مستطردا :

ـ أليس خلافا يتعلق بميراثكم ؟

كانت هذه هى النقطة التى تخشاها ..

نقطة الميراث ..

وفى عصبية ، قالت :

ـ لا يوجد خلاف بيننا وبين (حسين) ، بشأن الميراث ، فقد ترك والدنا الأرض كلها لـ (حسين) وحسين يمنحنا نصيبنا الشرعى من إيرادها ، دون أن يخلّ بهذا مرة واحدة .

لوّح بذراعه كلها ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وماذا عن الأرض نفسها ؟ ألم يكن من المفروض أن يمتلك كل منكم نصيبه ؟ .. ماذا لو أراد أحدكم بيع أرضه مثلا ؟

هتفت فى ذعر :

ـ بيع الأرض ؟! .. لا يا (فؤاد) .. مستحيل أن يفكر أحدنا فى بيع نصيبه من أرض (البنهاوى) .

عقد حاجبيه ، وهو يقول فى خشونة :

ـ أقول : مثلا .

ثم نهض واقفا ، ولوّح بكفه ، مستطردا :

ـ لا .. صحيح أننى أحمل لـ (حسين) معزة خاصة ، ولكنه مخطئ فى هذا الأمر .

تضاعف توترها ، وهى تقول :

ـ إنها إرادة أبى ، لقد ترك كل شىء لـ (حسين) ، و ..

قاطعها فى حزم :

ـ إرادة مخالفة للشرع والقانون .

ثم نفث دخان سيجارته مرة أخرى ، قبل أن يستطرد فى لهجة ، أصابت (ناهد) بخوف شديد :

ـ وهى إرادة يمكن إلغاء هدفها .

سألته فى صوت مرتجف :

ـ ماذا تعنى ؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـ أعنى أن (عمر) لم يخسر معركته مع (حسين) ، لأن القانون لم يكن فى صفه ، وإنما خسرها لأن (حسين) كان فى الجانب الأقوى حينذاك . أما عندما تكون المعركة بينى وبين (حسين) ، فالنتيجة ستختلف .

ثم أطفأ سيجارته فى عنف ، مستطردا :

ستختلف حتمًا

وانتقلت الارتجافة إلى قلب (ناهد) ..

بل إلى جسدها كله .

* * *

٩ ـ السر ..

لم يتوقف جسد (شريفة) عن الارتجاف ، حتى بعد أن وقع بصرها على (أمجد) ، الذى رفع كفه عن شفتيها ، وتراجع فى ارتباك ، وهو يغمغم :

ـ معذرة .. لم أكن أقصد إخافتك ، ولكن .. الواقع أننى لم أستطع .. أعنى ..

شعرت نحوه بشىء من الشفقة ، تغلب على الجزع والذعر ، اللذين يسيطران على مشاعرها ، فانحلت عقدة الخوف عن لسانها ، وهى تغمغم :

ـ لم تستطع ماذا ؟

تطلع إليها لحظات فى صمت ، قبل أن يتهدج صوته ، وهو يقول :

ـ لم أستطع مقاومة رغبتى فى رؤيتك .

حان دور قلبها هذه المرة ، ليرتجف بين ضلوعها ، وهى تتطلع إلى عينيه ..

لقد كان صادقًا فى قوله ..

لا يمكن أن يخطئ قلبها رنة الصدق الواضحة فى صوته ..

تلك الرنة التى أصابت أنوثتها بسهم وردى ناعم ، ففجرت مشاعرها ، وألهبت عواطفها ، وهى تهمس :

ـ حقًا ؟!

تقدم خطوة نحوها ، وأمسك كتفيها فى رقة ، وهو يقول :

ـ صدقينى يا آنسة (شريفة) .. إننى لم أشعر بما فعلت .. لقد هتف

قلبى باسمك ، فوجدت نفسى أهرع إليك .. اعذرى لهفتى .

تطلعت إليه فى هيام وانبهار ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فواصل فى همس حنون :

ـ أعلم أننى أرتكب حماقة كبيرة ، بقدومى إلى هنا ، وتسللى إلى حجرتك خلسة ، وأخاطر بتحطيم مستقبلى وحياتى ، ولكننى لم أستطع البقاء بعيدًا ..

همست فى انفعال ، وقلبها يختلج فى صدرها :

ـ وكيف علمت أنها حجرتى ؟

قال فى حنان :

ـ قلبى أرشدنى إليها .

رقص قلبها طربا لعبارته ، وتمنت لو ألقت نفسها بين ذراعيه ، ودفنت رأسها فى صدره القوى ، ولكن أخلاقها منعتها من الاستسلام لرغبتها ، فاكتفت بالتطلع إليه فى صمت ، وهو يقول :

ـ لست أدرى لماذا رفض شقيقك زواجنا ، ولكننى أردت أن أخبرك أننى لن أستسلم أبدا لرفضه هذا .. سأحاول مرة ثانية ، وثالثة .. سأفعل المستحيل ، حتى نلتقى يا آنسة (شريفة) .

أومأت برأسها إيجابا ، واغرورقت عيناها بدموع الفرح ، فمال نحوها ، وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت .

هتفت فى خفوت :

ـ سأنتظر .

اتسعت عيناه فى سعادة ، وتهللت أساريره ، وهو يستقبل منها هذه الموافقة الواضحة .. كلمتها ، والطريقة التى نطقتها بها ، تعنى أنها تشاركه مشاعره ..

وكان هذا يكفيه ..

يكفيه كثيرا ..

وبكل الحماس والسعادة فى أعماقه ، أمسك كتفيها فى قوة ، وقال :

ـ آنسة (شريفة) .. إننى أسعد مخلوق فى الدنيا ، وأعدك أن ..

قاطعته فجأة دقات هادئة على باب حجرة (شريفة) ، مصحوبة بصوت يقول :

ـ (شريفة) .. أتسمحين لى بالدخول ؟

واتسعت عينا (شريفة) ، وهى تهتف فى ذعر :

ـ يا إلهى ! .. إنه (مفيد) .. شقيقى (مفيد) .

وهوى قلبها بين قدميها ..

* * *

اندفعت (سوسن) إلى منزلها فى حيوية كعادتها ، وألقت ابتسامتها البشوش على والديها ، وهى تهتف فى مرح :

ـ مساء الخير يا أهل الخير .

تهللت أسارير أمها ، وكأنها تراها لأول مرة ، فى حين ابتسم والدها بطيبته المفرطة ، وهو يقول فى حنان :

ـ مساء الخير يا (سوسن) .. لماذا تأخرت فى العودة اليوم يا بنيتى ؟ .. أصابنا القلق عليك .

اتجهت إليه ، وانحنت تطبع قبلة على جبينه ، وهى تقول :

ـ لقد وصل القطار فى موعده ، ولكننى ذهبت لزيارة مسجد (السيد البدوى) أولا ، قبل العودة للمنزل .

سألتها أمها فى دهشة :

ـ أكانت لديك حاجة ، ترجينه قضاءها ؟

ضحكت (سوسن) ، وقالت :

ـ لا يا أمى ، فـ (السيد البدوى) ليس إلهًا يقضى الحاجات ، ولا توجد وساطة بين العبد وربّه ، حتى نرجو وليًا راحلًا .

هتفت أمها فى جزع :

ـ لا تقولى هذا يابنيتى ، فـ (السيّد البدوى) ولى من أولياء الله الصالحين .

ضحكت (سوسن) مرة أخرى ، وقالت :

ـ على عينى ورأسى يا أماه ، ولكنه ليس نبيًا .. أليس كذلك ؟

عقدت الأم حاجبيها فى غضب ، والتفتت إلى الأب ، قائلة :

ـ هذه الفتاة لا تحترم معتقدات عصرنا وجيلنا .

ابتسم الأب فى حنان ، وهو يقول :

ـ لأنها من جيل آخر .

انحنت (سوسن) تطبع قبلة أخرى على جبينه ، وهى تهتف فى حماس :

ـ أرأيت الأفكار المتقدمة يا أماه ؟

قالتها واندفعت نحو حجرتها ، فهتفت بها أمها :

ـ إلى أين ؟ .. ألن تتناولى طعامك ؟

صاحت :

ـ فيما بعد .

وأغلقت الباب خلفها ، ثم ألقت نفسها على فراشها ، وراح صدرها يعلو ويهبط فى انفعال ، وهى تستعيد ذكريات اليوم ..

لأول مرة ، منذ عرفت (مفيد) ، تلوح منه بادرة تشف عن حبه لها ..

لأول مرة ترى فى عينيه نظرة دافئة حنونا ، عندما أنقذها من عثرتها ، وهى تغادر القطار ..

لن تنسى هذه اللحظة أبدًا ..

كانت تهبط من القطار ، عندما زلت قدمها ، وكادت تسقط على وجهها ، لولا أن أمسكها هو فى سرعة وقوة ، وسألها فى جزع :

ـ أأنت بخير ؟

كانت نظراته تحمل ـ حينذاك ـ اعترافا غير صريح بحبه لها ..

وياله من اعتراف ! ..

أغلقت عينيها فى سعادة ، وهى تستعيد تلك الذكرى مرات ، ومرات ، ومرات ..

لقد ظلّ قلبها يختلج فى صدرها طويلا ، وظلّ جسدها يرتجف للمساته ، حتى امتلأ قلبها بالذنب ، فعرجت على مسجد (السيد البدوى) ، فى طريق عودتها ، وانزوت فى ركن السيدات ، تصلى وتستعيذ بالله (سبحانه وتعالى) من همزات الشيطان ، الذى يضاعف من إحساسها بلمسات (مفيد) ، حتى زالت من ذهنها ذكرى اللمسات ، ولم تعد تذكر سوى تلك النظرة ، التى لن تنساها أبدا ..

واعترفت لنفسها أنها تحيا أسعد لحظات حياتها ..

أسعدها على الإطلاق ..

وفى نعومة ، تسلل النوم إلى جفنيها ، فاستسلمت له فى استكانتها ، علّها تلتقى بحبيبها مرة أخرى ..

فى عالم الأحلام ..

★ ★ ★

مضت لحظات من الصمت والسكون ، قبل أن تفتح (شريفة) باب حجرتها لشقيقها (مفيد) ، وهى شاحبة الوجه ، مرتجفة الأطراف ، حتى أن (مفيد) سألها فى جزع :

ـ ماذا بك ؟ .. أأنت مريضة ؟

هزت رأسها نفيا ، وهى تقول فى صوت مرتجف :

ـ لا .. إننى مرهقة فحسب .

تحسس جبينها بكفه فى حنان ، وقال وهو يدلف معها إلى حجرتها فى رفق :

ـ حمدا لله .. حرارة جسدك تبدو طبيعية .

ثم التفت إلى النافذة المفتوحة ، وأضاف :

ـ الأفضل أن تغلقى النافذة ، خشية أن تصابى بالبرد .

قرن القول بالفعل ، فاتجه إلى النافذة ، وأغلقها فى إحكام ، ثم التفت إلى شقيقته ، التى هدأت نفسها قليلا ، فزال شحوبها ، وإن ظلّ قلبها ينبض فى قوة ، و (مفيد) يقول :

أيمكنك الاستماع إلىّ قليلا ؟ .. أحتاج إلى من أتحدث إليه .

قالت فى شرود :

ـ قل ما يحلو لك .

بدا مرتبكا مترددا بعض الوقت ، قبل أن يقول :

ـ لقد عثرت على عمل .

رددت بلهجة خاوية :

ـ حقا ؟!

ثم استوعب عقلها الموقف بغتة ، فاعتدلت هاتفة :

ـ عمل ؟! .. أكنت تبحث عن عمل ، طوال هذه الفترة ؟

أجابها ، وكأنه لم يسمع سؤالها :

ـ إنه عمل بسيط ، ولكن ..

صاحت به :

ـ عمل بسيط ؟! .. ولماذا تحصل على عمل بسيط ؟ .. (حسين) يمكنه أن يحصل لك على عمل رائع ، وأن ..

قاطعها فى حدة :

ـ لا .. لا شأن لـ (حسين) بهذا .

حدقت فى وجهه لحظة فى دهشة ، ثم هتفت مستنكرة :

ـ ماذا أصابك ؟ .. ماذا أصابكم جميعا ؟ .. لماذا ترفضون تدخل (حسين) فى أعمالكم وشئونكم ؟ .. أليس المسئول عن الأسرة كلها ؟

صاح بها فى غضب :

ـ لا .. ليس المسئول عنا .. كلنا بلغنا سن الرشد .

مطت شفتيها مستنكرة ، وضربت راحة يدها اليسرى بظهر كفها اليمنى ، وهى تقول :

ـ وما ذلك العمل العظيم ، الذى حصلت عليه أيها الراشد ؟

لم ترق له رنة السخرية فى قولها ، ولكنه أجاب ، وهو يشيح بوجهه عنها :

ـ كاتب حسابات فى مطعم صغير .

صاحت فى استهجان :

ـ كاتب حسابات ؟! .. وفى مطعم صغير ؟! .. ابن (محمد البنهاوى) يعمل فى مطعم صغير .. لا يا (مفيد) .. لقد تجاوزت الحد .

أجابها متوترًا :

ـ صحيح أنه عمل بسيط ، ولكن ..

قاطعته فى حدة :

ـ ولكن ماذا ؟ .. لن يرضى (حسين) أبدا عن هذا ، ولن ..

صاح بها غاضبا :

ـ قلت لك لا شأن لـ (حسين) بهذا .

ثم هبّ من مكانه ، مبتطردا فى انفعال :

ـ لقد أخطأت فى حديثى معك ، ولن أحاول دفعك إلى مشاركتى مشاعرى بعد الآن .

واندفع يغادر حجرتها فى غضب ، دون أن يتحدث إليها عن الأمر الحقيقى ، الذى دفعه إلى مقابلتها ..

عن (سوسن) ..

* * *

« استيقظ يا رجل .. استيقظ .. »

انتفض (حافظ) فى ذعر ، وهبّ جالسا فى فراشه ، وحدّق فى وجه زوجته فى هلع ، وهى تستطرد بصوتها الأجش الغليظ :

ـ انظر ماذا يحدث فى بيتكم المحترم .. بيت (البنهاوى) ، الذى تتيهون به فخرا .

سألها فى جزع :

ـ ماذا يحدث ؟

مصمصت شفتيها ، ولاكت الهواء بفمها ، قبل أن تقول ، فى لهجة نصف ساخرة ، ونصف مستهجنة :

ـ شقيقتكم (شريفة) .

سألها فى ذعر :

ـ ماذا أصابها ؟

مالت نحوه ، وهمست :

ـ كان هناك رجل فى حجرتها .

انتفض جسده ، وهو يهتف فى هلع :

ـ رجل ؟!

تراجعت فى تشف ، وهى تقول :

ـ نعم .. رجل .. رجل فى حجرتها ، من خلف ظهر الجميع .

انكمش فى مقعده ، وهو يتمتم :

ـ مستحيل ! .. مستحيل يا (فاطمة) ! .. أنت تعرفين أخلاق (شريفة) .

مصمصت شفتيها مرة أخرى ، وقالت :

ـ كنت أظننى أعرفها ، ولكن ..

لوّح بكفه ، هاتفًا فى ذعر :

ـ لا يا (فاطمة) .. لا تقولى هذا .. لا تخبرى أى شخص بهذا .

ضربت صدرها براحتها ، هاتفة :

ـ أهذا كل ما أمكنك فعله ؟ .. أن تطلب منى كتمان الأمر ؟! يالك من رجل .. أهذه شهامتك ؟

صاح بها ، فى صوت أقرب إلى البكاء .

ـ اصمتى يا (فاطمة) .. اصمتى .. لا تقولى هذا .

ثم انفجر فجأة باكيًا ..

وهنا توقّفت (فاطمة) ..

توقّفت متطلّعة إليه فى إشفاق ، ثم لم تلبث أن مدت كفها تتحسّس رأسه ، قبل أن تضمّه إلى صدرها فى حنان ..

لم تدر أبدًا سر حبها له ، على الرغم من خنوعه وخضوعه الشديدين ..

شىء ما فى أعماقها يهيم به ..

ربما تحبه ؛ لأنه الوحيد ، من بين أبناء (البنهاوى) ، الذى يعاملها فى حب واحترام حقيقيين ، دون أن يشير ، ولو لحظة واحدة ، إلى حقيقة منشئها ..

هو وحده يستقبل والدها بابتسامة ترحاب ، وبحرارة حقيقية فى اللقاء ..

إنه ـ وعلى الرغم من ضعفه ومرضه ـ أفضل آل (البنهاوى) ـ من وجهة نظرها ..

وفى حنان جففت دموعه ، وتحسّست رأسه ، وهى تقول :

ـ حسنًا يا (حافظ) .. إننى لم أر شيئًا ، ولم يحدث أى أمر هنا .

ولكنها رأت ..

رأت (أمجد) ، وهو يهبط من نافذة حجرة (شريفة) على عجل ، ويسرع بالاختفاء ، وسط الحديقة المحيطة بالسراى ..

وعلى الرغم من هذا ، فلن تخبر أحدًا ـ سوى (حافظ) ـ بما رأت ..

ستحتفظ بالأمر سرًا ، فربما احتاجته فيما بعد ، للسيطرة على (شريفة) ، أو هزيمتها يومًا ما ..

ربما .



١٠ ـ لقاء هناك ..

احتفالات رأس السنة الميلادية الجديدة ، فى (باريس) ، تختلف عنها فى أى مكان آخر فى العالم ..

فى (باريس) تتحول المدينة كلها الى شعلة من النور ، يتوسطها برج (إيفل) ، الذى تتدلى من قمته إلى قاعدته عناقيد المصابيح الملونة ، لتحيل ليل (باريس) إلى نهار من المرح والاضواء والسعادة ..

وفى ملهى (الليدو) ، أشهر ملاهى العاصمة الفرنسية ، تألقت الاميرة (عايدة) بجمالها الفتان ، وثوبها الذى يخطف الابصار ، وهى تطلق ضحكاتها المرحة ، وتراقص صديقها الفرنسى الثرى ، فى رشاقة حسدتها عليها الباريسيات ..

كانت أشبه بماسة تتألق تحت أضواء مبهرة ، فوق وشاح من المخمل الأسود ، يضاعف من انفرادها وروعتها ..

وبفرنسية طليقة ، راحت تتبادل النكات والدعابات ، مع رواد الحفل الصاخب ، ومع صديقها الفرنسى ، الذى شقت ضحكاته الضجيج ، وهو يشعر بالزهو والفخر ؛ لأنه الرجل الذى يحوز تحفة الحفل وفاتنته ..

وكانت الأميرة (عايدة) تتبادل حديثا ضاحكا مع احدى ضيفاتها ، حول مائدة الثرى الفرنسى الضخمة ، عندما سمعت من يهمس فى أذنها :

ـ اتسمح جميلة الجميلات ، بمشاركتى هذه الرقصة ؟

التفتت الى صاحب الحديث فى دهشة ، وتطلعت اليه لحظة فى صمت ..

لم تكن عبارة الغزل التى استخدمها ، هى مبعث دهشتها ، فقد اعتادت سماع عبارات أكثر جرأة من معجبيها ، كما لم يكن مطلبه ـ بالطبع ـ هو السبب ،

وخاصة فى (باريس) ، وإنما كان مبعث دهشتها الحقيقى هو اللغة التى استخدمها ..

اللغة العربية ..

صحيح أنها قضت حياتها ، أو معظمها على الأقل ، فى (مصر) ، إلا أنها ، ومنذ رحلت إلى (باريس) ، واستقرت بها ، لم تقم أية علاقات مع مصريين ، فيما عدا أبناء الأسرة الملكية ، الذين فروا بدورهم إلى (باريس) ..

وحتى هؤلاء ، لم يكونوا يستخدمون العربية فى أحاديثهم قط ، حتى عندما لا يكون هناك فرنسى واحد حولهم ..

كانوا وكأنهم يتبرأون من مصريتهم ، أو يعلنون نفورهم منها ، وهم يعيشون فى العاصمة الفرنسية ..

ولهذا كان من العجيب أن تسمع من يدعوها إلى مشاركته الرقص ، باللغة العربية ، وبلهجة مصرية خالصة ..

وعندما التفتت تتطلع إلى صاحبها ، وجدت أمامها شابا وسيما ، حلو القسمات ، بهى الطلعة ، يكاد ينافس بأناقته وجماله ، أشهر نجوم السينما فى عصره ، بل ويتفوق عليهم أيضا ، بابتسامته الجذابة ، وعينيه الزرقاوين ، اللتين يطل منهما دفء الدنيا كلها ، ويذوب فى أعماقهما نسيم بحار العالم أجمع ..

وعندما طال صمت (عايدة) ، كرر الشاب سؤاله ، بابتسامته العذبة :

ـ ما رأيك يا أميرتى ؟ .. أتوافقين على مشاركتى هذه الرقصة ؟

كان الثرى الفرنسى قد عقد حاجبيه فى ضيق ، أمام ذلك المنافس الخطير ، فى حين تطلع ضيوفه إلى الشاب فى انبهار ، مما جعل (عايدة) تقول بابتسامة من ابتساماتها الساحرة :

ـ بالطبع .

ثم نهضت لمشاركته الرقصة ، متجاهلة غضب صديقها الفرنسى الواضح ..

لم يكن من الممكن أن تتركه لغيرها ..

لقد اعتادت دائما الحصول على الأفضل ..

وهذا الشاب هو أجمل رواد الحفل ..

وعندما دارت معه فى حلبة الرقص ، على الأنغام الهادئة ، وجدت نفسها تسأله فى اهتمام :

ـ أأنت مصرى حقًا ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، دون أن تختفى ابتسامته العذبة ، وهو يقول :

ـ نعم .. لماذا يدهشك هذا ؟

هزت كتفيها ، قائلة :

ـ سيدهشنى لو أنك ما تزال تحيا فى (مصر) .

قال فى بساطة :

ـ افعلى إذن ، فالجواب بالإيجاب .

هتفت :

ـ أما زلت تحيا هناك بالفعل ؟

أجابها فى هدوء :

ـ بلى ، وأنا رجل أعمال معروف وثرى هناك .

هتفت فى دهشة مستنكرة :

ـ مستحيل ! . هؤلاء الثوار لن يسمحوا بوجود ثرى بينهم .

ضحك قائلًا :

ـ إنهم لم يتدخلوا فى شئون رجال الأعمال بعد ، ثم إن علاقتى بهم جيدة للغاية ، حتى أننى أحصل على تصاريح السفر بمنتهى البساطة .

هزت رأسها قائلة :

ـ عجبًا !!

غمز بعينه ، هو يقول :

ـ وهم لا يعلمون ـ فى الوقت ذاته ـ أننى أمتلك عدة شركات ، فى (لندن) و (روما) ، وأننى بصدد افتتاح فرعًا لشركاتى هنا .. فى (باريس) .

هتفت مبهورة :

ـ حقًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا مرة أخرى ، وقال :

ـ معذرة .. نسيت تقديم نفسى إليك .. (أكرم عماد الدين) .

ابتسمت قائلة :

ـ أهلًا بك فى (باريس) يا (أكرم) بك .. أما أنا ..

قاطعها بابتسامته العذبة :

ـ الأميرة (عايدة) .. أجمل أميرات العائلة الملكية المصرية ، وزهرة (باريس) الماسية .

تطلعت إليه لحظة فى دهشة ، ثم قالت :

ـ أنت تعرفنى إذن .

قال فى همس :

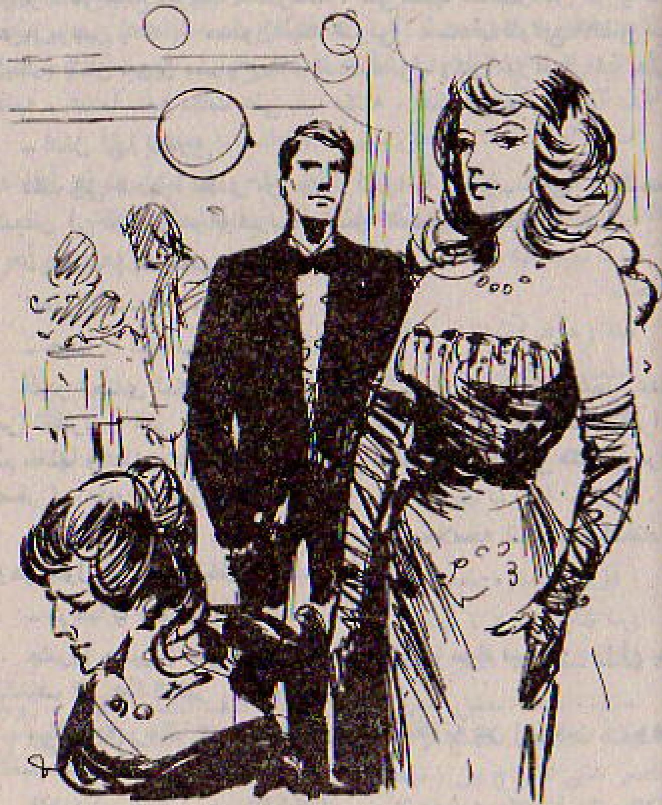
ـ ومن ذا الذى يجهلك يا أروع من ترى العين ؟

توقفت الموسيقى فى هذه اللحظة ، فانحنى أمامها نصف انحناءة ، وقال :

ـ كانت أسعد لحظات حياتى ولاشك .

قالت فى سرعة :

ـ وأنا أيضًا .


وأطلقت ضحكة عابثة ، ثم عادت تنضم إلى ضيوفها ، وتواصل دعاباتها معهم ..

اتسعت ابتسامته ، وهو يلتقط أصابعها الرقيقة ، ويلثمها بقبلة دافئة ، قائلا :

ـ هل سنلتقى مرة أخرى ؟

أجابته فى حسم :

ـ بالتأكيد .

ألقى نظرة سريعة على مائدة الثرى الفرنسى ، وابتسم قائلا :

ـ من الواضح أن صديقك الفرنسى غاضب للغاية .

هزت كتفيها ، قائلة :

ـ دعك منه .

ثم أضافت فى اهتمام :

ـ هل تعرف متجرى ؟

أومأ برأسه إيجابا ، فأضافت :

ـ ستجدنى هناك يوميا ، فيما عدا يومى السبت والأحد ، من الواحدة ظهرا ، وحتى الثامنة مساء .

قال بابتسامة أذابت قلبها :

ـ لن أنسى هذا أبدا .

ولثم أصابعها مرة أخرى ، ثم انحنى أمامها فى احترام ، واختفى وسط روّاد الحفل ، وهى تتابعه ببصرها ، قبل أن تُطلق من أعماقها زفرة حارة ، وترتسم على شفتيها ابتسامة عابثة ، وهى تغمغم :

ـ لا بأس يا (عايدة) .. لن تضيرك مغامرة مصرية قصيرة .. أليس كذلك ؟

وأطلقت ضحكة عابثة ، ثم عادت تنضم إلى ضيوفها ، وتواصل دعاباتها معهم ..

وعاد صديقها الفرنسى يبتسم ..

* * *

كان ذلك اليوم شاقا ، بالنسبة لـ (حسين) ، فقد انهمك ـ منذ الصباح الباكر ـ فى جمع وترتيب المعلومات ، التى طلبها مكتب رئيس الوزراء ، عن (يوجين بلاك) ، مسئول البنك الدولى ، استعدادا لتوقيع الاتفاق مع البنك ، بشأن تمويل مشروع بناء السد العالى ، وكان غارقا فى هذا حتى أذنيه ، عندما سمع دقات على باب مكتبه ، فقال فى توتر :

ـ ادخل أيها الطارق .

دلف إلى الحجرة جندى من جنود الحراسة ، ضرب كعبيه ببعضهما البعض فى قوة ، وهو يرفع يده بالتحية العسكرية ، قبل أن يقول :

ـ (مراد) بك يطلب رؤيتك يا سيدى .

اعتدل (حسين) ، وأجابه :

ـ حسنا .. سأذهب إليه على الفور .

غادر الجندى المكتب ، فى حين نهض (حسين) يجمع فى عجلة عددا من التقارير ، التى تحمل اسم (يوجين بلاك) ، وأودعها ملفا صغيرا ، ثم حملها وعدل رباط عنقه ، واتجه فى خطوات سريعة إلى مكتب (مراد صقر) ، مدير الجهاز الجديد ..

واستقبله (مراد) بنظراته المتفرسة ، وملامحه الجامدة كالمعتاد ، وهو يقول فى لهجة تخلو من أية معان :

ـ مرحبا يا (حسين) .. اجلس .

جلس (حسين) على المقعد المقابل لمكتب (مراد صقر) ، ورفع يده بالملف إلى هذا الأخير ، وهو يقول :

ـ لقد نجح رجالنا فى جمع المعلومات المطلوبة عن (يوجين) ، وهذا الملف يضمّ ..

قاطعه (مراد) ، وهو يلتقط الملف ، ويضعه فوق مكتبه فى لا مبالاة :

ـ دعك من هذا الآن .

شعر (حسين) ببعض القلق ؛ إذ لم يكن من الطبيعى أن يتجاهل

(مراد صقر) المعلومات المطلوبة ، على هذا النحو ، مالم يكن هناك أمر جلل ، يدفعه إلى هذا ، ومادام قد استدعاه هو إلى مكتبه ، فهذا يعنى أن الأمر يتعلق به على نحو أو آخر ، لذا فقد لاذ بالصمت تماما ، وجلس يتطلع إلى (مراد) فى قلق ، وهو يفرك كفيه فى توتر ، حتى سأله (مراد) ، دون أن ينظر إليه :

ـ ما المشكلة التى تتعلق بميراث والدك يا (حسين) ؟

هبط السؤال على (حسين) كالصاعقة ، فلم يكن يتوقع أبدا هذا الموقف ، مما جعله يرتبك لحظات ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ لا توجد أية مشاكل فى هذا الشأن يا سيدى ، وهذا أمر يعود إلى أعوام مضت .

مط (مراد) شفتيه ، وقال :

ـ لماذا يشكوك (فؤاد) بشأنه إذن ؟

كاد يقفز فى مقعده ، وهو يهتف :

ـ (فؤاد) ؟!

كان هذا آخر ما يتوقعه بالفعل ..

(فؤاد) ؟!

(فؤاد) يشكوه بشأن ميراث والده ؟! ..

وما شأن (فؤاد) بهذا ؟ ..

لماذا تذكر هذا الأمر ، بعد كل هذه السنين ؟ ..

امتلأت نفسه بحنق شديد ، وهو يتذكر كيف اختار (فؤاد) زوجا لشقيقته ، وكيف خضع لرأيه ، عندما رفض الزواج من (شريفة) ، وأصرّ على الزواج من (ناهد) ..

لقد وافق ـ حينذاك ـ لأنه كان يتصور أن مصاهرته لـ (فؤاد) ستعلى من شأنه ، بسبب وجود شقيق (فؤاد) ، ضمن أعضاء مجلس قيادة الثورة ..

وها هوذا يدفع الثمن ..

ثمن الخطا الذى ارتكبه ، عندما اختار لشقيقته زوجا يفوقه قوة ..

وفى مرارة ، اجاب سؤال رئيسه :

ـ لست أدرى لماذا فعل (فؤاد) هذا يا سيدى ، فلا شأن له بميراثى من أبى .

رمقه (مراد) بنظرة جانبية ، وهو يقول :

ـ ولكنه زوج شقيقتك .. أليس كذلك ؟

كتم (حسين) غيظه ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح ، ولكن شقيقتى نفسها لا شأن لها بالأمر ، فالميراث قانونى ولا أحد يمكنه أن ..

قاطعه (مراد) فى صرامة :

ـ لست أتحدث عن قانونية الأمر يا (حسين) .

خفق قلب (حسين) فى قوة ، عند هذه النقطة ..

إذن فقد استغل (فؤاد) نفوذ شقيقه ، لانتزاع الأرض من قبضته .. باللحقارة ! ..

ولكنه لن يسمح له بهذا ..

لن يسمح له أبدا ..

وفى صرامة ، تابع (مراد) :

ـ لقد أبلغنى شقيق (فؤاد) أن هذا الوضع لا يروق له ، وأنت تعلم منصب شقيق (فؤاد) ، ووضعه فى مجلس قيادة الثورة ، ومادام الوضع لا يروق له ، فلابد من تعديل هذا الوضع بما يرضيه .. أنت تفهم هذا بالطبع .

تمتم (حسين) فى مرارة :

ـ بالطبع

ابعد (مراد) نظره عن (حسين) ، وهو يقول فى حزم :

ـ افعل ما يحلو لك يا (حسين) ، ولكننى أريد أن ينتهى هذا الوضع باسرع ما يمكن ، وعلى النحو الذى يرضى زوج شقيقتك ، وشقيقه بالطبع .

كان (حسين) يشعر بغضب عارم ، يعربد فى أعماقه ، ولكنه أجاب فى خفوت :

ـ كما تأمر يا سيدى .

أشار إليه (مراد صقر) بيده ، إشارة تدعوه إلى الانصراف ، فنهض (حسين) ، وغادر مكتب (مراد) فى صمت ، واتجه إلى مكتبه فى غضب شديد ، وراح يزفر فى شدة ، وهو يجلس خلف مكتبه ..

إذن فـ (فؤاد) يرغب فى إعلان تفوقه ، على أسرة (البنهاوى) ..

يريد أن يثبت للجميع أنه الأقوى ، وليس (حسين البنهاوى) ..

لا .. مستحيل !! ..

لن ينجح (فؤاد) فى هذا أبدا ..

ولكن ما وسيلته إلى الفوز هذه المرة ؟

نهض من خلف مكتبه ، ووقف يتطلع من النافذة فى شرود ، وهو يفكر فى الأمر فى عمق ..

وفى هذه اللحظة فقط ، شعر بشوق شديد إلى وجود شخص محنك خبير إلى جواره ..

شخص مثل (إبراهيم) ..

(إبراهيم مكى) ..

لم يكد الاسم يقفز إلى ذهنه ، حتى انعقد حاجباه فى شدة ، وراودته فكرة مجنونة ، لم يلبث أن طرحها جانبا ، ثم استدار يلتقط سماعة هاتفه ، ويطلب رقما داخليا قصيرا ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، على الطرف الآخر ، حتى قال فى حزم :

- هل عاد (صلاح) من (باريس) ؟ ..

أجابه صاحب الصوت :

- ليس بعد يا سيدى .

سأله فى عصبية :

- ومتى يعود ؟

أجابه الرجل مرتبكا :

- لست أدرى يا سيدى .. أنت تعلم أن أحدا لا يبلغنا بهذا ، وخاصة بالنسبة للعمليات السرية ، و ..

هتف به (حسين) مقاطعا :

- حسنا .. أعلم هذا .. أعلم هذا .

وأعاد السماعة إلى موضعها فى عنف ، وعاد إلى النافذة ، وتلك الفكرة المجنونة ، الخاصة بـ (ابراهيم مكى) تعاود هجومها على عقله ..

وفى إصرار شديد .

* * *

١١ - الصدام ..

تهللت أسارير (سوسن) فى سعادة ، وهى تستقبل (مفيد) ، فى قطار الصباح كالمعتاد ، وأفسحت له مكانا الى جوارها ، وهى تقول :

- صباح الخير .. كيف حال العمل ؟

ابتسم وهو يجلس قائلا :

- عظيم .. إنه يمنحنى شعورا جميلا بالارتياح ، على الرغم من راتبه الضئيل .

همست فى مرح :

- يكفى أنه يوفر لك طعاما مجانيًا .

ضحكا معا ، قبل أن يسألها هو :

- وماذا عن عملك أنت ؟

هزت كتفيها ، قائلة :

- لا بأس به . فالمتجر شهير معروف ، وأنا أحصل على نسبة ، من مبيعات القسم الذى أعمل به .

ثم استعادت مرحها ، مستطردة :

- لن أصبح مليونيرة حتما ، ولكنه عمل جيد .

ابتسم دون أن يجيب ، فتطلّعت إليه لحظات ، ثم لاذت بالصمت بدورها ، وان لم يتوقف قلبها عن تلك الخفقات ، التى تلازمه كلما كان هو إلى جوارها ..

وتمنت لو رات فى عينيه تلك النظرة الحانية مرة أخرى ..

بل لقد راودتها رغبة عارمة ، فى أن تفتعل السقوط ، حتى تحظى منه بلحظات حنان ودفء أخرى . ولكنها قاومت رغبتها هذه ، واستنكرتها فى أعماقها ، واكتفت منه بأحاديث السفر ، ولحظات القرب ، وبالأحلام التى تملأ لياليها ، وتبعث فى ساعات النوم سعادة لا مثيل لها ..

ولقد سألت نفسها ، وهى تتطلع إليه اليوم ، عن السبب فى شعورها بوجود حاجز يفصله عنها ..

أهو خوف كامن فى أعماقها ؟ ..

أم مجرد وهم ؟ ..

أو هو سبب يكمن فيه هو ؟ ..

فى صمته ، أو هدوئه الشديد ..

لماذا لا تشعر - إلا لماما - أنه يبادلها حبا بحب ؟ ..

لماذا تبدو مشاعره نحوها حذرة ، مترددة ؟ ..

لم تكن تدرك ، وهى تطرح هذه الأسئلة على نفسها ، أن عقله هو أيضا كان بحرا متلاطما ، من الأسئلة والمخاوف ..

كان يسأل نفسه الأسئلة نفسها تقريبا ..

لماذا يخشى الاقتراب منها أكثر ؟ ..

لماذا يشعر فى أعماقه بحذر بالغ ، تجاه محاولات التقارب بينهما ؟ ..

والسؤال الأكثر خطورة هو : لماذا يصر قلبه على مقارنتها دائما بـ (مديحة) ؟ ..

إنهما لا تتشابهان أبدا ، وهو لا يدرى حتى كيف أصبحت (مديحة) الآن ، بعد الزواج والإنجاب ..

هذا لو أنها تزوجت بالفعل ، كما أخبره (حسين) ..

ترى أين هى الآن ؟ ..

أين (مديحة) ؟ ..

شعر بيد تهزه فى رقة ، مع صوت (سوسن) الهادى ، وهى تقول :

- لقد وصلنا .

اعتدل فى سرعة ، وهو يقول :

- حمدا لله على السلامة يا (مديحة) .

انتبه فجأة الى زلة لسانه ، ولكن ..

بعد فوات الاوان ..

وعندما استدار الى (سوسن) فى سرعة ، أدرك فداحة ما نطق به ، وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه فى عنف ..

لقد كانت (سوسن) تحدق فى وجهه بارتياع ، ووجهها يحمل شحوب الدنيا كلها ..

كانت أشبه بجثة ..

جثة هامدة ..

* * *

استقبل (فؤاد) (حسين) بابتسامة واثقة ، فى منزله بـ (مصر الجديدة) ، ومد يده يصافحه ، وهو يقول :

- أهلا .. أهلا بصهرى العزيز .

تجاهل (حسين) اليد الممدودة إليه ، وهو يقول فى صرامة :

- ما هذا الذى فعلته ؟

لم يصر (فؤاد) كثيرا على اتمام المصافحة ، وإنما أعاد يده الى جواره فى هدوء ، وهو يقول بابتسامته الواثقة :

- وما هذا الذى فعلته ؟

اندفعت (ناهد) فى هذه اللحظة ، للترحيب بشقيقها ، وهى تهتف فى حرارة :

- مرحبا يا (حسين) .. مرحبا بك يا أخى العزيز .

ولكن (حسين) استقبلها بقول صارم :

ـ اتركينا وحدنا يا (ناهد) .

تجمدت فى مكانها ، ونقلت بصرها فى خوف ، بين وجهى زوجها وشقيقها ، وغمغمت :

ـ ماذا حدث ؟

صاح بها (حسين) فى حدة :

ـ قلت لك اتركينا وحدنا .

أسرعت إلى حجرتها ، وقلبها ينبض فى رعب وجزع ، فى حين جلس (فؤاد) على أقرب المقاعد إليه ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك شديد العصبية هذا المساء يا (حسين) بك .

أجابه (حسين) فى غضب :

ـ وأنت شديد الطمع .

أطلق (فؤاد) ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ الطمع ؟! .. ياله من اتهام خطير ! .. ولماذا تعتقد هذا يا (حسين) بك ؟

أجابه (حسين) فى انفعال :

ـ لماذا شكوت أمر ميراثى لشقيقك ؟

رفع (فؤاد) حاجبيه ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ ميراثك ؟ .. كنت أظنه ميراث الجميع .

وضاقت حدقتاه ، وهو يضيف فى خبث :

ـ هكذا يحتم الشرع .. أليس كذلك ؟

قال (حسين) فى حدة :

ـ وما شأنك أنت بهذا الميراث ؟

صاح به (فؤاد) فى صرامة :

ـ إنه ميراث زوجتى ، ومن حقها علىّ أن أحافظ على حقوقها المسلوبة .

انعقد حاجبا (حسين) فى شدة ، وهو يقول فى غضب :

ـ (ناهد) هى التى طلبت منك ذلك ؟

اندفعت (ناهد) خارج حجرتها ، وهى تهتف :

ـ لا يا (حسين) .. لا أخى . فليقطع لسانى ، قبل أن أطلب شيئا كهذا .

التفت إليها (فؤاد) فى غضب ، وصاح بها :

ـ عودى إلى حجرتك .

ترددت لحظة ، بين نارى زوجها وشقيقها ، ثم أسرعت عائدة إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى إحكام ، فى حين قال (حسين) لـ (فؤاد) فى غضب :

ـ إذن فأنت وحدك صاحب الفكرة .

هز (فؤاد) كتفيه ، وقال :

ـ وماذا فى هذا .. إنه حق الجميع .. أليس كذلك ؟

تبادلا نظرات صارمة ، مع بعضهما البعض ، ثم قال (حسين) فى حدة :

ـ أتظن أنك تستطيع إجبارى على هذا ؟

هز (فؤاد) كتفيه ، وقال فى ثقة :

ـ من يدرى ؟

استفزت الكلمة (حسين) ، على نحو جعله يهتف فى غضب :

ـ سنرى .

ثم اندفع مغادرا منزل (فؤاد) ، هو يعلم أنه ـ بعبارته الأخيرة ـ قد أشعل الموقف أكثر وأكثر ..

وبدأ الصراع ..

* * *

نهض (أكرم) بحلته الأنيقة ، ووسامته المتناهية ، يستقبل الأميرة (عايدة) ، فى مطعم (مكسيم) ، أشهر مطاعم (أوروبا) ، وانحنى يُقبّل أصابعها فى حرارة ، وهو يقول فى إعجاب واضح :

ـ كل مرة تحملين لى مفاجأة يا أميرتى .

ضحكت وهى تقول :

ـ وما المفاجأة هذه المرة ؟

قال مبتسما :

ـ جمالك الذى يزداد تألقا كل يوم .

أطلقت ضحكة مرحة ، توحى بأن إطراءه قد راق لها ، وجلست على المقعد المقابل له ، وهى تقول :

ـ من الواضح أنك منافق كبير .

ثم استدركت فى سرعة :

ـ ولكنك تروق لى .

أطلق ضحكة عذبة قصيرة ، وقال :

ـ هذا يعنى أننى أكثر رجال الدنيا حظًا .

رمقته بنظرة مرحة ، قبل أن تقول :

ـ كم مرة أدرت فيها هذه الأسطوانة ، على آذان الفتيات ؟

أجاب بسرعة :

ـ ولا مرة .

ضحكت قائلة :

ـ أيها الكاذب .

مال نحوها ، والتقط كفها بين أصابعه ، وهو يتطلع إلى عينيها ، قائلا :

ـ أتصدقيننى لو أخبرتك ، أنها أول مرة فى حياتى كلها ، أشعر بكل هذا الميل والانبهار ، فى حضرة واحدة من الجنس الناعم ؟

مالت نحوه بدورها ، وقالت ضاحكة :

ـ أتحاول إقناعى أنه لم تكن لك علاقات نسائية سابقة ؟

ابتسم قائلا :

ـ لم أقل هذا .

تراجعت هاتفة :

ـ فى هذه الحالة أصدقك .

تطلع إلى عينيها مرة أخرى طويلا ، وقال :

ـ أما زلت تصرين على العيش مع ذلك الفرنسى ؟

هزت رأسها نفيا ، وهى تقول فى خفوت :

ـ كلا .. لست أصر على أى شىء .

تراجع مبتسما فى ارتياح ، وقال :

ـ (عايدة) ، ما رأيك فى رحلة خاصة إلى (أمريكا) ؟

غمزت بعينها ، وهى تسأله :

ـ ماذا تعنى برحلة خاصة ؟

أجابها فى بساطة :

ـ أعنى أنها رحلة ذات طراز خاص ، تبدأ بالسفر فى طائرتى الخاصة ، ثم الوصول إلى قصر خاص ، فى (ميامى) الأمريكية ، وقضاء إجازة خاصة ، يتمناها الملوك والأمراء ، وتليق بأجمل أنثى فى العالم كله .

ضحكت قائلة :

ـ هل تحاول إغوائى ؟

ضحك بدوره ، قائلا :

ـ أهناك ما يمنعك ؟

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، جذبت إليها أنظار الجميع ، قبل أن تقول :

ـ لا يا (أكرم) .. ليس هناك ما يمنع ، ولكن تذكر : أنك ستسافر مع أميرة ، وليس مع غانية .. هل تفهم ؟

أومأ برأسه إيجابا ، وقال بابتسامته الجذابة :

ـ بالطبع .

تنهدت فى عمق ، وقالت :

ـ فليكن .. امنحنى أسبوعا واحدا .

سألها :

ـ ولماذا هذا الأسبوع ؟

قالت بابتسامة حالمة :

ـ أريد إعداد ثياب خاصة ، تليق برحلة خاصة .

واسترخت فى مقعدها ، مستطردة :

ـ خاصة جدًا .

واتسعت ابتسامتها أكثر ..

* * *

هرع العمدة (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ، يستقبل (حسين) فى منزله بحرارة شديدة ، وهو يهتف فى ترحاب :

ـ مرحبا بك يا سيد شباب القرية .. مرحبا بك .

استوقفه (حسين) بإشارة من يده ، وكأنه يمنعه من مصافحته ، وهو يقول فى لهجة جافة :

ـ أهلا يا (عبد الحميد) .. كيف حال العمودية معك ؟

فهم (عبد الحميد) الإشارة ، فانكمش فى مكانه ، وخفض عينيه فى مذلة ، وهو يقول :

ـ إننا نحيا فى خيرك يا (حسين) بك .

اتخذ (حسين) مجلسه ، دون أن يدعوه العمدة لذلك ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى فى غطرسة واضحة ، وهو يقول :

ـ أيروق لك منزل العمودية الجديد يا (عبد الحميد) ؟ .. إنه أفضل من عشتك القديمة .. أليس كذلك ؟

غمغم الرجل فى مرارة :

ـ كله من خيرك يابك .

أكمل (حسين) :

ـ كان من الضرورى أن أجد لك منزلا كهذا ، فلقد كان من العار أن يعلم الزملاء ، فى مجلس قيادة الثورة أن حما شقيقى مجرد فلاح أجير ، يحيا فى عشة حقيرة .

لم ينبس (عبد الحميد) ببنت شفة ، وإن شعر بسياط من نار تلهب أذنيه وقلبه ، مع كلمات (حسين) ، الذى انتظر لحظات ، ليضمن أن أسلوبه قد أحدث التأثير المطلوب ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هناك عمل ، أريد منك أن تقوم به من أجلى يا (عبد الحميد) .

غمغم العمدة :

ـ أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك .

تفرس (حسين) فى ملامحه لحظات ، قبل أن يقول فى لهجة آمرة :

ـ هناك شىء سأمنحك إياه ، على أن أسترده بكامله فيما بعد .

ثم مال نحو (عبد الحميد) ، مستطردا فى صرامة :

ـ وسأتخذ الإجراءات اللازمة لاسترداده بالطبع .

أومأ (عبد الحميد) برأسه صاغرًا ، ثم سأل فى تردّد :

ـ وما هو هذا الشىء يا (حسين) بك ؟

أجابه (حسين) ، وهو يتراجع فى حزم :

ـ الأرض .

لم يفهم (عبد الحميد) ما يعنيه (حسين) ، حتى أضاف هذا الأخير :

ـ أرض (البنهاوى) كلها .

وارتجف العمدة ، من فرط المفاجأة .

* * *

١٢ ـ حول الهدف ..

تسللت (شريفة) من الباب الخلفى للسراى ، وتلفتت حولها فى حذر ، وهى تندس بين أشجار البرتقال فى الحديقة الملاصقة ، ثم أسرعت الخطا على الأرض الجافة ، حتى بلغت سور الحديقة ، وهناك عادت تدير عينيها حولها فى قلق ، حتى سمعت صوتًا يهمس بها فى توتر :

ـ (شريفة) .. أنا هنا .

التفتت فى لهفة إلى مصدر الصوت ، وتهللت أساريرها ، وهى تسرع نحو (أمجد) ، الذى ارتدى جلبابا ريفيًا ، وأخفى وجهه بوشاح خفيف ، وتركت أيديها لكفيه فى حرارة ، وهى تهتف فى صوت خافت :

ـ أهلا يا (أمجد) .. طال غيابك هذه المرة .

احتضن كفيها فى حنان ، وهو يقول :

ـ أوحشتنى كثيرا .

تمتمت :

ـ وأنت أيضا .

تطلع كل منهما إلى الآخر فى لهفة ووجد ، وسرت بينهما تلك الموجة العاطفية الناعمة ، التى تحيط بهما كلما التقيا ، فهتفت (شريفة) :

ـ أسنبقى هكذا دائما ؟

أجابها (أمجد) فى توتر :

ـ لا .. لم أعد أحتمل هذه اللقاءات اللصوصية أكثر من هذا .. سأتحدث مع (حسين) بك مرة ثانية حتما .

سألته فى لهفة :

- متى ؟ ؟
بدا شديد التوتر والقلق ، وهو يقول :
- قريبا .. قريبا جدا .
تطلعت إليه فى حيرة ، وترددت وهى تقول :
- إننا نلتقى على هذا النحو ، منذ أكثر من شهرين ، وأخشى أن ..
بترت عبارتها ، عندما لاحظت اضطرابه ، وتلفته حول نفسه فى قلق شديد ، فسألته فى توتر :
- ماذا هناك يا (أمجد) ؟
التفت إليها ، وتطلع إلى عينيها لحظة ، قبل أن يقول ، فى صوت امتزج الاضطراب بكل حرف من حروفه :
- (حسين) .
- لم يكد ينطق الاسم ، حتى انتفض جسدها فى هلع ، وشحب وجهها وصوتها ، وهى تسأله :
- ماذا عنه ؟
شاركها شحوب صوتها ، وهو يجيب :
- إنه هنا .
اتسعت عيناها فى رعب ، وخفت صوتها ، حتى سمعه هو بالكاد ، وهى تردد :
- هنا ؟!
أومأ برأسه ، قائلا ، واضطرابه يتصاعد :
- نعم .. هنا .. لقد رأيت سيارته أمام بيت العمدة ، ومن المؤكد أنه سيأتى إلى هنا .
لوحت بكفيها فى ذعر ، هاتفة :

- ارحل إذن .. ارحل قبل أن يصل .
أخفى وجهه بالوشاح ، وهو يسألها فى توتر :
- متى نلتقى مرة أخرى ؟
هتفت به ، وهى تتراجع :
- الأسبوع القادم ، فى نفس الموعد .
استدارت عائدة إلى السراى ، دون أن تلقى عليه تحية الوداع ، ولم تكد تعبر أشجار البرتقال ، حتى فوجئت بـ (فاطمة) أمامها ..
وكانت (فاطمة) تبتسم ..
تبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة ، تحمل عشرات المعانى ، التى يكفى الواحد منها ليهوى قلب (شريفة) بين قدميها ..
وبكل توترها وعصبيتها ، هتفت (شريفة) :
- ماذا تفعلين هنا ؟
هزت (فاطمة) كتفيها ، وهى تقول بصوتها الخشن :
- أشاهد أشجار البرتقال ، فهى توحى بالحب
ارتجف جسد (شريفة) ، وهى تقول :
- الحب ؟! .. أى قول فاجر هذا ؟
أطلقت (فاطمة) ضحكة خشنة قصيرة ، وقالت :
- لو أن القول فاجر ، فماذا عن الفعل ؟
ثم أطلقت ضحكة مماثلة ، وهى تستدير لتدخل السراى ، وتختفى فى سرعة ، تاركة (شريفة) جامدة فى مكانها ، ووجهها شاحب كالموتى ، وقلبها ينتفض فى ارتياع ..
(فاطمة) تعلم شيئا ما حتما ..
لقد رأتها مع (أمجد) ..
أو سمعتهما على الأقل ..

ارتجف جسمها من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، لمجرد طرح الفكرة فى ذهنها ، وخيل إليها أنها ستصاب بشلل مفاجىء ، أو تسقط جثة هامدة ، وهى تتصور ما يمكن أن تفعله (فاطمة) ، اذا ما علمت أمرا كهذا ..

وفجأة ارتفع صوت (نعيمة) ، وهى تهتف :

- (شريفة) .. أين أنت ؟ .. لقد جاء (حسين) .

وهنا كادت (شريفة) تسقط بالفعل ..

تراخت قدماها ، وكادتا تفقدان قدرتهما على الوقوف ، لولا أن تشبثت بقائم الباب الخلفى للسراى ، وهى تقول فى شحوب :

- سأحضر .. سأحضر على الفور .

جرجرت قدميها الى الداخل ، ورأت (حسين) يصافح (نعيمة) فى صرامة كعادته ، وهو يسألها :

- من حسن الحظ أن أجدك هنا يا (نعيمة) .. أهى زيارة صباحية ؟

ارتبكت (نعيمة) ، وهى تقول :

- نعم ..كنت ازور (شريفة) ، وأطمئن على السراى .

سألها ، وهو يتلفت حوله :

- وأين هى (شريفة) ؟

وقع بصره على شقيقته ، التى تهم بدخول المكان ، فقال بابتسامة باهتة :

- صباح الخير يا (شريفة) .. كيف حالك ؟

صافحته بأصابع باردة مرتجفة ، فى حين قالت (نعيمة) ، محاولة اخفاء انفعالها :

- سأذهب لأعد لك طعام الغذاء .

هتف بها :

- سأكتفى بقدح من الشاى ، فسأرحل على الفور .

قالت (شريفة) فى ارتباك :

- ولماذا الرحيل السريع هذا ؟ .. إنك لم تأت منذ عدة شهور .

قال ملوحا بكفه :

- إنه العمل .

أسرعت (نعيمة) تقول :

- سأعد الشاى اذن .

وابتعدت بسرعة ، قبل أن يلمح شقيقها اضطرابها وتوترها ، فى حين جلس (حسين) ، وسأل (شريفة) فى روتينية :

- كيف حال الجميع ؟

أجابته ، وهى تفرك أصابعها فى توتر :

- بخير .

انتبه إلى إجابتها المقتضبة ، فتطلع إليها لحظات فى صمت ، ثم اعتدل يسألها فى صرامة :

- ماذا هناك ؟ .. انك تبدين شاحبة للغاية .

خفق قلبها فى عنف ، وكادت تنهار ، وتعترف له بكل شىء ، ولكنها قالت فى سرعة :

- هناك بعض المشاكل .

انعقد حاجباه ، وهو يسأل فى حدة :

- اى نوع من المشاكل ؟

ارتبكت أكثر ، فلم تجد أمامها سوى أن تقول :

- (نعيمة) على خلاف مع زوجها ، وتطلب الطلاق .

قال فى غضب :

- هل أساء إليها هذا الحقير ؟

أسرعت تقول :

- لا .. لم يفعل . ولكن ..

لم تجد ما تقول ، فتوترت ، وارتبكت ، مما جعله يقول فى حدة :

- ولكن ماذا ؟

أجابته فى خوف :

- لقد أعاد (فاتن) إلى عصمته ، وهى حبلى ، فى حين يقاطع (نعيمة) تماما .

تضاعف الغضب فى وجه (حسين) وصوته ، وهو يهتف :

- يا لحقارته !

ارتبكت (شريفة) أكثر ، وخشيت أن تعلم (نعيمة) بما فعلت ، فخفضت صوتها ، وهى تقول فى توسل :

- أرجوك ألا تفعل شيئا ، فلقد أقسمت لـ (نعيمة) ألا أخبرك بما حدث .

صاح فى غضب :

- لماذا ؟

أجابته فى ارتياع :

- أرجوك يا (حسين) .. إنه شأنها .

هب من مقعده ، صائحا :

- بل هو شأن الأسرة كلها .

ثم صاح فى غضب :

- (نعيمة) .. أين أنت ؟

هرعت إليه (نعيمة) ، شاحبة الوجه ، تحمل قدح الشاى ، فى حين انكمشت (شريفة) فى مقعدها هلعة ، لا تدرى كيف تعتذر لشقيقتها عما

فعلته ، وصاح (حسين) فى وجه (نعيمة) :

- أتطلبين الطلاق من زوجك ؟

جاء رد فعلها أعنف مما توقع ، ومما توقعت (شريفة) ، فقد امتقع وجهها فى ثانية واحدة ، حتى بدا وكأنه فقد فجأة كل ما به من دماء ، وعجزت أصابعها عن حمل قدح الشاى ، فسقط من يدها ، وتحطم على الأرض فى عنف ، وهى تحدق فى و جه (حسين) بدهشة وذعر ، قبل أن تسأله :

- من أخبرك هذا ؟

تجاهل سؤالها ، وهو يكرر سؤاله فى غضب أكثر :

- أتطلبين الطلاق من زوجك ؟

انهارت هاتفة :

- أرجوك يا (حسين) .. أقبل قدميك يا أخى .. لا تتدخل فى الأمر هذه المرة .

صاح فى ثورة :

- لماذا ؟ .. كيف أترك هذا الحقير يحطم هيبة عائلة (البنهاوى) على هذا النحو ؟

تفجرت الدموع من عينيها ، وهى تقول فى ضراعة :

- وكيف ستنقذ هيبة العائلة ؟ .. هل ستجبره على تطليقها مرة أخرى ؟ .. ربما يمكنك أن تفعل هذا يا (حسين) ، ولكن هل يمكنك إجباره على محبتى ؟

لم يجب تساؤلها هذه المرة ..

لقد كانت على حق ..

صحيح أنه يستطيع إجبار (عمر) على تطليق (فاتن) للمرة الثانية ، ولكنه لن يستطيع أبدا مد جسور الود والمحبة ، بينه وبين شقيقته ..

هذا بالذات لا يحدث بالقوة ..

وفى صمت ، تطلع (حسين) إلى وجه شقيقته طويلا ، قبل أن يقول ، فى صوت فقد الكثير من عصبيته وثورته :

ـ فليكن يا (نعيمة) .

لم تصدق أذنيها ، وهى تحدق فى وجهه ، فهتفت :

ـ حقًا ؟! .. ألن تتدخل هذه المرة حقًا يا (حسين) ؟

هز رأسه نفيا ، وقال :

ـ لا يا (نعيمة) .. سأترك لك مشاكلك العائلية هذه المرة .

واندفع نحو باب السراى فى حدة ، فعدت (شريفة) خلفه ، هاتفة :

ـ ألن تتناول الشاى ؟

أجاب وهو يلوّح بكفه :

ـ فيما بعد .. فيما بعد .

وقفز داخل السيارة ، وانطلق بها عائدا إلى (القاهرة) ، وهو يشعر أنه قد انتهى من إعداد الخطوة الأولى فى المعركة ..

معركة الأرض ..

★ ★ ★

ضرب الثرى الفرنسى المنضدة بقبضته فى غضب ، وهو يصيح فى وجه الأميرة (عايدة) :

ـ لا .. لن أسمح لك بالسفر مع ذلك المصرى .

التقطت قطعة طعام بشوكتها فى أناقة وهدوء ، ورفعتها إلى شفتيها الجميلتين فى استخفاف ، وهى تقول :

ـ ومن قال إنك تملك حق السماح والرفض يا عزيزى (جان) ؟

لوّح بسبابته فى وجهها ، وهو يقول مهددًا :

ـ لو غادرت هذا القصر ، فلن تعودى إليه أبدا .

توقفت عن الأكل ، وهى تتطلع إليه فى صرامة ، قائلة :

ـ أهذا تهديد ؟

هتف فى غضب :

ـ يمكنك اعتباره كذلك .

انعقد حاجباها الجميلان ، وهبت واقفة ، وألقت منشفة المائدة فى وجهه ، وهى تقول :

ـ إننى أرفضه إذن .

ورفعت أنفها فى كبرياء ، وهى تغادر المائدة ، فهتف خلفها :

ـ لا يا (عايدة) .. أرجوك .

تجاهلته تماما ، وهى تصعد إلى الطابق الثانى ، حيث حجرة نومها ، فأسرع خلفها ، صائحا :

ـ حسنا .. أنا أعتذر .

واصلت تجاهلها له ، وهى تدلف إلى حجرتها ، وتبدأ فى وضع ملابسها فى حقيبة ضخمة ، فقال فى عصبية ، وهو يقف عند باب الحجرة :

ـ قلت إننى أعتذر .

أجابته فى صرامة :

ـ وأنا لا أقبل اعتذارك .

صاح فى غضب :

ـ هذا المصرى لن يبقى فى (باريس) إلى الأبد .. إنه سيرحل حتما إلى موطنه ، وأنت ترفضين العودة إلى (مصر) ، فما الذى ستفعلينه عندما يرحل ؟

التفتت إليه فى حدة ، وقالت :

ـ ماذا دهاك يا (جان) ؟ .. إنك تتحدث كما لو كنت أنا عاهرة ، تحيا

من فضلك ! .. أنسيت من أنا ؟ .. أنسيت أنك تتحدث إلى أميرة ملكية مصرية ، يعود نسبها إلى أعرق العائلات التركية ؟

قال فى حدة مماثلة :

- يبدو أنك أنت نسيت هذا .

رمقته بنظرة نارية غاضبة ، ثم أغلقت الحقيبة فى عنف ، وقالت فى تعال :

- سأكتفى بهذه الثياب ، وسأرسل فى طلب الباقى فيما بعد .

قال متوسلا :

- (عايدة) .. أرجوك .

تحركت فى شموخ نحو باب الحجرة ، وأزاحت الفرنسى جانبا ، وهى تقول :

- ادع الخادم ، لينقل الحقيبة إلى سيارتى .

كادت تنفجر ضاحكة ، وهو يعدو خلفها متوسلًا ، ولم تتبادل معه كلمة واحدة ، حتى وضع الخادم الحقيبة فى سيارتها المكشوفة ، فانطلقت بها على الفور ، وتركت الفرنسى يلوح بقبضته خلفها ، مهددًا ومتوعدًا ، وأطلقت ضحكة قصيرة ، قائلة :

- يكفيك هذا القدر يا عزيزى (جان) .. إنك تحيا مع أميرة منذ عامين ، وهذا أفضل مما يحصل عليه الكثيرون .

انطلقت بسيارتها بسرعة تتجاوز المسموح به كالمعتاد ، وتركت شعرها الأسود يتطاير خلفها فى نعومة ، وهى تبتسم ابتسامة نشوة وظفر ، حتى بلغت الفيلا التى يقيم فيها (أكرم) ، وقبل أن تميل بسيارتها إلى مرآب (جراج) الفيلا ، جذب انتباهها وجود سيارة أخرى هناك ، إلى جوار سيارة (أكرم) ، فأوقفت سيارتها خارج الفيلا ، وغمغمت لنفسها :

- يبدو أنه يستقبل زائرا .

ثم انعقد حاجباها ، وهى تستطرد :

- أو زائرة . .

شعرت بشىء من الغيرة للفكرة ، وراودتها فكرة عابثة ، فغادرت سيارتها ، وسارت على أطراف أصابعها إلى داخل الفيلا ، وتجاوزت بابها فى خفة ، ثم اتجهت إلى أقرب نافذة ، وتطلعت منها خفية ، فوقع بصرها على رجل غليظ الملامح ، قصير القامة ، يقف فى مواجهة (أكرم) ، الذى بدا مرتبكا متوترا ، كتلميذ خائب ، يواجه اختبارا عسيرا ، فى حين كان القصير يلوح بسبابته فى وجهه بخشونة ، قائلا :

- لا يا (سليمان) .. لقد استغرقت أكثر مما ينبغى ؛ لإتمام هذه المهمة .

أدهشها أن يخاطب ذلك القصير (أكرم) باسم (سليمان) ، فالتصقت بالنافذة أكثر ، وسمعت أكرم يقول فى ارتباك :

- الأمر ليس هينًا كما تتصور يا (صلاح) بك ، فلو شعرت هى بأدنى قدر من الشك ، سترفض مشاركتى الرحلة حتمًا ، ولن يمكننا إعادتها إلى (القاهرة) أبدا .

خفق قلبها فى سرعة ، وتلاحقت أنفاسها ، وسمعت القصير يقول فى صرامة :

- لا يا (سليمان) .. إنك تضيع الكثير من الوقت ، ولن يعجب هذا (حسين) بك .. لن يعجبه أبدا .

اتسعت عينا (عايدة) فى هلع ، وتراجعت فى عنف ، وكأنما أصابتها صاعقة ..

لقد فهمت اللعبة ..

فهمتها تماما .

* * *



فوقع بصرها على رجل غليظ الملامح ، قصير القامة ، يقف فى مواجهة (أكرم) ، الذى بدا مرتبكًا متوترًا ، كتلميذ خائب ..

١٣ ـ وضاقت الدوائر ..

ابتسم شيخ الخفراء (بسيونى) ، عندما رأى (فاطمة) ، بقامتها الشبيهة بالرجال ، وبملامحها الغليظة ، وهى تعبر بوابة منزل العمدة ، حاملة صغيرها (طارق) ، وقال ضاحكًا :

ـ صباح الخير يا (فاطمة) .. مرحبا بك فى دارك .

ردت تحيته بصوتها الأجش ، وقالت :

ـ كيف حالك يا عم (بسيونى) ؟ .. أين أبى ؟ .. بلغنى أنه يطلب رؤيتى .

أشار إلى حجرة استقبال الضيوف ، وهو يقول :

ـ العمدة فى الداخل ، مع البك المأمور يا (فاطمة) ، وسينصرف المأمور بعد لحظات ، فقد انتهى من تناول الطعام ، وشرب ثلاثة أكواب من الشاى .

ثم ضحك قائلًا :

ـ يا للقدر يا (فاطمة) ! .. من كان يتصور أن يصبح عم (عبد الحميد) عمدة القرية كلها .

تنهدت ، وقالت :

أرزاق يا عم (بسيونى) .

جلست إلى جواره ، فداعب الصغير بسبابته فى حنان ، ثم قال :

ـ كم يشبه والده .

قالت فى أسى :

ـ من حسن حظه أنه لم يشبه أمه .

ابتسم عم (بسيونى) فى حنان ، وهو يقول لها :

ـ الجمال ليس جمال الوجه يا بنيتى ، وإنما جمال الروح .

ابتسمت فى مرارة ، وهى تقول :

ـ قل هذا لآل (البنهاوى) .

ـ سألها فى خفوت :

ـ أما زالوا يسيئون معاملتك ؟

ترقرق الدمع فى عينيها ، وهى تومىء برأسها إيجابا ، فهز (بسيونى) رأسه متفهما ، وقال :

ـ من يدرى يا بنيتى ، ربما صرت يوما أفضل منهم جميعا .

مسحت دموعها ، قبل أن تنسكب ، فى حين هبّ (بسيونى) واقفا ، وضرب كعبيه ببعضهما البعض ، وهو يؤدى التحية العسكرية ، فى قوة ، ورأت (فاطمة) المأمور يغادر حجرة الضيافة ، ويتجه إلى سيارة الشرطة فى خطوات قوية صارمة ، ووالدها خلفه يهتف :

ـ شرّفت الدار يا سيادة المأمور .. شرّفت القرية كلها يا باشا .

انتظر حتى انصرف المأمور بسيارة الشرطة ، ثم التفت إلى ابنته ، وانحنى يطبع على جبينها قبلة فى حنان ، وهو يقول :

ـ أهلا يا (فاطمة) .. كيف أنت يا بنيتى ؟

همهمت بكلمات مبهمة ، وقالت :

ـ بلغنى أنك تطلب مقابلتى يا أبى .

جذبها إليه فى حنان ، وهو يقول :

ـ نعم يا (فاطمة) ، أريدك فى أمر هام .

دخلا معا إلى قاعة الضيافة ، وأغلق هو الباب خلفه فى إحكام ، ثم التفت إليها يقول :

ـ حدث أمر جلل يا (فاطمة) .

سألته فى قلق :

ـ ما هو يا أبى ؟

تلفت حوله فى حذر ، ثم مال عليها هامسًا :

ـ (حسين البنهاوى) جاء إلى هنا أمس .

غمغمت :

ـ أعلم هذا .

تلفت حوله مرة أخرى ، وأضاف :

ـ ولقد كتب أرضه كلها باسمى .

اتسعت عيناها فى ذهول ، وهى تحدق فى وجهه ، قبل أن تهتف :

ـ ماذا تقول يا أبى ؟

همس فى انفعال :

ـ أقول إنه كتب الأرض كلها باسمى .. أرض (البنهاوى) .

مضت لحظات من الصمت ، وهى تحدق فى وجهه بذهول ، وكأنها لا تصدق ما سمعته ، قبل أن تهتف :

ـ باسمك أنت ؟! .. لماذا ؟

عاد يتلفت حوله للمرة الثالثة ، وكأنما يخشى أن تسمعه جدران الحجرة ، ثم همس :

ـ لست أدرى .. يبدو أن شيئا ما يتهدده .

هتفت فى انفعال :

المهم أن أرض (البنهاوى) صارت ملكا لنا .. أليس كذلك ؟

هز رأسه نفيا ، وقال :

ـ ليس تماما .. لقد حصل منى على عقد بيع عكسى ، بدون تاريخ ، بحيث يمكنه استرداد أرضه فى أية لحظة .

تألقت عيناها فى شدة ، وهتفت :

ـ لن يستردها أبدا .

صاح فى ارتياع :

ـ ماذا تقولين يا (فاطمة) ؟ .. من يمكنه الوقوف فى وجه (حسين البنهاوى) ؟

صاحت فى خشونة :

ـ أنا .

هتف :

ـ أنت مجنونة .

صاحت فى غلظة :

ـ سأكون كذلك بالفعل ، لو أعدت أرض (البنهاوى) إلى هؤلاء المتغطرسين .

أصابه الهلع ، خشية أن يتسرب صوتها للخارج ، وهمس فى رعب :

ـ وماذا ستفعلين أيتها المجنونة ؟

برقت عيناها فى جشع ، وهى تقول :

ـ سأسرق عقد البيع العكسى .. سأقتل (حسين) نفسه ، لو اقتضى الأمر .. المهم أننى لن أتخلى عن هذه الفرصة النادرة ، للتحكم فى آل (البنهاوى) .. لن أتخلى عنها أبدا ..

★ ★ ★

انهمرت دموع (سوسن) كالشلالات ، وهى تدفن رأسها فى وسادتها ..

أخيرا عرفت سر ذلك الحاجز ، الذى يحول بينها وبين (مفيد) ..

أخيرا أدركت سر عجزه عن التفاعل معها ..

إنها (مديحة) ..

تلك التى نطق اسمها ، دون أن يدرى ، وهو يخاطبها هى ..

إنها لم تسأله أبدا عن (مديحة) هذه ، على الرغم من ذلك الأثر العنيف ، الذى تركه نطق الاسم فى نفسها ..

لقد سمعت (مفيد) ينطق اسم (مديحة) ، فتطلعت إليه فى هلع ، ثم لم تلبث أن أشاحت بوجهها ، وكتمت لوعتها وحزنها ودموعها ، دون أن تنطق بحرف واحد ..

وهو لم يحاول شرح الأمر ..

لقد اكتفى بالصمت ..

صمت رهيب أحاط بهما ، وهما يغادران القطار فى (القاهرة) ، وينصرف كل منهما إلى عمله ، دون حتى أن يتبادلا التحية كالمعتاد ..

ولم تستطع العمل فى ذلك اليوم ..

لم تستطع أبدا أن تبتسم فى مواجهة زبائن المتجر ، وتحتمل أسئلتهم ومطالبهم ، وكل ذلك الحزن يملأ قلبها ..

ولذلك انصرفت ..

طلبت إجازة مرضية من صاحب المتجر ، وانصرفت ..

ولم يستطع صاحب المتجر رفض مطلبها ، إذ كان شحوبها وتهالكها أكبر دليل على مرضها بالفعل ، فوافق على منحها إجازة بنصف راتب ، لأسبوع كامل ، وهو يطالبها بالعودة بعد نهاية المدة ، ومزاولة عملها كالمعتاد ..

وعندما عادت (سوسن) إلى منزلها ، أصيبت أمها بالذعر ، حينما رأتها على هذا الوضع ، فأحاطتها برعايتها وحنانها ، وأرقدتها فى فراشها ، وأسرعت تستدعى طبيبا لفحصها ..

ومنذ ذلك اليوم ..

ومنذ أربعة أيام كاملة ، لم تغادر (سوسن) فراشها ..

ولم تتوقف عن البكاء ..

ولم يهدأ قلب والديها أبدا ..

وفى هذا اليوم ، بعد أربعة أيام كاملة ، دخل والدها الطبيب إلى حجرتها ، وقد انتقل شحوبها وتهالكها إليه ، وجلس على طرف فراشها ، وقلبه يكاد ينفطر حزنا عليها ، وربت على شعرها فى حنان ، وهو يقول فى لوعة :

ـ ماذا أصابك يا بنيتى ؟ .. أى عين حسود أصابتك ؟

زفرت أمها فى مرارة ، عند باب الحجرة ، وقالت فى حزن :

ـ لقد بخرتها ببخور مكى خمس مرات ، واستشرت الشيخ (محمد محرم) بشأنها ، ولا فائدة .

جففت (سوسن) دموعها ، واعتدلت قائلة :

ـ لا تقلقا يا أبى ، ويا أمى .. إننى بخير .. مجرد متاعب بسيطة ، ستزول حتما مع مرور الوقت .

سألها والدها فى حنان :

أى نوع من المشاكل يا (سوسن) ؟ .. هل فقدت عملك ؟ .. لا بأس بهذا يا بنيتى .. إننا لا نحتاج إلى عملك ، ولقد حاولنا إقناعك بالتخلى عن فكرة العمل مرارا .

هزت رأسها نفيا ، وقالت :

ـ لا يا أبى .. لم أفقد عملى .. أخبرتكما أكثر من مرة أننى حصلت على إجازة لأسبوع كامل .

سألتها أمها ، وهى تكاد تبكى كالمعتاد :

ـ ماذا بك إذن .. اخبرينى يا (سوسن) .. إنك ابنتنا الوحيدة ، وحزنك هذا يكاد يذهب عقلينا ، ويفطر قلبينا .

أدركت لحظتها كم هى محظوظة بأبوين مثلهما ، وأدركت أيضا كم

تعذبهما وتؤرقهما بحزنها وملازمتها الفراش ، فجففت ما تبقى من دموعها ، وأجبرت شفتيها على ابتسامة شاحبة ، وهى تقول :

ـ ما أسعدنى بكما .. حنانكما وحده يكفى لشفائى .

تهللت أسارير أمها ، واغرورقت عينا والدها بالدموع ، وهو يقول بصوت متهدج :

ـ حمدا لله .. حمدا لله يا بنيتى .

ارتفع رنين جرس الباب فى هذه اللحظة ، فقالت أمها ، وهى تتجه للاستجابة إليه :

ـ إنه الشيخ (محمد محرم) بالتأكيد .. لقد وعدنى بالحضور لرؤيتها .

ابتسمت (سوسن) فى تهالك ، وقالت لوالدها بابتسامتها الشاحبة :

ـ أما زالت أمى تؤمن بالشيوخ ، أكثر من إيمانها بالأطباء ؟

رمقها بنظرة عتاب حنون ، وهو يقول :

ـ الشيوخ بركة يا بنيتى .

عادت أمها فى هذه اللحظة ، وعلى شفتيها ابتسامة واسعة ، وهى تقول :

ـ يبدو أن غيابك يترك أثرا كبيرا يا (سوسن) ، فقد جاء بعضهم لرؤيتك .

سألتها فى دهشة :

ـ من جاء ؟ .. (إلهام) ، أم (منى) ؟

جاء من خلف أمها صوت حنون يقول :

ـ بل هو أنا يا آنسة (سوسن) .

وخفق قلب (سوسن) فى قوة ، وهى تتطلع إلى وجه صاحب الصوت ..

لقد كان (مفيد) ..

(مفيد البنهاوى) ..

* * *

رفع (مراد صقر) عينيه فى بطء ، يتطلع إلى وجه (حسين) فى برود ، قبل أن يقول بصوته الجاف ، الخالى من أية انفعالات :

ـ اجلس يا (حسين) .. أريد التحدث معك قليلا .

جلس (حسين) على المقعد المقابل للمكتب كالمعتاد ، وتجاهله (مراد) متعمدا ، ومتشاغلا بمراجعة ملف صغير ، ووضع بعض الملاحظات بقلمه الأحمر ، على أجزاء متفرقة منه ، تاركا (حسين) لأفكاره وتوتره ، ثم لم يلبث أن وضع قلمه إلى جوار الملف ، والتفت إلى (حسين) ، يسأله فى صوت جاف :

ـ ماذا فعلت بشأن مشكلة الميراث هذه ؟

ازدرد (حسين) لعابه فى توتر ، وأجاب :

ـ لم يعد باقيا من ميراث والدى سوى السراى ، و (فؤاد) يمكنه أن يقيم فيه ، أو ..

قاطعه (مراد صقر) فى برود :

ـ أتعلم أننى راجعت ملفك كله .

ازدرد (حسين) لعابه مرة أخرى ، وهو يتطلع إلى (مراد) ، وشعر بجفاف شديد فى حلقه ، وهو يتساءل عن سر هذه العبارة ، ولكن (مراد) لم يمنحه الوقت الكافى للقلق والتساؤل ، إذ أضاف ببروده الشهير ، وهو يتراجع بمقعده فى هدوء :

ـ أدهشنى كثيرا أسلوب انضمامك إلينا ، فلقد تم ذلك على نحو عشوائى سريع ، دون إجراء تحريات كافية ، أو اتخاذ ضمانات مناسبة ، وبتوصية خاصة من الزميل (رفعت كساب) ، قبل أن تعتقله بنفسك .

أدرك (حسين) على الفور ما يعنيه (مراد) بحديثه ، إذ كان عبارة عن تهديد ضمنى واضح ، بفصله من الجهاز ، لو لم يستسلم لرغبات (فؤاد) وشقيقه ، لذا فقد كرر فى خفوت :

ـ أؤكد لك يا سيدى ، أنه لم يعد باقيا من الميراث سوى ..

قاطعه (مراد) مرة أخرى فى صرامة :

ـ لماذ قمت بذلك التسجيل الصورى يا (حسين) ؟

شحب وجه (حسين) ، وهو يغمغم :

ـ أى تسجيل صورى يا سيدى ؟

أجابه فى خشونة :

ـ لقد سجلت الأرض كلها باسم (عبد الحميد) ، عمدة قريتك .. لماذا لجأت إلى هذا الأسلوب التحايلى السخيف ؟ *

ازداد شحوب وجه (حسين) ، وانكمش فى مقعده ، و (مراد صقر) يواصل فى غضب :

ـ إننا لسنا ساحة قضاء يا (حسين) ، ولسنا فى مجال التلاعب بالقوانين .. أنسيت انك تمتلك من الأرض ما يتجاوز المسموح به ، طبقا لتعديلات قانون الإصلاح الزراعى ؟ .. أتحب أن تصادر الدولة تلك الزيادة من (عبد الحميد) ؟ .. بل يمكننى أن أدفعهم ، بتقرير واحد ، إلى مصادرة أرضه كلها .. أى أرضك التى سجلتها باسمه يا رجل .. أيروق لك أن أفعل هذا ؟

انتفض قلب (حسين) فى هلع ..

لم يدر كيف علم (مراد صقر) بكل هذا ؟! ..

كيف فهم اللعبة كلها ؟ ..

وكيف سيتصرف هو ؟ ..

إنه لا يستطيع منح (فؤاد) نصيب (ناهد) من الأرض ، وإلا كان هذا

إعلانا بضعف سطوته وبدء سقوطها ..

ولا يستطيع ـ فى الوقت ذاته ـ رفض هذا ، خوفا على منصبه ، الذى يمنحه كل هذه السطوة ..

وارتبك عقله ، وهو يبحث عن الحل ، فى حين تصاعد صوت (مراد صقر) جاذا صارما ، وهو يقول :

ـ لا تلجأ إلى هذه الأساليب الساذجة السخيفة مرة أخرى ، وأريد منك أن تحلّ هذه المشكلة فى أسبوع واحد لا أكثر .. هل تفهم ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا ، وتمتم فى شحوب :

ـ أفهم يا سيدى .. أفهم .

أشار إليه (مراد صقر) بالانصراف ، فأسرع يغادر مكتبه ، واتجه إلى حجرته ، وجلس فيها شاحبا ، ضائعا ..

كان يبحث عن حل يمنحه الفوزين فى آن واحد ، بحيث يحتفظ بأرضه وثروته معا ..

ولكن عقله لم يمنحه هذا الحل أبدا ..

وفجأة استعاد هذا العقل فكرته المجنونة ..

وفى هذه اللحظة بالذات ، بدت له كأفضل فكرة فى الدنيا كلها ، فنهض فى حركة حادة ، واندفع مغادرا المبنى كله ، ومنطلقا إلى آخر مكان يرغب أى مصرى فى الاقتراب منه ، فى هذا العصر بالذات ..

إلى السجن ..

السجن الحربى .

* * *

١٤ ـ قواعد اللعبة ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بنصف الساعة على الأقل ، عندما عاد (عمر) إلى منزله ، ودفع بابه فى تراخ ، ثم أغلقه خلفه فى هدوء ، وسار إلى حجرة نومه ، وأشعل مصباحها ، و ..

وتوقف مبهوتا ..

توقف لحظة واحدة ، وهو يتطلع إلى (نعيمة) ، التى انكمشت وسط الفراش الكبير ، وهى تضمّ إليها ابنتها (نادرة) ، وتتطلّع إليه بعين كسيرة ، تحمل استسلامًا واستكانة ، لم يعتدهما منها ، ثم واصل تحرّكه نحو الفراش ، مغمغما فى برود :

ـ مساء الخير .

أجابته (نعيمة) :

ـ مساء الخير يا (عمر) .. أأعد لك طعام العشاء ؟

أجابها وهو يبدل ثيابه :

ـ لقد تناولت عشائى منذ ساعتين .

كانت تعلم أين تناول العشاء ، ولكنها لم تشر إلى هذا ، وإنما أرقدت ابنتها النائمة على الفراش ، ونهضت تعاونه على استبدال ثيابه فى استكانة ، وهو لا يوليها أدنى اهتمام ، حتى اتجه إلى فراشه ، فوقفت أمامه تتطلّع إليه فى صمت ورجاء ، قبل أن تهمس :

ـ أنا آسفة يا (عمر) .

سألها فى برود :

ـ على ماذا ؟

انحنت نحوه ، مجيبة :

ـ على تركى المنزل ، وطلب الطلاق .

لم يجد ما يقول ، وهى تعتذر له لأول مرة منذ زواجهما ، فلاذ بالصمت ، وهو يتطلع إليها ، مما شجعها على أن تجلس على طرف الفراش المجاور له ، وتقول :

ـ لقد أخبرت (شريفة) (حسين) عن خلافاتنا .

نهض فى توتر ، وهو يقول فى حدة :

ـ وما الذى ينوى شقيقك فعله هذه المرة ؟

أسرعت تقول ، وهى تمس صدره بأصابعها :

ـ لا شىء يا (عمر) .. لقد طلبت منه الا يتدخل هذه المرة .

لم يفهم سر استسلامها الشديد هذا ، فتطلع اليها فى حذر ، دون أن يبدى تعليقا ، وأدهشه أن انهمرت الدموع من عينيها ، وهى تستطرد :

ـ رفضت تدخله فى شدة ، وأخبرته صراحة أنه سبب فشل حياتى الزوجية ، وأننى أرفض تدخله فيها من الآن فصاعدا .

اعتدل وهو يحدق فى وجهها ، ويغمغم فى دهشة :

ـ حقا ؟!

ألقت رأسها على صدره ، وبكت فى حرارة ، وهى تقول :

ـ ليس لى سواك يا (عمر) .. أنت زوجى ، والزوجة تتبع زوجها ، ولو إلى الجحيم .. سامحنى يا (عمر) .. سامحنى حتى على ما فعله بك (حسين) ..

لم يجد مايقوله ، وهو يضمها إلى صدره فى رفق وحذر ، فى حين تابعت هى فى انفعال :

ـ لن أطالبك بتطليق (فاتن) .. ابنة (شاهين الحبروك) .. لن أشير حتى إلى هذا أبدا .. كل ما أطلبه هو أن تغفر لى .

كان الموقف يبدو له عجيبا ، غير متوقع ، فاكتفى بالصمت المطبق ، وهو يتساءل فى أعماقه ..

هل يمكنه حقا أن يغفر ؟ ..

وبقى سؤاله معلقا ..

وبلا جواب ..

★ ★ ★

توقفت سيارة الأميرة (عايدة) ، على بعد مترين فحسب ، من الطائرة الخاصة ، التى يقف أمامها (أكرم) ، وغادرتها وهى تحمل على شفتيها ابتسامة واثقة ساخرة ، ولوحت بكفها ، قائلة :

ـ أهلا (أكرم) .. تبدو متألقا هذا الصباح .

أسرع اليها (أكرم) ، وقبل كفها فى حرارة ، وهو يقول :

ـ جمال الدنيا كلها يذوب أمام جمالك المبهر يا أميرتى .

قالت ضاحكة :

ـ حقا ؟!

لاحظ رنة السخرية فى كلمتها ، إلا أنه لم يهتم بها كثيرا ، فقد كانت السخرية جزءا من شخصيتها ، لا ينفصم عنها ، فاعتدل مشيرا إلى الطائرة ، قائلا :

ـ هيا يا أميرة الأميرات .. الطائرة تنتظر .

ارتكنت بمرفقها الى مقدمة سيارتها ، وهى ترمق الطائرة بنظرة مستهترة ، قائلة :

ـ دعها تنتظر .

لم يرق له أسلوبها هذا الصباح ، ولكنه لم يعترض ، وإنما احتفظ بابتسامته ، وهو يقول :

ـ أتروق لك طائرتى الخاصة ؟

ـ مطت شفتيها قائلة :

ـ الى حد ما .

ثم أخرجت علبة سجائر ذهبية ، التقطت منها سيجارة طويلة ، دستها بين شفتيها الجميلتين ، وهى تستطرد فى سخرية :

- ولكن العجيب أنها لا تبدو لى كطائرة يمكنها عبور المحيط ، إلى (أمريكا) .

أجابها مبتسما ، وهو يشعل سيجارتها بقداحته :

- إنها أقوى مما تتصورين .

أطلقت ضحكة ساخرة خبيثة ، وقالت وهى تنفث دخان سيجارتها فى عمق :

- أتعلم أننى تشاجرت مع (جان) من أجلك ؟

ردد مبتسما :

- حقا ؟!

أومأت برأسها إيجابا ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وهى تقول :

- ولكننى عدت فتصالحت معه أمس .

بدا له الأمر عجيبا ، مما بدأ يبذر فى نفسه بذرة الشك ، فغمغم :

- لماذا ؟

اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول :

- من الأفضل ألا يحرق المرء كل مراكبه .. أليس كذلك ؟

لم يجب هذه المرة ، وإنما تطلع إليها فى قلق واضح ، فأطلقت ضحكة عابثة طويلة ، ردد المطار الخاص الخالى صداها ، قبل أن تقول ساخرة :

- أيدهشك حديثى ؟

أجاب فى تلقائية :

- إلى حد ما .

ضحكت مرة أخرى ، وقالت :

- أنت أيضا تدهشنى ، فيلوح لى أنك لا تصلح لحمل اسم (أكرم) هذا الصباح .

أضيئت فى أعماقه مصابيح الخطر ، وهو يسألها فى حذر :

- أى اسم يصلح لى إذن ؟

تطلعت إليه لحظة فى صرامة ، وهى تجيب :

- (سليمان) .

اتسعت عيناه لحظة ، من فرط المفاجأة ، ثم لم يلبث أن تراجع فى حركة سريعة ، وهو يقول فى حدة :

- إذن فقد كشفت كل شىء .

- ما رأيك ؟ .. هل أصلح للعمل معكم ؟

فوجئت به ينتزع من سترته مسدسا كبيرا ، ويصوبه إليها ، قائلا فى غضب :

- مطلقا ..

ثم أضاف فى صرامة شديدة :

- هيا يا أميرة العهد البائد .. ستدخلين إلى الطائرة ، وستعودين معنا إلى (القاهرة) .. شئت أم أبيت .. هيا .. أسرعى .

ولكن فجأة ظهرت تلك السيارات الضخمة ، من خلف حظيرة الطائرات ، واتجهت إلى حيث الطائرة الخاصة فى سرعة ، وأحاطت بها فى لحظات ، وبرز منها عشرات الرجال ، الذين يحملون المدافع الآلية ، ويصوبونها إلى (أكرم) ، فشحب وجه هذا الأخير ، وألقى مسدسه ، ليرفع يديه مستسلما ..

وهنا ابتسمت (عايدة) فى سخرية ، وربتت على كتف (أكرم) ، قائلة :

- أدركت الآن لماذا تصالحت مع (جان) يا (سليمان) بك ؟ .. المال

المال يصنع الكثير هنا فى (أوروبا) يا صديقى .. ولقد أرسلت برقية إلى (حسين بك البنهاوى) ، أعلنه فيها بفشل لعبته السخيفة .

قال (أكرم) فى غضب :

ـ إنها مجرد جولة .

قالت ساخرة :

ـ ولكنها لم تنته بعد يا صديقى .. لم تنته بعد ..

وجلجلت ضحكتها العابثة مرة أخرى فى المطار ..

* * *

ابتسم (ابراهيم مكى) ابتسامة واسعة ، تجمع ما بين الجذل والسخرية ، وهو يتطلع إلى (حسين) ، فى حجرة قائد السجن الحربى ، وقال فى استهتار :

ـ أهو أنت يا (حسين) بك ؟ .. وأنا الذى تساءلت عمن يجرؤ على زيارتى هنا ، فى ذلك الجحيم .

تجاهل (حسين) هذا الأسلوب الساخر ، وقال فى رصانة :

ـ كيف حالك يا (ابراهيم) ؟ .. انك تبدو فى صحة جيدة ، على الرغم من كل شىء .

هز (إبراهيم) كتفيه ، وقال فى لا مبالاة :

ـ إنه مجرد حبس احتياطى ، فلست متهما ، ولا أحد يرغب فى الحصول على اعترافات خاصة منى ، ولكن ليتك ترى أفراد تنظيم الاخوان المسلمين أراهن أنك ستعجز عن تعرفهم ، بعد ما فعله بهم الزملاء هنا .

ثم أضاف فى خبث :

ـ هذا باستثناء من رفضوا احتمال حفلات المرح هنا ، ففضلوا الرحيل إلى الدار الاخرة ، والذين ....

لم يكن (حسين) يميل إلى سماع هذه الامور ، فقاطعه قائلا :

ـ ألا ترغب فى الخروج من هنا ؟

بتر (إبراهيم) حديثه ، وتطلع إليه لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى سخرية :

ـ أهو عرض بعودتى إلى العمل ؟

عقد (حسين) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ أتتصوّر أنه من الممكن أن تعود إلى عملك ، بعد كل هذا ؟

هتف (إبراهيم) :

ـ أتصوّر ؟!

ثم قهقهه ضاحكا ، على نحو أثار دهشة (حسين) ، قبل أن يستطرد :

ـ من الواضح أنك لا تفهم شيئا من القواعد يا صديقى ، على الرغم من خبرة السنوات الماضية .

سأله (حسين) فى خشونه :

ـ أية قواعد ؟

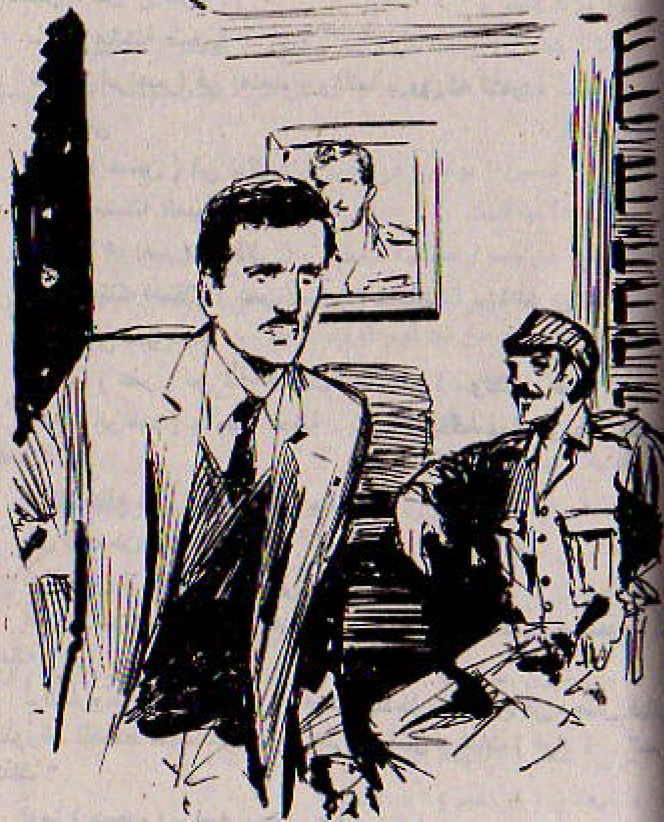
لوّح (إبراهيم) بكفه ، قائلا :

ـ قواعد اللعبة يا رجل .. لعبة السياسة .

ثم اعتدل ، وأضاف وكأنه يلقى محاضرة خاصة :

ـ إنها لعبة شديدة التعقيد يا صديقى ، فالساسة يمقتون أمثالنا ، من ذوى الخبرة ، ولكنهم يحتاجون إليهم فى الوقت ذاته ، وعندما يصيبهم الخوف منا كثيرا ، فإنهم يلقوننا فى السجون ، ولكنهم لا يسيئون معاملتنا أبدا ، انتظارا للحظة التى يبلغ فيها خوفهم من الآخرين ما يفوق خوفهم منا .. عندئذ يلجأون إلينا ، لحمايتهم من هؤلاء الآخرين .

استمع إليه (حسين) فى اهتمام ، على الرغم من ضيقه ، وأدهشه ذلك التحليل الدقيق ، الذى ينطبق أكثر ما ينطبق عليه ، فعلى الرغم من كراهيته لـ (إبراهيم مكى) ، إلا أنه لم يجد أمامه ، عندما تأزمت الأمور ،



ـ وما المقابل المطلوب ؟
تطلع إليه (حسين) لحظة فى صمت ، ثم نهض من مقعده ..

سوى اللجوء إليه ، للاستفادة بعقل الذئب الكامن فى جمجمته ، وبقلب الثعلب ، الذى ينبض فى صدره ..

وفى عصبية ، قال (حسين) :

ـ إننى أحمل لك عرضا سخيا .

استرخى (إبراهيم) فى مقعده ، ووضع ساقا فوق أخرى ، وهو يسأله :

ـ عرض شخصى أم رسمى ؟

أجابه (حسين) :

ـ شخصى تماما .

مط (إبراهيم) شفتيه لحظات ، قبل أن يقول :

ـ حسنا .. فلنستمع لعرضك أولا .

مال (حسين) نحوه ، وقال :

ـ سأخرجك من هنا .

سأله (إبراهيم) فى هدوء :

ـ وهل سأعود إلى عملى ؟

عقد (حسين) حاجبيه فى ضيق ، وأجاب :

ـ أنت تعلم أن إخراجك من هنا ، فى حد ذاته ، مشكلة ضخمة ، وستحتاج إلى وقت وجهد كبيرين ، و ..

قاطعه (إبراهيم) مبتسما :

ـ حسنا .. العرض يتضمن الخروج من هنا فحسب .

ثم مال نحوه ، مستطردا فى حزم :

ـ وما المقابل المطلوب ؟

تطلع إليه (حسين) لحظة فى صمت ، ثم نهض من مقعده ، وابتعد

بضع خطوات ، وتشاغل بالتطلع إلى صورة قديمة ، تزين مكتب قائد السجن ، قبل أن يقول :

- لدى مشكلة ضخمة .

سأله (ابراهيم) فى اهتمام ، وكأنما يروق له الأمر :

- ما هى ؟

أجابه (حسين) فى توتر :

- أنها مشكلة الميراث القديمة .

ابتسم (ابراهيم) ، وقال :

- ألا يمكنك اعتقال (عمر) ، زوج شقيقتك ، مرة أخرى ؟

أجابه فى ضيق :

- ليس (عمر) من أثار المشكلة هذه المرة ، ولكنه (فؤاد) .

رفع (ابراهيم) حاجبيه لحظة ، ثم عاد يخفضهما ، ومطّ شفتيه ، قائلا :

- إنك تدفع ثمن جشعك للقوة والسلطة .

قال (حسين) فى حدة :

- العرض لا يتضمن احتمالى لسخافاتك .

أطلق (ابراهيم) ضحكة قصيرة ، وكأن غضب (حسين) يسعده ، ثم سأله :

- المفروض إذن أن شقيق (فؤاد) يتدخل بنفوذه ، فى مجلس قيادة الثورة ، للضغط عليك ، وإجبارك على الامتثال لرغبات (فؤاد) .. أليس كذلك ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا ، وقال :

- بلى ، ولقد حاولت التلاعب بالموقف ، ولكن (مراد) بك كشف ما فعلت .

سأله (ابراهيم) ، فى اهتمام :

- (مراد صقر) ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا مرة أخرى ، فغمغم (ابراهيم) :

- وكيف حاولت التلاعب ؟ .. لا تقل لى : إنك سجلت الأرض باسم شخص آخر ؟

أشاح (حسين) بوجهه فى ضيق ، قائلا :

- بل هذا ما فعلت .

ابتسم (ابراهيم) ابتسامة ساخرة ، لم يرها (حسين) ، وقال :

- عيبك يا صديقى أنك مباشر أكثر مما ينبغى ، وهذه الأساليب المباشرة تصلح للتعامل مع من تفوقهم قوة ، لا مع من يفوقونك سطوة وقوة .

التفت إليه (حسين) ، وسأله فى اهتمام :

- ماذا يمكننى أن أفعل إذن ؟

أجابه (ابراهيم) بأسلوب خبير :

- ينبغى أن تشغل شقيق (فؤاد) عن التفكير فى أمر أرضك وميراثك .

سأله فى لهفة :

- كيف ؟

رفع (ابراهيم) سبابته أمام وجهه ، وأجاب :

- بأن تكون مشكلاته الشخصية عديدة ، بحيث لا يكون لديه وقت للتفكير فى مشكلات شقيقه .

كرر (حسين) بلهفة أكثر :

- كيف يا (ابراهيم) ؟ .. كيف ؟

تراجع (ابراهيم) فى مقعده بزهو ، وابتسم فى ثقة ، وهو يقول :

- اننى لم أخرج من هنا بعد .

هتف به (حسين) :

ـ ستخرج يا (ابراهيم) .. ستخرج خلال يومين فحسب .

ثم ضرب سطح مكتب المأمور بقبضته ، مستطردا فى حزم :

ـ هذا وعد .

وأسرع يغادر السجن الحربى ، الذى نسى تسجيل هذه المعجزة ، التى لم تشهد مثلها أسواره قط ..

معجزة رجل ، ولد الأمل فى صدره ، فى قلب الجحيم ..

جحيم السجن الحربى .

* * *

١٥ ـ انقـلاب ..

هب النسيم رقيقا عليلا ، فى تلك الأيام الأولى من شهر (مارس) ، واستعدت البراعم لاستقبال الربيع ، الذى اقتربت أيامه الجميلة ، وبدا (مفيد) و (سوسن) ، وهما يسيران جنبا إلى جنب ، إلى جوار كورنيش النيل ، أشبه بزهرتين تفتحتا قبل الأوان ، وفاح منهما عبير الحب ..

وكان قلب (سوسن) ينبض فى انفعال ، و (مفيد) يقول :

ـ هذه هى القصة كلها يا (سوسن) .. قصة (مديحة) ، التى منحتها قلبى وحبى فى صباى ، وفرق بيننا شقيقى فى قسوة ، ففقدتها إلى الأبد .

مضت لحظات ، وهى لا تدرى ماذا تقول ، بعد أن روى لها قصته كلها ، فى صراحة ووضوح ، ثم لم تلبث أن غمغمت فى حذر :

ـ أما زلت تحبها ؟

خفض عينيه ، وهو يجيب فى خفوت :

ـ أكون كاذبا ، لو أجبتك بالنفى يا (سوسن) ، فما زلت أذكر كل لحظة قضيتها مع (مديحة) ، وكل همسة حب بيننا ، ولكن ..

صمت لحظة ، مضت بالنسبة إليها أشبه بدهر كامل ، قبل أن يكمل :

ـ ولكننى أحمل لك شعورا قويا جارفا .

لم ينبس ببنت شفة ، وإن ضايقها أنه لم يصف شعوره هذا بالحب ، وشعرت فى قلبها بشىء من الغيرة ، تجاه (مديحة) ، التى لم تلتق بها أبدا ، وحاولت التغلب بعقلها على مشاعرها هذه ، وهو يتابع :

ـ لم أكن أدرك حقيقة هذا الشعور يا (سوسن) ، أو أدرك قوته ، حتى اختفيت عنى لأربعة أيام كاملة .. لحظتها كدت أصاب بالجنـون ،

اشتياقا لك ، وعرفت كم أصبحت مرتبطا بك ، ولماذا كان يوم الجمعة يبدو بالنسبة لى كئيبا خاويا ؟ .. لقد كان كذلك لأنه اليوم الذى لا أراك فيه .

غمغمت فى خجل :

ـ الأحد هو إجازتى ، ولكن إجازتك أنت يوم الجمعة .

ابتسم قائلا :

ـ لهذا استبدلت إجازتى بالأحد ، لنلتقى يوم الجمعة أيضا .

ضحكت فى مزيج من السعادة والحياء ، وقالت :

ـ لا يمكنك أن تتصور كم كانت سعادتى ، عندما جئت لزيارتى فى منزلى .. أتعلم ماذا قالت عنك أمى ، بعد انصرافك ؟

سألها بابتسامة رقيقة :

ـ ماذا قالت ؟

أجابته بحياء أكثر :

ـ قبلتنى ، وقالت إنك تستحق أن يمرض المرء من أجلك .

ضحكا معا ، ثم تسللت يده إلى كفها ، فارتجفت أصابعها بين أصابعه ، وغمغمت :

ـ إنك لم تخبرنى حتى الآن .. كيف عرفت عنوانى ؟

أجابها مبتسما :

ـ من المتجر .. ادعيت أننى ابن عمك ، وأننى أجهل عنوانكم الجديد فى (طنطا) ، فأخبرونى إياه .

غمغمت فى سعادة :

ـ يالك من مثابر !

استوقفها بغتة ، والتفت إليها ، وهو يقول فى جدية :

ـ (سوسن) .. أيمكنك مساعدتى ، على تجاوز محنتى مع (مديحة) ، وإزالة ذلك الحاجز ، الذى يحول بينى وبينك ؟

صمتت لحظات ، ثم سألته فى حياء وخفوت :

ـ هذا لو أنه هناك أمل فى أن أحل يوما محلها .. فى قلبك .

أمسك كفيها ، وهو يتطلع إليها هامسا :

ـ من يدرى يا (سوسن) ؟ .. من يدرى ؟

ارتجف قلبها ، وهو يردد السؤال نفسه ..

من يدرى ؟

* * *

لأول مرة ، منذ تسلم (مراد صقر) قيادة الجهاز ، حملت ملامحه غضبا واضحا ، وهو يواجه (حسين) فى مكتبه هذا الصباح ، قائلا :

ـ ما الذى يحدث فى هذه الإدارة ؟ .. ما الذى تفعله من خلف ظهرى يا (حسين) ؟

ارتجف (حسين) فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ وما الذى أفعله يا سيدى ؟

لوح (مراد) بذراعه كلها فى غضب ، وهو يقول :

ـ الكثير .. لقد أرسلت (صلاح) فى مهمة شخصية فاشلة إلى (باريس) ، انتهت بإهانة رجلنا (سليمان) هناك ، وإعادته إلى هنا بملابسه الداخلية ، داخل صندوق خاص ، يحمل توقيع الأميرة (عايدة) ، وبتحطيم طائرة خاصة ، اضطررنا إلى دفع ثمنها ، من الميزانية السرية للجهاز ، وبعد كل هذا تتدخل للإفراج عن (ابراهيم مكى) ، فما الذى تعنيه بكل هذا ؟ .. أتظن أن كل هذه الإدارة مجندة لخدمة أغراضك الشخصية ؟

ارتبك (حسين) فى شدة ، وتصبب العرق على جبينه ، وهو يغمغم :

ـ لم أكن أقصد أن ..

قاطعه (مراد) فى حدة :

- وهناك أيضا تلك التقارير السرية ، التى ترسلها إدارتك إلى (جمال عبد الناصر) شخصيًا ، حول شقيق (فؤاد) .. ما الذى تقصده بها ؟

جفف عرقه فى توتر ، وهو يجيب :

- لست أنا من يرسلها يا سيدى .. بل (صلاح) .

انعقد حاجبا (مراد صقر) على نحو مخيف ، وهو يقول فى غضب :

- إنك تلعب ألعابا بالغة الخطورة يا (حسين) ، وأنا أحذرك من عواقبها بشدة .. لقد كدت أصدر أمرا بنقلك إلى مكتبنا فى (أسوان) ، لولا أن طلب منى (جمال) بنفسه التجاوز عن أخطائك هذه المرة .. هذه المرة فقط .

تمتم (حسين) ، غير مصدِّق أنه قد نجا من براثن (مراد صقر) ، على الرغم من غضب هذا الأخير :

- شكرًا لك يا سيدى .. شكرًا لك .

أشار (مراد) بكفه ، هاتفًا :

- هيا .. انصرف .

استدار (حسين) فى سرعة ، وبدا وكأنه سيركض بكل قواه ، ليغادر الحجرة كالصاروخ ، قبل أن تنقلب الأمور مرة أخرى ، لولا أن استوقفه (مراد) بصوته الجهورى :

- (حسين) .

تجمّد فى مكانه ، والتفت مرة أخرى إلى رئيسه ، الذى صاح :

- لا تنس أبدا أننى الرئيس هنا ، ومن المحتم أن أوافق على كل ما يحدث .. هل تفهم ؟

هز رأسه فى قوة ، قائلا :

- أفهم يا سيدى .. أفهم .

وأسرع يغادر حجرة (مراد صقر) ، وقد أدرك أن العاصفة قد مضت فى سلام هذه المرة ، وأن المرحلة القادمة ستكون أكثر دقة .. وأكثر حسمًا ..

* * *

لم تر (ناهد) ، منذ زواجها ، زوجها (فؤاد) أكثر غضبا وثورة ، مما رأته فى ذلك اليوم ، وهو يضرب كل شىء أمامه ، ويصيح فى ردهة المنزل :

- أرأيت ما يفعله شقيقك الحقير ؟ .. أرأيت كيف يلعب ألعابه القذرة ، لحرمانك من ميراث والدك ؟

صاحت به (ناهد) فى غضب :

- لست أسمح لك بوصف أخى بالحقارة ، ولا بوصف أعماله بالـ ..

صرخ فى وجهها :

- تسمحين لى ؟! .. ومن قال إنك تمتلكين الحق فى تنظيم أقوالى وأفعالى ؟ .. لا يا بنة (البنهاوى) .. إنك هنا لست شقيقة (حسين) بك الخطير .. أنت هنا زوجتى فحسب .

صاحت غاضبة :

- وما الذى فعله (حسين) ، لتفعل كل هذا ؟

لوح بذراعيه ، صارخا :

- إنه حقير قذر .. لقد حاول فى البداية تسجيل الأرض باسم رجل آخر ، للتهرب من سداد حق شقيقاته ، وبعدها أخذ يرسل بعض التقارير الزائفة الحقيرة ، لتشويه سمعة أخى فى المجلس ، وإضعاف ناصيته .

شعرت فى أعماقها بشىء م الفخر ؛ لأن شقيقها نجح فى كسر شوكة زوجها ، فرفعت قامتها فى اعتداد ، وهى تقول :

- أنت الذى بدأ الحرب .

صرخ :

ـ حرب ؟! .. اتظنين الحرب قد بدأت بعد ؟ سترين أن شقيقك المحترم لن يلبث أن يخر على ركبتيه طالبا الرحمة ، عندما تبدأ الحرب الحقيقة .

صاحت غاضبة :

ـ ولماذا كل هذا ؟ .. إننى لا أريد الأرض .. سأتركها لأخى عن طيب خاطر .

ثارت ثائرته ، وهو يقول :

ـ بل ستستعيدين ارضك .. ستستعيدينها برغم أنفك .

هتفت :

ـ لقد اصبحت صراعا شخصيا اذن .

اجابها فى عنف :

ـ نعم .. هى كذلك . وسترين ما الذى سيفعله شقيقى بـ (حسين) هذا .. سيحطمه تحطيما .

ثم مال نحوها بحركة حادة ، مستطردا فى شماتة :

ـ ساخبرك بامر أردت ادخاره للوقت المناسب .. اتعلمين ما الذى سيفعله (مراد صقر) بشقيقك (حسين) ؟ .. لقد احتفظ به فى ادارته ، على الرغم منه ، حتى لا يغضب (جمال عبد الناصر) ، ولكنه يسعى الآن للايقاع به فى فخ خاص ، يثير غضب (عبد الحكيم عامر) ، بحيث يضغط (عبد الحكيم) على (جمال) ، ويجبره على ازاحة شقيقك عن الطريق .. وسترين أن لعبة (مراد) بك ستنجح ، ولن يمضى وقت قصير ، حتى يكون شقيقك المتغطرس ضابطا سابقا ، أو ضيفا عزيزا على السجن الحربى .

قهقه ضاحكا فى عصبية ، فى حين اتسعت عينا (ناهد) فى هلع ، وسقط قلبها بين قدميها ، وهى تهتف فى لوعة باسم شقيقها .. باسم (حسين) ..

* * *

انتهت (شريفة) من عملها ، وجففت كفيها بمنشفة المطبخ ، وهى تقول لـ (فاطمة) فى حدة ، ليس لها ما يبررها :

ـ أين (طارق) ؟

اجابتها (فاطمة) فى برود :

ـ مع والده .

قالت (شريفة) فى لهجة استفزازية :

ـ ولماذا لا تحملينه أنت ؟ ..أنسيت أنك هنا لرعاية (حافظ) ، وليس لتكليفه مهمة رعاية ابنك ؟

اجابتها (فاطمة) ، فى شىء من الحدة :

ـ إنه ابنه أيضا .

قالت (شريفة) فى حدة :

ـ ولو .

استدارت (فاطمة) لتواجه (شريفة) بجسدها ، ووضعت كفيها فى وسطها ، وهى تقول :

ـ من يسمعك يتصور أنك خير من يعرف الخطأ والصواب ، يا سيدة الدار

هتفت بها (شريفة) غاضبة :

ـ إننى كذلك بالفعل .

اطلقت (فاطمة) شهقة مستنكرة ، وقالت :

ـ هكذا ؟! .. أخبرينى إذن يا (ست البنات) .. أمن الصواب أن تلتقى ابنة الحسب والنسب خلسة ، بـ (أمجد) بك ، فى حديقة السراى .

شحب وجه (شريفة) فى شدة ، وارتعدت أطرافها ، وزاغ بصرها ، وهى تقول فى اضطراب عنيف :

ـ ماذا ؟ .. ماذا تقولين يا ابنة (عبد الحميد) ؟

رفعت (فاطمة) وسطاها فوق حاجبيها ، وهى تقول :

ـ ابنة العمدة يا (بنهاوية) .. أم أنك نسيت هذا ؟

أغرورقت عينا (شريفة) بدموع القهر والمرارة ، وصاحت بصوت مختنق :

ـ كيف تجروين ؟

أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة شامتة ، وقالت :

ـ أجرؤ على ماذا يا ابنة العفاف والكمال ؟

كاد الأمر يتحول إى مشادة كلامية عنيفة ، لولا أن سمعتا صوت سيارة تتوقف أمام باب الفيلا ، فهتفت (شريفة) فى ارتياع :

ـ (حسين) ؟

تألقت عينا (فاطمة) ، وقالت لـ (شريفة) فى سرعة :

ـ لا تقلقى .. لن أخبره بشىء م هذا .

واندفعت تستقبل (حسين) فى لهفة شديدة ، وهتفت فى حرارة :

ـ مرحب بـ (حسين) بك .. مرحبًا وألف مرحب بك .

أدهشة استقبالها الحافل ، وإن لم يمنحها أدنى اهتمام كالمعتاد ، وهو يسألها :

ـ أين (شريفة) ؟

أجابته وهى تضع على شفتيها ابتسامة واسعة كبيرة :

ـ فى الداخل يابك .. سيسعدها حضورك كثيرا .

ثم أمسكت سترته ، مستطردة فى لهفة :

ـ هلا خلعت سترتك ..سأحتفظ بها على مشجب خاص ، فالجو يميل اليوم إلى الحرارة .

مرة أخرى أدهشته حفاوتها ، وضايقة صوتها الخشن الأجش ، ففضل أن يترك لها سترته ، عن أن يناقشها فى الأمر ، وقال فى خشونة :

ـ حذار أن تتسخ .

برقت عيناها فى ظفر ، وهى تقول :

ـ لا تخش شيئا يا (حسين) بك .. سأضعها فى عينى .

ثم أسرعت بالسترة إلى الداخل ، هاتفة :

ـ عمتى (شريفة) .. عمتى (شريفة) .. لقد وصل (حسين) بك .

جاءت (شريفة) لا ستقبال شقيقها ، فى حين هرعت (فاطمة) بالسترة إلى حجرتها ، وراحت تفتش جيوبها فى لهفة ، حتى عثرت على حافظة (حسين) ، و (حافظ) يسألها فى قلق :

ـ ماذا تفعلين يا (فاطمة) ؟ .. سترة من هذه ؟

فتشت الحافظة فى لهفة أكثر ، وبرقت عيناها فى ظفر ، حينما عثرت على عقد مكتوب ، فأسرعت به إلى زوجها ، وهى تقول :

ـ هذه السترة هى طريقك إلى القوة يازوجى .

ثم أعطته العقد ، قائلة :

ـ اقرأ هذا ، وأخبرنى ما يحتويه .

جرت عيناه على الورقة فى سرعة ، وقال فى دهشة :

ـ إنه عقد بيع قطعة كبيرة من الأرض ، من والدك لـ (حسين) .

ثم رفع عينه إليها ، مستطردًا فى حيرة :

ـ ما هذا يا (فاطمة) ؟

خيل إليه أن بريق عينيها يكاد يضىء الحجرة ، وهى تقول :

ـ هذا طريقنا إلى السيارة يا (حافظ) .. السيارة التى ستمنحك إياها زوجتك .

قبل أن يسألها عما تعنيه ، كانت قد غادرت حجرته ، وغادرت السراى كله ، وأسرعت تعدو حتى منزل والدها ، واقتحمت حجرته ، هاتفة :

ـ خذ يا أبى .. هذا هو أول طريق الخلاص .

ولهثت فى انفعال جارف ، وهى تضيف :

ـ الخلاص من سطوة عائلة (البنهاوى) .

وخفق قلبها فى عنف .

* * *

١٦ ـ بداية السقوط ..

تألقت عينا (إبراهيم مكى) فى ظفر ، وهو ينفث دخان سيجار كوبى فاخر ، فوق مقعد وثير ، فى شقته الجديدة ، الأنيقة ، وابتسم ابتسامة واثقة ، وهو يقول لـ (حسين) :

ـ أرأيت ما فعله شهران فقط ، من التلاعب مع شقيق (فؤاد) ؟ .. هاهى ذى التقارير ، التى ارسلناها باسم (صلاح) وباسمك ، إلى (جمال) تعمل عملها ، وتزعزع موقع الرجل فى مجلس القيادة .

أجابه (حسين) مبتسما :

ـ لم يكن الأمر عسيرا للغاية ، فأخطاء الرجل عديدة بالفعل .. يكفى استيلاؤه على ذلك القصر على النيل ، وعلى بعض مجوهرات أسرة (محمد على) ، وتلك التحف واللوحات ، التى تملأ فيلته الجديدة فى (المعمورة) ، وأنت تعلم أن (جمال) يكره هذه الأفعال ، ويرفض تماما أسلوب القرصنة هذا .

نفث (ابراهيم) دخان سيجارته ، وقال :

ـ من حسن حظنا أنه ليس كل رجال المجلس كـ (جمال) ، وإلا فما وجد أمثالنا عملا فى هذا البلد .

ضحك الاثنان للعبارة ، وهز (حسين) رأسه ، وهو يقول :

ـ إنه رجل شريف ، مافى ذلك شك ، ولكن أفكاره تبدو لى أحيانا شديدة الجنون .. أتعلم أن بعض المعلومات قد وصلت ، عن انسحاب (بريطانيا) من تمويل مشروع (السد العالى) ، فلم يكن من (جمال) الا أن طرح

علينا فكرة تأميم (قناة السويس) ، وطلب منا دراستها ، وإفادته بالتقرير اللازم .

غمغم (إبراهيم) مبهورا :

ـ ياإلهى !!

بدا شاردا بعدها لحظات ، حتى سأله (حسين) :

ـ فيم تفكر ؟

أجابه بنفس الشرود :

ـ فيما يمكن أن تسفر عنه الأمور ، لو أقدم الرجل على تأميم القناة بالفعل .

هز (حسين) كتفيه ، وقال :

ـ وما الذى يمكن أن يحدث ؟ .. بعض الغضب والاحتجاجات ، ثم يقبل العالم الأمر ، وتعود المياه إلى مجاريها .

مط (إبراهيم) شفتيه ، وقال :

ـ لا يارجل .. لن تكون الأمور بهذه البساطة ، فتأميم القناة سيكون أكبر صفعة على وجه (انجلترا) و (فرنسا) ، ولن يقبل (إيدن) بهذا فى (بريطانيا) ، وسيبذل أقصى جهده لاستغلال الموقف ، وإقناع (فرنسا) بمشاركته الهجوم على (مصر) ، وإعادة إحتلالها ، باسم المحافظة على مصالح (أوروبا) ، فى قناة (السويس) .

ضحك (حسين) ، وقال :

ـ لا .. لست أظن الأمر يصل إلى هذا الحد .

ثم جلس على المقعد المقابل لـ (إبراهيم) ، وهو يستطرد فى اهتمام :

ـ ولكن أخبرنى .. هل سنستمر فى لعبة التقارير هذه إلى الأبد ؟

هز (إبراهيم) رأسه نفيا ، وقال :

- كلّا بالطبع .. إننا بهذه التقارير نربك الخصم فحسب ، وبعدها تأتى مرحلة القضاء عليه .

سأله فى لهفة :

- ومتى تأتى هذه المرحلة ؟

سحب (ابراهيم) نفسا عميقا من سيجارته ، وقال :

- مع حل مجلس قيادة الثورة .

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يسأله :

- أتظنهم سيحلّونه بالفعل ؟

أومأ برأسه إيجابا ، وقال :

- نعم .. فى الذكرى الثالثة لقيام الجمهورية ، كما سبق أن أعلنوا ..

تراجع (حسين) متمتما :

- لم أعد أومن كثيرا بما يعلنونه .

ساد الصمت بعض الوقت فى المكان ، وكأنما فرغ كل منهم مما لديه ، حتى قال (ابراهيم) فى هدوء ، لا يخفى اهتمامه :

- كيف حال علاقتك بـ (مراد صقر) هذه الأيام ؟

تنهّد (حسين) ، وقال :

- لست أدرى .. إنه يناصبنى العداء علانية ، ولكننى أشعر أنه يخفى لى الكثير ، فلقد أسند إلىّ مهمة قذرة ، أكره مجرد التفكير فيها ، ولكننى مضطر لتنفيذها ، وإن كنت أخشى عواقبها .

ابتسم (ابراهيم) ، قائلا :

- نفّذها يا رجل ، ولا تخش شيئا ، فاشتراكك مع رجل مثل (مراد صقر) ، فى مهمة قذرة ، يجعل الإطاحة بك أكثر صعوبة .

قال (حسين) فى ضيق :

- ولكن هذه المهمة تتنافى مع أخلاقى وعقائدى .

أطلق (إبراهيم) ضحكة عالية ، تجمع ما بين السخرية والاستهتار ، قبل أن يقول :

- عجبا ! .. ألم تتعلم أن تترك هذه الأشياء خارجا ، وأنت تدخل الجهاز يا رجل ؟

تطلّع إليه (حسين) لحظات فى صمت ، ثم قال :

- أتعلم .. لو أن الأمر بيدى ، لأعدتك فورا إلى منصبك بالجهاز ، فأنت خير من يعمل فى مجالنا يا رجل ، وكم يدهشنى أننا لم نتصادق من قبل .

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة واسعة ، وقال :

- لا تقلق يا صديقى .. سأعود حتمًا يومًا ما .

ونفث دخان سيجاره فى عمق ، وهو يستطرد :

- وربما قريبا .. قريبًا جدًا ..

والتمعت فى عينيه تلك النظرة ، التى طالما أثارت رجفة باردة ، فى جسد (حسين) ..

نظرة الذئب ..

* * *

دخلت (سوسن) منزلها بادية المرح ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة ، وهى تهتف بأمها :

- مساء الخير يا أجمل أم .

طبعت على خد أمها قبلة ، استقبلتها أمها بهمهمة غير مفهومة ، ولكن (سوسن) لم تنتبه إلى ضيق أمها ، وهى تنتقل إلى أبيها ، هاتفة :

- كيف حال أعظم الآباء ؟

همت بالانحناء لتقبيله ، ولكنه أستوقفها بيده فى رفق ، وهو يقول فى حزم ، يحمل فى جنباته بعض الضيق :

- أريد أن أتحدث إليك يا (سوسن) .

انتبهت فى هذه اللحظة فقط ، إلى ذلك الوجوم ، على وجهى والديها ، فتلاشت ابتسامتها ، وهى تجلس إلى جوار والدها ، متمتمة :

- ماذا هناك ؟

أجابها صمت مطبق من والديها ، وهما يتبادلان نظرة باهتة حرجة ، قبل أن تقول والدتها فى ارتباك :

- كيف حال (مفيد) ؟

أدركت - عندئذ - سر التوتر والوجوم ، فتنحنحت فى حرج ، وقالت :

- بخير .. سيأتى لزيارتكما قريبا ، و ..

قاطعها والدها :

- لو أراد زيارتنا لفعل يا (سوسن) .

شحب وجهها ، وهى تقول :

- ما الذى يعنيه هذا القول ؟

بدا أن والدها قد حسم أمره ، وقرر مواجهتها ، وهو يقول فى صرامة ، لم تعتدها منه أبدا :

- اسمعى يا (سوسن) .. عندما حضر (مفيد) لزيارتك هنا ، فهمت سر مرضك وحزنك ، ولم أعارض فى وجوده ، وفى سفركما معا ، مفترضا أنك شابة مهذبة مؤمنة ، لن تخالف تعاليم دينها ، وتقاليد مجتمعها أبدا ، وأنه كذلك شاب مهذب ، من أسرة طيبة ، لم يحاول الالتفاف حول الأمور ، أو العبث بمشاعرك ، ولكن معلوماتى عنه تقول : إنه لايفتقر إلى المال اللازم للزواج ، فلماذا لم يتقدم لخطبتك ، بعد كل هذا الوقت ؟

جف لعابها فى شدة ، حتى أنها وجدت صعوبة فى النطق ، وهى تقول :

- هل أطلب منه هذا ؟

أجابها فى حزم :

- بل تمتنعين عن مقابلته ، لو لم يطلب هو هذا .

شحب وجهها أكثر وأكثر ، وهى تقول :

- أمتنع عن مقابلته ؟!

قال والدها فى غضب واضح :

- نعم يا (سوسن) .. تمتنعين عن مقابلته ، من أجل سمعتك وكرامتك .

واكتسى صوته بصرامة شديدة ، وهو يضيف :

- هيا يا (سوسن) .. أريد وعدا منك بهذا .

انكمشت فى مقعدها فى شدة ، وخيل إليها أن قبضة باردة قاسية تعتصر قلبها ..

كيف تمتنع عن مقابلة (مفيد) ؟ ..

كيف تمتنع عن رؤية الانسان الوحيد ، الذى أحبته فى الدنيا كلها ؟

الموت أفضل لها من هذا ..

وفى حزم ، قال والدها :

- أريد وعدا يا (سوسن) .

خفت صوتها ، واكتسى بدموعها ، وهى تقول :

- امنحنى يوما واحدا يا أبى .

قال فى ضيق :

- وبعدها ؟

انتقلت الدموع من صوتها إلى عينيها ، وهى تقول :

- وبعدها أعدك أن أمتنع عن مقابلة (مفيد) ، لو لم يتقدم لطلب يدى ..

وتركت دموعها تنهمر فى غزارة ..

★ ★ ★

شعرت (توحيدة) فى ذلك المساء ، أن زوجها (عبد الحكيم) ليس

على ما يرام ، منذ عاد إلى منزله ، إذ تفادى التحدث إليها طوال الوقت ، وانتحى ركنا من شرفة المنزل ، يدخن سجائره واحدة بعد الأخرى ، وينفث الدخان فى قوة ، وهو يتطلع إلى الحقول الواسعة ، التى أضاءها القمر ، فبدت كعيدان من الفضة ، تتمايل مع هبات النسيم ، فانتظرت (توحيدة) حتى أطعمت طفلها (عماد) ، وأرضعت (وحيد) ، ثم وضعت الصغيرين فى فراشهما ، وذهبت إلى زوجها فى الشرفة ، وسألته :

- ماذا بك يا (عبده) ؟

تطلع إليها لحظة فى صمت ، ثم نفث دخان سيجارته ، وقال وهو يعاود التطلع إلى الحقول :

- أمر ما يقلقنى .

جذبت مقعدا ، وجلست إلى جواره ، قائلة :

- أخبرنى ما يقلقك .. إننى زوجتك .

جذب آخر أنفاس سيجارته ، وألقاها وسط المزروعات ، وتطلع لحظات إلى التبغ المشتعل ، قبل أن يقول :

- لست أدرى ما إذا كان الأفضل أن أخبرك به ، أم ..

قالت فى لهفة :

- أخبرنى به يا (عبده) .. لا تتردد .. أنا زوجتك وكاتمة أسرارك .

بدا لحظات وكأنه يدرس الأمر فى عقله جيدا ، ثم التفت إليها ، قائلا :

- أتعديننى - لو أخبرتك - ألا تخبرى (حسين) شيئا عن الأمر ، حتى أتأكد منه ؟

تراجعت مغمغمة فى دهشة :

- وما شأن (حسين) بالأمر ؟

قال فى صرامة :

- أتعديننى ؟

ترددت لحظة ، ثم قالت :

- نعم يا (عبد الحكيم) .. أعدك .

تنهد فى عمق ، وفرك ذقنه براحته ، ثم قال :

- أتعرفين (شوقى) ؟ .. زميل دراستى القديم ، الذى يعمل فى الشهر العقارى .. أتعرفينه ؟

أجابته فى اهتمام :

- نعم أعرفه .. ماذا عنه ؟

تردد لحظة أخرى ، ثم قال :

أخبرنى اليوم أن (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ، كان هناك منذ أسبوعين .. فى الشهر العقارى .

سألته فى دهشة :

- وما الذى كان يفعله هناك ؟

أجابها فى خفوت ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

- كان يسجل أرضا زراعية ، باسم (حافظ) .

تراجعت أكثر ، هاتفة :

- (حافظ) ؟! .. وهل يمتلك (عبد الحميد) أرضا زراعية ، سوى تلك القراريط ، التى منحه إياها (حسين) ، ليمكنه الترشيح للعمودية ؟

تلفت (عبد الحكيم) حوله فى قلق ، وقال :

- لست أقصد هذه القراريط المحدودة ، فقد كان يسجل أرض (البنهاوى) كلها .. مائتى فدان دفعة واحدة .

صاحت فى ذعر :

- ماذا ؟!

هتف بها :

ـ لا ترفعى صوتك .
خفضت صوتها ، وهى تقول فى انفعال :
ـ ومن أين لـ (عبد الحميد) بأرض أبى ؟ ..
هز كتفيه ، وقال :
ـ لست أدرى .. سأتأكد من الأمر غدا .
قالت فى حدة ، وهى تهز رأسها فى قوة :
ـ ستجد أن صديقك هذا واهما حتما .. من المستحيل أن تصل أرضنا إلى (عبد الحميد) ! . مستحيل !
ولكن قلبها كان ينبض فى عنف ..
وفى خوف ..

★ ★ ★

تضرج وجه (سوسن) بحمرة خجل قانية ، وانخفضت عيناها فى حياء ، وهى تقول لـ (مفيد) ، الذى يستمع إليها فى انتباه :
ـ هذا ما قاله والدى بالضبط .. أقسم لك إننى لم ..
قاطعها بلمسة حانية من أصابعه ، وهو يقول :
ـ لا تقسمى .
ثم ابتسم فى حب ، مستطردا :
ـ أظن أنه لم يعد أمامنا سوى أن ننفذ رغبة والدك .. أليس كذلك ؟
سألته فى انفعال :
ـ ماذا تعنى ؟
ابتسم قائلا :
ـ وما الذى تتصورين أننى أعنيه ؟ .. أن أتقدم لطلب يدك من والدك بالطبع .

لم تصدق أذنيها ، وهو يستقبل الأمر بهذه البساطة :
لم تصدق نفسها ، حتى وجدته يجلس أمام والدها ، فى حجرة الصالون ، فى منزلها بـ (طنطا) ، ويتحدث إليه بصراحته وبساطته المعهودتين ، قائلا :
ـ بالطبع كان هدفى من الارتباط بـ (سوسن) شريفا يا عماه ، ولكننى كنت أنتظر ـ فى الواقع ـ الوقت المناسب للتقدم إليك ، طالبا يدها .
سأله والدها ، وهو يحاول إخفاء فرحته :
ـ وهل حان الوقت المناسب يا ولدى ؟
أدهشه أن أجابه (مفيد) فى صراحة :
ـ لا ياعمى .. لم يحن بعد .
ضربت أم (سوسن) صدرها براحتها ، وهى تستمع إليه من الحجرة المجاورة خلسة ، فى حين شحب وجه (سوسن) ، التى تقف إلى جوار أمها ، وقال الوالد فى دهشة :
ـ ماذا تعنى يا ولدى ؟
أجابه (مفيد) :
ـ أرجو ألا تخطىء فهمى يا عماه ، فصحيح أن أسرتى ثرية ، وأننى أحصل على إيراد جيد ، من ميراث والدى ، ولكن هذا لم يكن فى نظرى أبدا مناسبا للزواج ، وإلا ما بذلت كل هذا الجهد ، للحصول على وظيفة فى (القاهرة) .. الوقت المناسب فى رأيى ، هو عندما أجد وظيفة دائمة مناسبة .
سأله والد (سوسن) فى تردد :
ـ وماذا عن وظيفتك الحالية ؟
أجابه على الفور :
ـ لا .. ليس هذا هو المستقبل ، الذى أطمح إليه .. إننى أواصل البحث

عن وظيفة ، أو عمل له مستقبل مضمون ، وعندما أعثر على هذه الوظيفة ، أو هذا العمل ، سأعتبر نفسى أهلا للزواج من الآنسة (سوسن) .

لم يجد الوالد ما يقوله ، فهمهم بعبارات مبهمة ، ابتسم لها (مفيد) ، وقال :

ـ وأنا أقترح أن نقرأ الفاتحة الآن .

ارتبك الأب ، وهو يقول :

ـ الواقع يا ولدى أن التقاليد تحتم وجود أسرتك ، و ..

قاطعه (مفيد) فى لهجة مهذبة :

ـ إننى أطلب مهلة قصيرة يا عمى .. أطلب شهرا وبضعة أيام ، حتى منتصف يوليو ، وأعدك أن يتم كل شىء على النحو الذى يرضيك ، فى هذا الموعد بالتحديد .

صمت الأب لحظات ، خيّل إليه خلالها أنه يكاد يسمع أنفاس ابنته اللاهثة ، من الحجرة المجاورة ، قبل أن يبتسم ، قائلا فى طيبة واضحة :

ـ لا بأس يا ولدى .. إننى أوافق .

وانطلقت زغرودة أم (سوسن) .

* * *

١٧ ـ التشفى ..

انعقد حاجبا (فؤاد) فى شدة ، وهتف فى غضب ، وهو يواجه (حسين) ، فى ردهة منزله :

ـ أتجد فى نفسك الصفاقة الكافية ، لتأتى إلى هنا ؟

ابتسم (حسين) فى سخرية ، وهتفت (ناهد) فى غضب :

ـ (فؤاد) .. كيف تجرؤ ؟

صاح (فؤاد) ثائرا :

ـ ألا تفهمين ؟ .. كيف يمكننى أن أستقبله هنا ، بعد كل ما فعله بأخى ؟

واجهه (حسين) فى سخرية شديدة ، وهو يقول :

ـ أخوك ؟! .. يبدو أنك لا تتابع أخبار بلدك يا عزيزى (فؤاد) .. إننا فى الخامس والعشرين من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، ألا تدرك ما يعنيه هذا التاريخ ؟

صاح به (فؤاد) :

ـ اخرج من بيتى .

ولكن (حسين) تجاهله ، واتخذ لنفسه أفضل مقاعد المنزل مجلسا ، وهو يتابع :

ـ لقد تم حل مجلس الثورة يا عزيزى ، وتم انتخاب (جمال عبد الناصر) اليوم ، رئيسا للجمهورية المصرية .

صاح (فؤاد) فى ثورة :

ـ أعلم هذا أيها المتعالى ، يا سارق ميراث شقيقاتك ، ولكنك لا تفهم

أن حل مجلس قيادة الثورة لا يعنى ضياع سطوة أفراده .. وستتأكد من هذا ، عندما ترى ما سيفعله بك شقيقى .

أطلق (حسين) ضحكة ساخرة عالية ، وقال :

ـ أتظننى ساذجا إلى هذا الحد يا رجل ؟ .. أتظننى أترك عملى ، وأحضر إلى هنا ، لمجرد أنهم قد حلوا مجلس قيادة الثورة ؟ .. لا ياعزيزى .. الأمر يفوق هذا بكثير .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لقد صدر أمر بتحديد إقامة شقيقك يا (فؤاد) بك .

شهقت (ناهد) ، وامتقع وجه (فؤاد) ، وهو يحدق فى وجه (حسين) فى ذهول ، فى حين تابع (حسين) ، فى تشف واضح :

ـ الرئيس (جمال عبد الناصر) شعر بخطورة ما يفعله شقيقك ، من انتهاكات للمال العام والتقاليد الاجتماعية ، فأصدر أمرا بتحديد إقامته ، وكلفنى (مراد) بك بنفسه تنفيذ هذا الأمر ، ولقد انتهيت من اتخاذ الإجراءات اللازمة منذ قليل ، وأتيت لأبلغك الخبر بنفسى .

ازداد امتقاع وجه (فؤاد) ، وانهار فوق أول مقعد صادفه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين هتفت (ناهد) فى ارتياع :

ـ وهل يمس هذا (فؤاد) ؟

أجابها (حسين) ، وهو يرمق (فؤاد) بنظرة صارمة :

ـ يمكن أن يفصله من الجيش .

اتسعت عينا (فؤاد) فى هلع ، وقال :

ـ لا .. لا يا (حسين) بك .. أرجوك .

رمقه (حسين) بنظرة أخرى صارمة ، وهو يقول :

ـ هذا يتوقف عليك .

ردد (فؤاد) فى انهيار :

ـ أرجوك .

كانت شماتة (حسين) واضحة جلية ، وهو ينهض قائلا :

ـ اطمئن يا رجل ، ولا تبك هكذا كالنساء .. إننى لن أوذى أبدا زوج شقيقتى .

ردد (فؤاد) ، فى صوت متهدج :

ـ شكرا لك .. شكرا لك .

أضاف (حسين) فى حزم :

ـ لن أوذيه ، ما دمت راضيا عنه ، ومادام لا يتدخل فيما لا يعنيه .

ثم ألقى نظرة على (ناهد) ، وأضاف :

ـ ويسعد شقيقتى .

ردد (فؤاد) فى انهيار :

ـ سأفعل .. سأفعل كل ما تطلب .

لم يكن (حسين) يتوقع انهيارا سريعا على هذا النحو ، إلا أن ما حدث راق له كثيرا ، فرفع رأسه فى شموخ ، وقال :

ـ وينبغى أن تتعلم الدرس يا صديقى .. من الخطر أن تحاول مقاتلة آل (البنهاوى) .. هل تفهم ؟

وغادر المنزل ، دون كلمة إضافية واحدة ..

★ ★ ★

، ومن الخطأ أن يستغرق وقتا طويلا ، قبل أن يضرب ضربته .. ،

قالها (إبراهيم مكى) فى هدوء ، فابتسم (حسين) ، وقال :

ـ لن يجد ما يكفى من الوقت ، ليستوعب هذا الدرس الأخير .

مال (إبراهيم) نحوه ، وقال :

ـ المهم أن تتعلمه أنت .



لم يكن (حسين) يتوقع انهيارًا سريعًا على هذا النحو ، إلا أن ما حدث راق له كثيرًا ، فرفع رأسه فى شموخ ..

مال (حسين) نحوه بدوره ، وهو يسأله :

ـ كيف ؟

سأله (إبراهيم) :

ـ هل سجلت كل أحاديثك مع (مراد صقر) ، كما طلبت منك ؟

أجابه (حسين) :

ـ نعم .. سجلتها كلها ، دون أن يشعر (مراد) بك بهذا ، ولكن لماذا طلبت منى ذلك ؟

تراجع (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ لأن (مراد صقر) ليس رجلا سهلا ، وهو لا يغفر لأحد قط ، والمهمة التى . كلفك إياها قذرة بالفعل ، ولا تشبه ـ من قريب أو بعيد ـ الأعمال المألوفة فى عالمنا .. ثم إن تلك الممثلة ، التى تدور حولها المهمة ، قريبة للغاية من (عبد الحكيم عامر) شخصيًا ، وهذا يدعو للشك .

سأله (حسين) فى قلق :

ـ ما الذى تتصور أنه يسعى إليه ؟

هز (إبراهيم) رأسه ، وقال :

ـ لست أدرى ، ولكن ينبغى أن تتخذ جانب الحذر .

أومأ (حسين) برأسه ، مغمغما :

ـ بالطبع .

ثم تطلع إلى (إبراهيم) فى إعجاب ، وهو يتراجع فى مقعده بدوره ، وقال :

ـ من العجيب أن أصبحنا بكل هذا القرب يا (إبراهيم) ، بعد كل ماحدث بيننا فى الماضى .

ابتسم (إبراهيم) فى خبث ، وهو يقول :

ـ لست أذكر الماضى عادة .. كل ما أراه هو المستقبل فحسب .

قفزت فجأة عبارة قديمة إلى رأس (حسين) ، وهو يجلس هكذا أمام (إبراهيم) ، فى شقته هو فى (جاردن سيتى) .. تلك الشقة التى انتزعها منه (إبراهيم) يوما ، ثم استعادها هو منه ، عندما اعتقله ..

عبارة قالتها الأميرة (عايدة) ، فى نفس الشقة ..

قالت : أن (إبراهيم) لا يسعى لتدميره ، بل للسيطرة عليه ..

والآن يسأل نفسه السؤال ذاته ، ولكن على نحو يناسب الموقف الحالى ..

هل يسعى (إبراهيم) لخدمته ؟ ..

أم للسيطرة عليه ؟ ..

دار السؤال فى رأسه لحظات ، ثم لم يلبث أن طرحه جانبا ، وصورة (عايدة) تحتل المكان الأكبر فى ذهنه ، قبل أن يقول فى اهتمام :

ـ أتذكر (عايدة) ؟

أجابه (إبراهيم) فى هدوء ، دون أن يلتفت إليه :

ـ الأميرة (عايدة) ؟! .. إننى أذكرها بالطبع .. ما الذى جعلك تتذكرها الآن ؟

قال (حسين) ، والضيق يبدو واضحا فى نبراته :

ـ لقد حاولت إعادتها لـ (مصر) ، انتقاما منها ، ولكننى فشلت .

التفت إليه (إبراهيم) فى اهتمام ، وهو يقول :

ـ وكيف حاولت هذا ؟

شرح له (حسين) الخطة كلها ، التى نفذها (صلاح) ، واستمع إليه (إبراهيم) جيدًا ، ثم ابتسم قائلًا :

ـ يا للعجب ! .. إنك تلجأ إلى الأساليب المباشرة ، عندما تدعو الحاجة إلى التلاعب ، ثم تدعو إلى التلاعب ، عندما يحتاج الأمر إلى عمل مباشر .

سأله (حسين) فى اهتمام بالغ :

ـ ماذا تعنى ؟

هم (إبراهيم) بشرح خطته ، عندما ارتفع رنين جرس الباب ، فهتف (حسين) بخادمه فى توتر :

ـ افتح الباب .

ثم التفت إلى (إبراهيم) يكرر :

ـ هيا .. أخبرنى ماذا تعنى ؟

ولكن (إبراهيم) تطلع إلى القادم ، وغمغم :

ـ أظننا سنضطر لتأجيل هذا لما بعد .

التفت (حسين) إلى القادم ، وهتف فى سعادة حقيقية :

ـ (مفيد) .. أهلا بك يا شقيقى العزيز .

نهض يصافح (مفيد) .. ويعانقه فى حرارة ، ثم قدمه إلى (إبراهيم) ، قائلا :

ـ شقيقى (مفيد) .. لقد تقابلتما من قبل .. أليس كذلك ؟

ابتسم (إبراهيم) فى غموض ، وقال :

ـ بلى .

فى حين تطلع (مفيد) إلى (إبراهيم) ، فى مزيج من الدهشة والحيرة ..

كان يذكره بالطبع ..

يذكر ذلك اليوم ، الذى أتى فيه (إبراهيم) إلى السراى ، ليعتقل (حسين) ووالده ..

واليوم الذى أتى لتقديم العزاء فى وفاة الحاج (محمد البنهاوى) ..

وللمرة الثانية ، يسأل نفسه ، عن سر العلاقة التى تربط (حسين) بـ (إبراهيم مكى) ..

وللمرة الثانية أيضا ، لا يُعلن تساؤله هذا ، بل يصافح (ابراهيم) فى هدوء ، مغمغمًا :

ـ نعم .. لقد التقينا من قبل .

دعاه (حسين) للجلوس ، وهو يقول فى حماس :

ـ ستتناول طعام الغداء معى بالطبع .

غمغم (مفيد) :

ـ لا بأس .

أما (إبراهيم) ، فقد ابتسم بنفس الغموض ، وهو يسأل (مفيد) :

ـ أما زلت تمثّل جبهة المعارضة فى الأسرة ؟

هزّ (مفيد) كتفيه ، وقال :

ـ لا .. لم يعد هناك ما يدعو للمعارضة ، فكل شىء يسير على ما يرام ، إلى حد كبير ، إعلان الحياد الإيجابى ، وانسحاب الانجليز من مبنى البحرية فى (بور سعيد) ، كآخر موطئ لهم فى (مصر) ، وحل مجلس قيادة الثورة ، وانتخاب الرئيس (جمال عبد الناصر) ، والسير قدمًا فى مشروع السد العالى .. كلها أمور تُبشر بالخير ، فيما عدا ..

بتر عبارته بغتة ، فسأله (إبراهيم) فى اهتمام :

ـ فيما عدا ماذا ؟ .

تردد لحظة ، ثم اندفع قائلا :

ـ فيما عدا تلك الترقيات الاستثنائية ، لـ (عبد الحكيم عامر) ، و ..

قاطعه (حسين) فى قلق :

ـ لسنا هنا لمناقشة الأمور السياسية .. أليس كذلك ؟

تراجع (مفيد) عن اندفاعه ، وهو يقول :

ـ بلى .. لسنا هنا لذلك .

ربّت (حسين) على ركبة شقيقه ، وسأله فى اهتمام :

ـ كيف حالك ، وكيف حال الجميع فى القرية ؟

أجابه فى اقتضاب :

ـ كلهم بخير ، ولكننى أردت مقابلتك لـ ..

تردد فى ذكر السبب ، فتنحنح (إبراهيم) ، قائلا :

ـ أظن أنه من الأفضل أن أنصرف .

ولكن (مفيد) أسرع يقول :

ـ لا .. الأمر ليس سرًا .

وقبل أن يفقد اندفاعته وسرعته ، تابع :

ـ أريد التقدم لخطبة فتاة .

ابتسم (إبراهيم) ، وتهلّلت أسارير (حسين) ، وهو يقول :

ـ مبارك يا (مفيد) .. مبارك يا شقيقى العزيز .. من هى ؟ .. ابنة من بالقرية ؟ .

أجابه فى سرعة :

ـ إنها ليست من القرية .. بل من (طنطا) ، ووالدها مدرس بمدرسة (الرافعى) الثانوية ، وأمها ربة منزل ، و ..

قاطعه (حسين) ضاحكا :

ـ لا بأس .. لا بأس .. إننى أوافق .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ متى تحب أن نقابل والدها ، لخطبتها ؟

بدا الارتياح على وجه (مفيد) ، وهو يقول :

ـ اليوم السابع من يوليو ، ولقد وعدتها بالتقدم لخطبتها ، قبل منتصف الشهر .

أطلق (حسين) ضحكة مرحة ، وربّت على كتف شقيقه ، هاتفا :

- فليكن .. سنخطبها فى الموعد تماما .

وكانت أول مرة يقوم فيها (حسين) بعمل طيب ..

من وجهة نظر (مفيد) على الأقل ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا الأميرة (عايدة) فى غضب ، وهى تندفع إلى قاعة المعيشة ، فى قصر الفرنسى (جان) ، هاتفة :

- إلى متى تعتبرنى - مجرد صبية عابثة ، لابد من وضعها تحت المراقبة يا (جان) ؟

أجابها صديقها الفرنسى فى حدة :

- ومن قال إننى أعتبرك كذلك ؟ .. هؤلاء الرجال لحراستك ، وليس لمراقبتك .. أنسيت ما حاول المصريون فعله معك ؟ .. ألم يحاولوا اختطافك سابقا ؟

ضربت مسند المقعد بقبضتها ، وهى تهتف غاضبة :

- وهل قررت أن تضعنى فى سجن داخلى ، حتى لا يمكنهم نقلى إلى سجن خارجى .

كرر فى صرامة :

- هؤلاء الرجال لحمايتك .

زفرت فى غضب ، ولوحت بذراعها ، هاتفة :

- ولكنك تحيطنى بحراسة تفوق ما يحيط بـ (ديجول) نفسه .. المصريون لن يجندوا جيشا لاختطافى .

قال فى حدة :

- من يدرى ؟

لوحت فى وجهه بسبابتها ، وهى تقول فى صرامة :

- اسمع يا (جان) .. إننى أرفض أسلوبك هذا ، حتى ولو كان الهدف

هو حمايتى وحراستى ، ولن أقبل بعد اليوم بتلك الفرقة المسلحة ، التى تتبعنى أينما ذهبت ، وسأكتفى بحارس واحد ، أو أغادر هذا المكان بغير رجعة .

قال فى غضب :

- أتهددينني ؟

قالت فى حدة :

- نعم .. أهددك .

مضت لحظة صارمة ، وكلاهما يتطلع إلى عينى الآخر فى غضب ، ثم لم يلبث (جان) أن قال فى عصبية :

- فليكن يا (عايدة) .. سنكتفى بحارس واحد ، ولكنك ستتحملين نتائج مايمكن أن يحدث .

أسعدها انتصارها هذا ، فرفعت أنفها فى شموخ ، وهى تقول فى صلابة :

- اتفقنا .

ولم تكن تدرى لحظتها ، أن هذا الانتصار القصير هو بداية هزيمة مفجعة ، لن تلبث أن تورثها الندم ..

أشد الندم .

* * *

١٨ - الانبهار ..

من المؤكد أن كل من عرف (حسين البنهاوى) سيصاب بحيرة بالغة ، وهو يحاول تحليل شخصيته ، بعد ما حدث فى ذلك اليوم ، الذى تمت فيه خطبة (مفيد)و (سوسن) ..

لقد التقى بوالد (سوسن) ، قبل هذا بأربعة أيام ، وكان ودودا بشوشا طيلة الوقت ، ووافق على كل مطالب الرجل دون اعتراض ، بل وأضاف استعداده لتحمّل كل نفقات حفل الخطبة ، كهدية شخصية منه للعروس ..

وشعر (مفيد) بامتنان شديد لشقيقه ، فى ذلك اليوم ، وفى يوم الخطبة ، وإن أدهشه ذلك الجانب ، الذى لم ينتبه إليه من قبل ، فى شخصية (حسين) ..

كان شقيقه سخيًا ، كريما ، يحمل لأسرته ولاسم (البنهاوى) ، كل الفخر والاعتزاز ، ولا يتردد فى منحهم كل ما يمكنه من سعادة ، ولكن بشرط واحد ..

ألا يتعارض هذا مع تقدمه وطموحه ..

وكان يميل كثيرا إلى الزهو ، وإلى استعراض القوة ..

وهذا مابدا واضحا فى يوم الخطبة ..

لقد اكتظ منزل (سوسن) بباقات الورود الجميلة ، التى تحمل كل منها بطاقة أنيقة ، باسم واحد من الرجال ، التى ترتجف لذكرهم القلوب ، فى ذلك العهد ، حتى أن أم (سوسن) قررت جمع كل هذه البطاقات ، والاحتفاظ بها ، لعرضها على الأقارب والمعارف فيما بعد ، والتباهى بذلك النسب المشرف ، على حد ظنها ..

ولقد ازدان الطريق كله بالمصابيح ، وحضر (حسين) مع (صلاح) و (أمجد) ، فى سيارة سوداء كبيرة ، احتبست لها الأنفاس فى رهبة ، وحضر بعده كل أفراد عائلة (البنهاوى) ، وعلى الأخص أزواج نساء العائلة ..

حتى (عمر) ..

لم يكن حضوره خوفا من (حسين) هذه المرة ، وإنما حبًا لـ (مفيد) ، الذى يصعب أن يكرهه أى شخص ممن يعرفونه ، لدماثة خلقه ، وحسن معاشرته للجميع ..

ولم يتخلف كالمعتاد سوى (حافظ) و (فاطمة) ..

و (عبد الحميد) ..

والعجيب أن (مفيد) لم ينتبه إلى غيابهم هذه المرة ، أو أنه لم يشأ إفساد ليلة خطبته ، بالسؤال عن شقيقه وزوجته ، والإصرار على حضورهما ، واكتفى بطبع قبلة على خد (طارق) ، الذى حملته عمته (شريفة) فى زهو ، وكأنها تحمل ابنها ..

وامتلأت نفس والد (سوسن) بالفخر والسعادة ، وهو يستقبل أنسباءه الجدد ، وإن لم تبلغ سعادته ربع سعادة (سوسن) نفسها ، التى حظيت ، فى هذه الليلة بكل ما تحلم به ..

فازت بـ (مفيد) ..

وبعائلة تحسدها عليها كل فتيات الحى ..

ووسط حفل الخطبة ، بكل ما شمله من مرح وسعادة ، مال (فؤاد) على أذن (ناهد) ، وهمس فى شىء من العصبية :

ـ ماذا أصاب شقيقك الليلة ؟ .. إنه يبدو سعيدا هاشا باشا ، على نحو لم أعهده فيه قط .

أجابته فى صوت يحمل رنة غضب وعتاب :

ـ (حسين) حنون ، وهو يحب (مفيد) ،

قال ساخرا :

- حنون ويحب (مفيد) ؟! .. أواثقة أنت من أنك تتحدثين عن (حسين البنهاوى) ؟

انعقد حاجباها فى ضيق ، وقالت :

- اصمت يا (فؤاد) ، ودع الليلة تمضى على خير .

تجاهل عبارتها ، وهو يتابع ، بنفس السخرية المريرة :

- أليس (حسين) هذا هو من حرم (مفيد) من حبيبته (مديحة) فيما مضى ؟

أرادت أن تتجاهل قوله ، ولكنها وجدت نفسها تقول فى حدة :

- كان يفعل ما يراه صوابا .

قال فى صوت مرتفع :

- حقا ؟!

ثم خفض صوته ، مستطردا :

- أينطبق هذا أيضا على ما فعله بالعمدة السابق ، ومأمور الناحية ، و ..

قاطعته فى عصبية :

- كفى يا (فؤاد) .. قلت لك لا تفسد الليلة .. وعلى أية حال ، سأتركك وحدك هنا .

وابتعدت عنه فى ضيق ، واختلطت بمعازيم الحفل ، وهى تلقى نظرة بعيدة على (نعيمة) و (عمر) ، قبل أن تتابع بعض الأغنيات المرحة ، التى ينطلق بها شباب الحى ..

وفى هذه اللحظة كان (عمر) يقول لـ (نعيمة) :

- ابن حلال هو شقيقك (مفيد) هذا .. إنه يختلف عنكم جميعا .

سألته مبتسمة :

- فيم ؟

أجابها فى صراحة مباشرة :

- إنه يحب الحق .

ضايقها أن يشير إلى هذا الأمر ، فى مناسبة جميلة كهذه ، فغمغمت :

- آه .. ربما .

قال فى صرامة :

- ليس ربما .. إنه بالفعل يختلف عنكم جميعا ، فى هذه النقطة .

قالت فى توتر وضيق :

- حسنا .. حسنا يا (عمر) .. أنت على حق .

وقررت ألا تناقشه فى الأمر ، حفاظا على جو المكان ، فالتفتت إلى شقيقتها (شريفة) ، التى تقف إلى جوارها ، وغمغمت :

- (مفيد) متألق كالبدر الليلة .. أليس كذلك ؟

أومأت (شريفة) برأسها إيجابا ، وإن لم تسمع حرفا واحدا ، مما نطقت به أختها ، فقد كان قلبها متعلقا بعينيها ، اللتين تختلسان النظر طوال الوقت إلى عينى (أمجد) ، وتتبادلان معه حديث لوعة طويل ..

إنهما لم يلتقيا ، منذ ذلك اليوم ، الذى واجهتها فيه (فاطمة) بمعرفة أمرها ..

والشوق يلهب قلبها إليه ..

صورته لا تفارق خيالها قط ..

قلبها ينبض لهفة إليه ..

ثم إنها تجهل ما فعل ، منذ آخر لقاء لهما ..

هل تحدث مع (حسين) مرة أخرى ، بشأن زواجهما ؟

أم أنه خشى مواجهته ، واكتفى بكتمان حبهما فى قلبه ، والتلظى بنيران شوقهما الملتهبة ؟ ..

وهو أيضا كان يلتهب شوقا إليها ..

ولكنه لم يكن يجد الوقت المناسب للقائها ، والتحدث معها ، أو لمفاتحة شقيقها مرة أخرى ، فى شأن زواجهما ..

وها هو ذا ، يرتجف فى لوعة ولهفة إليها ، وهى تقف على قيد أمتار منه ، دون أن يملك إلا تبادل النظرات معها ..

تلك النظرات التى انتبه إليها (صلاح) ، وتابعها بدوره خلسة ، وهو يدرسها فى خبث ..

الآن أدرك أنه توجد علاقة ما ، بين (أمجد) وشقيقة (حسين) ..

وكالمعتاد ، اختزن هذه المعلومة فى أعماقه ، ليرجع إليها وقت الحاجة ، والتفت إلى رئيسه (حسين) ، الذى بدا منهمكا فى حديث باسم مع والد (سوسن) ، وهو يقول له فى حماس :

ـ عام واحد يكفى للخطبة .. لا يوجد ما يدعو للانتظار أكثر من هذا ، سندفع المهر الذى يليق بمقام العروس ، ويمكنهما الإقامة فى السراى ، أو هنا فى (طنطا) ، أو حتى فى (القاهرة) لو أرادا .. سأحضر لهما شقة مناسبة ، فى أى مكان يرغبانه .

غمغم والد (سوسن) :

ـ على بركة الله .. على بركة الله .

وإلى جوارهما ، مالت (توحيدة) على أذن (عبد الحكيم) ، هامسة :

ـ هل نخبره ؟

لكزها زوجها بمرفقه ، قائلا فى حزم :

ـ الموقف لا يناسب هذا .

همست فى انفعال :

ـ وماذا سننتظر ؟ .. أنصمت حتى نجد الأرض فى يد (فاطمة) ، ابنة خادمنا ؟

أجابها فى صرامة معاتبة :

ـ لقد انتظرنا طويلا بالفعل ، ولن يضيرك انتظار يوم آخر ، ثم إن (فاطمة) ابنة العمدة الآن .

هتفت مستنكرة :

ـ عمدة ؟! .. عمدة العار والندامة .. أنسيت أن (حسين) هو الذى ..

قاطعها فى صرامة :

ـ كفى .. ليس هذا وقت الحديث عن ذلك .

صمتت على الرغم منها ، وهى تشعر بالكثير من الغيظ فى أعماقها ، واكتفت بمصمصة شفتيها ، كل لحظة وأخرى ، والتطلع إلى شقيقها (مفيد) ، وهو يجلس إلى جوار (سوسن) ، وكلاهما يحمل على وجهه ابتسامة كبيرة سعيدة ..

وكلاهما شارد عن الحفل ..

كان هو يسترجع ذكرياته كلها ، منذ كان طفلا بالقرية ، وحتى هذه اللحظة ..

ذكريات الطفولة ، والصبا ، والشباب ..

تذكر والده ، بهيبته ووقاره ..

ثم تذكر لحظة اقتحام (إبراهيم مكى) للسراى ، واعتقاله والده و (حسين) ..

وفى حيرة ، وعند هذه النقطة ، أدار عينيه بين روّاد الحفل ، بحثا عن (إبراهيم مكى) ، وأدهشه أنه لم يجده ، فتساءل عن السر فى عدم حضوره ، على الرغم من ذلك الود ، الذى رآه بينه وبين شقيقه (حسين) ، فى الآونة الأخيرة ..

لم يكن يدرى أن (حسين) لم يدع (إبراهيم) إلى الحفل عمدا ..

وبناء على رأى (إبراهيم) نفسه ..

لقد رأى (ابراهيم) أنه ليس من المفضل أن تصبح علاقته بـ (حسين) علانية ..

فى الوقت الحاضر على الأقل ..

ولم يفكر (مفيد) طويلا فى هذه النقطة ، فقد انتقل فكره من (ابراهيم) الى (مديحة) ..

بل لقد أزاحت صورة (مديحة) كل صورة أخرى ..

حتى صورة (سوسن) نفسها ..

دون أن يدرى ، وجد نفسه غارقا فى خضم ذكرياته مع (مديحة) ..

ووجد قلبه يخفق فى لوعة وهيام ..

وكان خفقانه يختلف كثيرا ، عن أى خفقان آخر ..

صحيح أنه يشعر نحو (سوسن) بشعور رائع عظيم ، ولكنه أبدا لن يبلغ ذلك الشعور الذى لا يوصف ، والذى كان يربط بينه وبين (مديحة) ..

ترى أين هى الآن ؟ ..

أين (مديحة) ؟

ضبط نفسه غارقا فى ذكرياته معها ، فشعر بالخجل ، وبتأنيب الضمير ، لأنه يجلس إلى جوار (سوسن) ، ويفكر فى (مديحة) ..

وحتى تأنيب الضمير هذا ، كان مزدوجا على نحو عجيب ..

كان مزيجا من الشعور بالخطأ ، لأنه ارتبط بـ (سوسن) ، قبل أن يمحو من ذهنه وقلبه صورة ، (مديحة) ، وشعور بالخجل ، لأنه يضع فى إصبعه الآن دبلة خطبة ، تحمل اسما غير اسم (مديحة) ..

وفى نفس الوقت ، كانت (سوسن) أيضا تفكر فى (مديحة) ..

كانت تسأل نفسها عما اذا كان (مفيد) قد استطاع نسيان (مديحة) حقا ، قبل أن يتقدم لخطبتها ، أم أنه أقدم على هذه الخطبة ، بدافع من

شهامته الريفية ، وأخلاقه المهذبة ، التى تمنعه من الإساءة إليها أمام والديها ، وأمام المجتمع كله ..

كان كل من الاحتمالين يسعدها ، ولكنها كانت تتمنى من أعماق قلبها ، لو كان الاحتمال الأول هو الأكثر صحة ..

وعلى الرغم من كل هذا ، وأيا كانت الاحتمالات ، فهى تحبه ..

تحبه من أعماق قلبها ..

وهى اليوم أسعد مخلوقة فى الدنيا كلها ؛ لأنها أصبحت خطيبته ..

واستغرقتهما الأفكار ، وهما يتابعان حفل الخطبة فى شرود ، حتى سمع (مفيد) شقيقه (حسين) يقول له مبتسما :

ـ سنرحل يا عريس .. لقد تأخر الوقت ، وأظنك ترغب فى البقاء وحدك بعض الوقت .

ارتبك (مفيد) ، وتطلع إلى ساعة يده ، التى أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة ، وغمغم :

ـ لا .. سأرحل معكم .

أمسكت (سوسن) يده ، وقالت فى رجاء :

ـ ألا تبقى قليلا ؟

ابتسم لها فى رقة ، قائلا :

ـ تأخر الوقت بالفعل .. سنلتقى بعد غد بإذن الله .

صافح والديها ، وقبلته أمها ـ لأول مرة ـ فى حنان ، وهبط مع أسرته إلى حيث تنتظرهم سياراتهم ، ورأى (توحيدة) تتناقش مع زوجها فى عصبية ، بصوت هامس ، ورأى زوجها يحاول منعها ، ولكنها تفلت منه ، وتسرع نحو (حسين) ، وتسأله فى لهفة واضحة :

ـ أستعود معنا الى القرية ؟

ابتسم (حسين) ، وقطع محادثته مع زميليه ، والتفت إليها ، قائلا :

ـ لا .. ليس فى هذه الليلة ، فالأوتار مشدودة للغاية فى (القاهرة) ، والأمر يحتاج الى وجودنا هناك

تلاقى حاجباها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ هناك أمر يحتاج إلى عودتك إلى القرية .

ازعجه أسلوبها ، فسألها فى قلق :

ـ أى أمر هذا ؟

فتحت فمها لتخبره بأمر الأرض ، التى سجلها (عبد الحميد) باسم (حافظ) ، لولا أن هتف أحد أقارب (سوسن) :

ـ اسمعتم آخر الأخبار .. لقد سحب البنك الدولى تمويله للسد العالى .

هوى الخبر على رءوس الجميع كالصاعقة ، فقد كان السد العالى ، فى هذه المرحلة ، حلما يراود خيال كل المصريين ، وأملا زرعته الثورة فى النفوس ، حتى بات تحطيمه أشبه بتحطيم أعماق المصريين جميعا ..

وران صمت رهيب على المكان ، قبل أن يقول (حسين) فى حزم :

ـ معذرة أيها السادة ، أظن الأمر يحتاج إلى عودتنا على الفور إلى (القاهرة) .

بدا الضيق على وجه (توحيدة) ، وتبادل (أمجد) مع (شريفة) نظرة متوترة ، وتطلع أقارب (سوسن) إلى (حسين) فى مهابة وانبهار ، ثم دخل هذا الأخير سيارته ، وتبعه (صلاح) و (أمجد) ..

وانطلقت السيارة عائدة إلى (القاهرة) ..

وبات من الواضح أن الأمور ستتطوّر فى سرعة ..

وأن زعيم الثورة سيبدأ معركته الجديدة ..

ومن الواضح أيضا ، فى أعماق (توحيدة) ، أن المواجهة بين (حسين) والعمدة قد تأجلت ..

تأجلت إلى أجل غير مسمى ..

* * *

١٩ ـ اختطاف ..

كانت الأميرة (عايدة) فاتنة ، فى ذلك المساء ، وهى تغادر قصر صديقها الفرنسى الثرى ، متأبطة ذراعه ، ومتألقة كاروع ماتكون ..

وعندما جلست إلى جوار (جان) ، فى الأريكة الخلفية لسيارته الفاخرة ، لم يستطع السائق منع نفسه من إلقاء نظرة مفتونة على الأميرة ، فى مرآة السيارة المواجهة له ، فى نفس الوقت الذى هتف فيه (جان) :

ـ أنت قنبلة هذه الليلة يا أميرتى .

ابتسمت فى زهو ، وهى تقول :

ـ وفى كل ليلة .

أطلق ضحكة قصيرة ، ثم التفت يشير إلى الحارس الخاص ، من الزجاج الخلفى ، فاستقل هذا الأخير سيارته الصغيرة ، وتبع سيارتهما كظلها ، فعقدت (عايدة) حاجبيها الجميلين ، وهى تقول :

ـ أما زلت تصرّ على وجود هذا الخرتيت ؟

أومأ برأسه إيجابا ، وقال :

ـ وجوده ضرورى وحتمى يا عزيزتى ، على الأقل لحماية كل تلك المجوهرات ، التى تتزينين بها ، والتى تكفى لإسالة لعاب ملك اللصوص نفسه .

مطت شفتيها الجميلتين ، متمتمة :

ـ ربما .

لم تكن تبالى كثيرا بتلك المخاوف والمحاذير ، التى تملأ نفس (جان) ، وكانت تتصوّر دائما أن ما فعلته بـ (سليمان) ، فى المحاولة السابقة ،

كان يكفى وحده لتلقين (حسين) درسا قاسيا ، ومنعه من أية محاولات أخرى لاستعادتها فيما بعد ، كما كانت تتصور أن هذا الأسلوب التحايلى هو الأسلوب الوحيد ، الذى يجيده (حسين) ورجاله ..

وفى أعماق نفسها كانت تشعر بهدوء شديد ، والسيارة تقطع الطريق ، من تلك الضاحية الهادئة ، التى بنى فيها (جان) قصره ، إلى قلب (باريس) ..

وفجأة سمعت صرير إطارات السيارة ، واندفع جسدها وجسد (جان) إلى الأمام فى حدة ، فهتفت فى سخط :

ـ احترس أيها السائق .. إنك تفسد زينتى .

اضطرب صوت السائق ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدتى ، ولكن هناك سيارة تعترض الطريق ، و ..

عجز السائق عن إتمام عبارته ، وهو يتطلع فى قلق إلى السيارة ، التى اعترضت طريقه ، والتى قفز خارجها رجلان مسلحان ، اندفعا نحو سيارة (جان) ، وواجها جانبيها فى سرعة ، وأحدهما يصوب مسدسه إلى السائق ، قائلا فى صرامة :

ـ حركة واحدة ، ويتحول جسدك إلى مصفاة .

تجمد السائق فى مكانه ، ورفع ذراعيه عن عجلة القيادة فى ذعر ، فى حين هتفت (عايدة) :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟

أما (جان) ، فقد التفت فى سرعة وتوتر إلى سيارة حارسه الخاص ، التى تتبعهما ، وارتجف جسده فى هلع ، عندما رأى حارسه يغادر السيارة محتقن الوجه ، رافعا ذراعيه فى استسلام ، أمام رجلين آخرين ، يصوبان إليه أسلحتهما أيضا ، وتراجع (جان) منهارا على مقعده ، وهو يردد :

ـ إنهم المصريون .

امتلأت نفس (عايدة) رعبا وارتياعا ، عندما سمعت عبارته ، ولم يلبث رعبها وارتياعها أن بلغا الذروة ، عندما فتح أحدهم الباب المجاور لها ، وأطل منه ، قائلا فى مزيج من السخرية والشماتة :

ـ مساء الخير يا أميرتى .

كادت تسقط فاقدة الوعى ، وهى تتطلع إلى وجهه المألوف ، قبل أن تهتف فى انهيار :

ـ (أكرم) ؟!

جذبها من ذراعها إلى خارج السيارة فى خشونة ، وهو يقول :

ـ بل (سليمان) يا أميرتى .. (سليمان طاهر) .

تمنت لحظتها لو أطلقت صرخة رعب عالية ، أو حاولت الإفلات منه بكل قوة ، ولكن كرامتها الملكية أبت عليها أن تفعل ، وتغلبت على خوفها ، وهى تقول فى حدة :

ـ ما هذا الأسلوب ؟ .. أتحولتم إلى قراصنة ، أيها المصريون ؟

دفعها أمامه فى غلظة ، نحو سيارته ، وهو يقول :

ـ ربما .

كان يعاملها بفظاظة شديدة ، إذ لم يكن قد نسى بعد مافعلته به ، فى المرة السابقة ، عندما جعلت رجال (جان) يجردونه من حلته ، ويرسلونه فى طرد خاص إلى (القاهرة) ..

وكان يرغب فى الانتقام منها ، وإذلالها ، إلى أقصى درجة ..

وعندما بلغ معها سيارته ، دفعها نحوها فى عنف ، ثم لوى ذراعها خلف ظهرها فى قسوة ، جعلتها تصرخ :

ـ أيها الوقح .

ولكنه تجاهل صراخها ، ولوى ذراعها الأخرى خلف ظهرها ، وأحاط معصميها بقيد حديدى ، من تلك القيود التى يستخدمها رجال الشرطة ، فصرخ (جان) من السيارة الأخرى :



ولكنه تجاهل صراخها ، ولوى ذراعها الأخرى خلف ظهرها ، وأحاط معصميها بقيد حديدى ..

ـ أهكذا تعاملون الأميرات ، أيها الـ ..

أخرسته ضربة عنيفة ، من مسدس الرجل الآخر على فكه ، كادت تحطم أسنانه ، وذاق فى حلقه طعم الدم ، فأطبق شفتيه ، ولاذ بالصمت ، وهو يتطلع فى هلع إلى الأميرة (عايدة) ، التى راحت تصرخ فى غضب ، وهى تقاوم قيود معصميها فى ثورة :

ـ كيف تجرؤ أيها الوغد ؟ .. كيف تجرؤ أيها الحقير ؟

جذبها (سليمان) من شعرها فى قسوة ، وهو يقول :

ـ أهكذا تنطق الأميرات .. باللعار .

صرخت :

ـ ستدفع الثمن غاليا .. ستدفع الـ ..

ولكنه كتم صراخها هذه المرة بشريط لاصق قوى ، ألصقه على فمها ، فاتسعت عيناها ، وراحت تهمهم بصرخات مكتومة ، فابتسم هو فى تشف ، وقال :

ـ معذرة يا أميرة الأميرات ، ولكنها أفضل وسيلة لإغلاق فمك الجميل .

ثم حملها فجأة ، مستطردا :

ـ ومن المؤسف أنه يؤلم فى شدة ، عند نزعه .

قاومت بقدميها فى توتر ، ولكنها فوجئت به يفتح حقيبة سيارته ، قائلا :

ـ ما رأيك فى منزلك الجديد أيتها الأميرة ؟

صرخت فى أعماقها بذعر واستنكار ، وقاومت بكل ما تملك من شدة ، ولكنه ألقاها داخل حقيبة السيارة فى غلظة ، وأحاط قدميها بقيد حديدى مماثل ، وهو يقول ، فى لهجة تقطر تشفيا :

ـ إلى اللقاء يا أميرتى .. إلى اللقاء فى (القاهرة) .

وأغلق الحقيبة فى قوة ، ثم اعتدل وعيناه تبرقان فى ظفر ، والتفت إلى رجاله ، وأشار إليهم إشارة خاصة ، فهوى أحدهما على فك الحارس الخاص بلكمة قوية ، ثم اندفع الجميع نحو سيارة (سليمان) ، التى انطلقت على الفور مبتعدة ، وهى تحمل فى حقيبتها الأميرة (عايدة) ..

وساد الصمت والسكون المكان لحظة ، قبل أن ينتفض (جان) فى شدة ، ويخرج منديله من جيبه ؛ ليجفف به الدماء التى تملأ فمه ، ويهتف :

ـ نتركهم يختطفون الأميرة هكذا ؟

ارتجف صوت السائق ، وهو يقول :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل يا سيدى ؟

صاح به :

ـ انطلق يا رجل .. انطلق .

أدار السائق محرك السيارة بالفعل ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ ولكن من الخطر مطاردتهم يا سيدى ، فهم مسلحون ، و ..

صاح به (جان) :

ـ إننا لن نطاردهم يا رجل ، ولكننا لن نقف مكتوفى الأيدى ، فى الوقت ذاته .. هيا اذهب بنا إلى (شارلى) .. إننا نحتاج إلى استشارة خبير فى هذه الأمور ، وبأقصى سرعة .

انطلق السائق فى سرعة ، نحو الهدف الذى حدده سيده ، فى حين واصل (جان) تجفيف الدماء ، التى تسيل من ذلك الجرح ، فى ركن فمه ، وهو يسأل نفسه فى توتر بالغ :

ـ ترى أين سيذهبون بالأميرة ؟ أين ؟ ..

* * *

استمع السفير المصرى إلى (سليمان) فى توتر ، ثم هز رأسه نفيا فى قوة ، وهو يقول :

ـ لا يا سيد (سليمان) .. ما تطالب به يفوق المعقول ، ولن يمكننى الاستجابة لمطلبك ، قبل استشارة الرؤساء فى (القاهرة) .

أجابه (سليمان) فى غلظة :

ـ لا يوجد وقت لاستشارة أحد ، ثم إنها عملية سرية ، وقد لا تجد من سمع بها ، ممن ستتصل بهم ، ولقد قرأت بنفسك الأوراق الرسمية ، التى تأمرك بتسهيل مهمتى ، والتعاون معى ، إلى أقصى حد .

قال السفير فى عصبية :

ـ ولكن هذا يخالف مهام منصبى يا سيد (سليمان) . فعملى هنا يقتصر على التعاملات الدبلوماسية ، والتمثيل السياسى والرسمى ، وهذا يعتمد على تحسين العلاقات ، لا على إفسادها .

هتف (سليمان) فى حدة :

ـ وهل تتصور أن نقل هذه الحقيرة إلى (مصر) ، يفسد العلاقات بينها وبين (فرنسا) ؟ .. إنها مجرد أميرة عربية .. ألا تدرك كيف ينظرون هنا إلى أميرات العرب ؟

صاح السفير :

ـ لا شأن لى بهذا ، ولن يمكننى معاونتك قط .

انعقد حاجبا (سليمان) فى غضب ، وهو يقول :

ـ إنك إذن تضطرنى لذكر ما لم أكن أرغب فى ذكره يا سيدى .

ومال نحو الرجل أكثر ، مستطردا :

ـ هذه العملية تتم ، بناء على أوامر عليا ، من أرفع المستويات القيادية فى (مصر) ، ووقوفك فى طريق نجاحها يعرض منصبك نفسه للخطر .

مضت لحظة صمت ، بعد أن أنهى (سليمان) حديثه القصير ، وهو

يتبادل مع السفير نظرات جافة باردة ، ثم لم يلبث السفير أن استدار إلى مكتبه ، في حركة حادة ، والتقط ورقة من فوقه ، خط فوقها بضع كلمات في سرعة ، ثم اعتدل وهو يناولها إلى الملحق العسكري بالسفارة ، الذي لم ينطق بكلمة واحدة طوال الوقت ، وقال له في لهجة جافة صارمة :

ـ خذ .. إنني أبلغك رسميًا بمرضي ، وبملازمتي الفراش ، وأسند إليك مهام السفير ، اليوم بالذات .

وترك الورقة في يد الملحق العسكري ، وغادر الحجرة محنقا ، فقال (سليمان) في حدة :

ـ هذا أفضل .

سأله الملحق العسكري في اهتمام :

ـ ماذا تطلب بالضبط ؟

أجابه في سرعة :

ـ صندوق دبلوماسي كبير ، سنضع الأميرة داخله ، وننطلق به على الفور إلى المطار ، وهناك تنتظرنا طائرة خاصة ، ستقلع بنا على الفور إلى (القاهرة) .

قال الملحق العسكري في بساطة :

ـ هذا أمر يسهل ـ تدبيره ـ سأعدّ الصندوق ، وستحملكم سيارة السفارة إلى المطار ، و ..

ارتفع رنين الهاتف فجأة ، ليبتر عبارته ، فالتقط سماعته في آلية ، وقال بالفرنسية :

ـ السفارة المصرية .. من المتحدث ؟

أتاه صوت فرنسي ، يقول :

ـ هنا (شارلي دوفان) .. من الشرطة الفرنسية .. أظنكم تحتجزون لديكم مواطنة مصرية ، تحظى بالحماية الفرنسية ، بعد اختطافكم لها ، دون وجه حق .

عقد الملحق العسكري حاجبيه في صرامة ، وقال في غلظة :

ـ لست أفهم ما الذي تعنيه ، أو ما الذي تتحدث عنه يا مسيو (دوفان) ، ولكن أظنك تتجاوز حدودك الرسمية بهذا ، فحتى لو كنا نحتجز رئيسك نفسه ، فلن يمكنك اتخاذ أية إجراءات ؛ لأن أرض السفارة تعد أرضًا مصرية ، و ..

قاطعه (شارلي) :

ـ اطمئن يا سيدي ، فلن اقتحم السفارة ، لإخراج مواطنتك بالقوة ، ولست مستعدًا لتحمل وزر إشعال أزمة دبلوماسية بين بلدينا ، ولكنني أظنك أيضًا غير مستعد ، لتحمل أزمة صحفية هنا .

سأله الملحق في حذر :

ـ ما الذي تعنيه بقولك هذا ؟

أجابه (شارلي) :

ـ الأمر لا يحتاج إلى شرح طويل يا صديقي ، فقط ألق نظرة من نافذة السفارة ، وستجد أنها محاطة بجيش من الصحفيين ، من كل صحف (فرنسا) ، وكلهم مصرون على إثبات ما تفعلون على أرضنا .

امتقع وجه الملحق العسكري ، ورفع عينيه إلى (سليمان) ، وقال في توتر ، وهو يكتم مسماع الهاتف بيده :

ـ لقد أبلغوا الصحافة ، وهم يحاصرون المبنى .

ردد (سليمان) في دهشة :

ـ يحاصرونه .

واتجه في حركة حادة إلى النافذة ، فأزاح ستارتها في عنف ، ولم يكد يفعل ، حتى تألقت في وجهه عشرات من مصابيح التصوير ، واتجهت إليه عدسات الصحفيين ، فتراجع هاتفا :

ـ اللعنة !

ثم التفت إلى الملحق العسكرى ، قائلا فى عصبية :

ـ أسرع بإحضار الصندوق .

تراجع الملحق العسكرى ، وهو يقول :

ـ لا .. لم يعد ذلك سهلا .. ستكون فضيحة رهيبة ، قد تودى إلى عزلى من منصبى .. أنت لا تعرف الصحافة ، وما يمكنها أن تفعله .

صاح (سليمان) فى غضب :

ـ لن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من الصندوق ، أو من السيارة ، ولن ..

قاطعه الملحق فى حدة :

ـ ولكنهم سيلتقطون عشرات الصور ، التى ستملأ صحف الغد ، وسيشعلون الرأى العام الفرنسى ، ولن يمكننا احتمال هذا .

احتقن وجه (سليمان) فى غضب ، وراح جسده يرتجف من فرط الانفعال ..

لم يكن يحتمل أبدا فكرة الهزيمة ، بعد أن بلغ هذه المرحلة ..

لن يحتمل أن تسخر منه الأميرة (عايدة) مرة ثانية ، بعد أن فعل بها كل هذا ..

لن يحتمل هذا قط ..

وبصوت مرتجف ، يموج بالتوتر ، غمغم الملحق العسكرى :

ـ أظن أنه لم يعد لدينا خيار .. سنطلق سراحها .

هتف به (سليمان) :

ـ هل جننت ؟ .. الإفراج عنها الآن هو دليل إدانة أكثر ضخامة .. سيلتقط هذا الجيش الصحفى مئات الصور لها ، وهى تغادر السفارة ، وستصبح تلك الحقيرة بطلة ، فى يوم وليلة .

صاح الملحق العسكرى :

ـ فلتصبح امبراطورة ، لو أن هذا ينهى الأزمة .

لوح (سليمان) بيده فى حدة ، قائلا :

ـ لا .. لابد من وجود حل اخر .

قالها واتجه إلى النافذة فى توتر بالغ ، وراح يحك ذقنه فى عصبية ، وهو يختلس النظر إلى الصحفيين ، من خلف الستار ..

كان فى مأزق حقيقى ..

ولم يكن هناك مخرج مناسب منه ..

وفى أعماقه شعر بالهزيمة ، قبل أن يعترف بها لسانه ..

لن يستطيع الإفلات من هذا الموقف قط ، دون خسارة ..

لن يمكنه هذا إلا بحل واحد ..

بمعجزة ..

لم تكد الكلمة تقفز إلى ذهنه ، حتى اندفع السفير داخل الحجرة شاحب الوجه ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أسمعتم آخر الأخبار ؟

التفت إليه الملحق العسكرى ، هاتفا فى ذعر :

ـ هل أذاعوا الخبر ؟

هتف السفير ، وجسده يرتجف ، من فرط الانفعال :

ـ لقد فعلها (عبد الناصر) .. فعلها .

سأله (سليمان) فى قلق :

ـ ما الذى فعله (عبد الناصر) ؟

تهالك السفير على أول مقعد صادفه ، وهو يجيب :

ـ أممها .. أصدر قرارا جمهوريا ، بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس ، وتحويلها إلى شركة مساهمة مصرية .

اتسعت عينا الملحق العسكرى فى ذهول ، فى حين تألقت عينا (سليمان) فى شدة ، وهتف :

- عظيم .

صاح به السفير :

- ما العظيم فى هذا ؟ .. ألا تعلم ، ما سيجره علينا تأميم القناة من ويلات ؟ .. إنها السقطة التى كانوا ينتظرونها .. سيحتلون (مصر) مرة أخرى ، و ..

قاطعه (سليمان) فى انفعال :

- المهم أن الموقف السياسى ملتهب ، فى الوقت الحالى ، وذلك الجيش من الصحفيين يتوق إلى معرفة رد فعل السفارة المصرية ، على ذلك القرار .

ثم التفت إلى الملحق العسكرى ، مستطردا فى حماس :

- هيا .. أحضر الصندوق الدبلوماسى بسرعة ، ثم اخرج لمواجهة هؤلاء الفرنسيين ، وقل لهم أى شىء يروق لك ، بخصوص قرار التأميم .

سأله الرجل شاحب الوجه :

- ماذا أقول ؟

أجابه فى انفعال :

- أى شىء يخطر ببالك ، تأييدا للقرار .. قل : إنه جاء لمصلحة (مصر) ، ولحتمية الظروف .. أى شىء .

ثم تألقت عيناه أكثر ، وهو يستطرد :

- هذه هى المعجزة ، التى كنت أنتظرها .. المعجزة التى ستبعد كل الأنظار عن أميرتنا المصونة .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يضيف فى تشف :

- وتعيدها إلى (القاهرة) .

وكان على حق .

* * *

٢٠ - القرار ..

هز قرار تأميم قناة السويس (مصر) ، من أقصاها إلى أقصاها ، بل وارتجت له الأوساط السياسية فى العالم كله ، وكان أبرز مظاهر ذلك الارتجاج ، الاحتجاج البريطانى العنيف على الموقف ، والرفض الفرنسى الشديد له ..

وبات من الواضح أن الأمور تقترب من حافة البركان ..

كل هذا ، فى اليوم التالى مباشرة للقرار ..

فى ذلك اليوم ، السابع والعشرين من يوليو ، عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، كانت (مصر) كلها تتحدث عن هذا القرار ..

وعن عواقبه ..

وفى نشاط واضح ، وبخطة محكمة ، كان عدد من الخبراء والمهندسين ، ورجال الأمن ، قد نجح فى احتلال مبنى قناة السويس ، والسيطرة على الموقف تماما ، قبل حتى أن يتم (جمال عبد الناصر) خطبته الشهيرة ، وعلى رأسهم المهندس (محمود يونس) ، زميل (جمال) القديم ، فى التدريس بكلية أركان الحرب ..

وكرد فعل مباشر للموقف ، جمدت (بريطانيا) أرصدة (مصر) لديها ، وكانت تبلغ مائة واثنى عشر مليون جنيه استرلينى ، وتبعتها (أمريكا) فيما بعد ، فجمدت ستين مليون دولار ، من أرصدة (مصر) لديها ..

وانقلب الجهاز ، الذى يعمل به (حسين) رأسا على عقب ، ونشط جميع أفراده لجمع أكبر قدر من المعلومات ، قد يفيد القيادة السياسية ، فى تقييم الموقف ، وحساب ردود الأفعال ..

وفى الصباح الباكر ، استدعى (مراد صقر) (حسين) إلى مكتبه ، وبدا واضح الانفعال ، على نحو يندر حدوثه ، وهو يقول له :

- الموقف مشتعل يا (حسين) ، ونحن نتوقع ردود أفعال عنيفة ، ونحتاج إلى معرفة الموقف الاسرائيلى ، وإدارتك زرعت أحد الرجال هناك ، فى قلب (إسرائيل) .. أليس كذلك ؟

تنحنح (حسين) ، وقال :

- رجلنا لم يستقر هناك بعد يا سيدى ، ولكن الزميل (عبد المحسن فائق) لديه رجل أفضل ، يحيا فى قلب (إسرائيل) ، ويمتلك شركة سياحية هناك .

قال (مراد) فى توتر :

- أرسل إلى الرجلين ، فى طلب كل المعلومات الممكنة ، فالأمر أخطر مما تتصور .

تمتم (حسين) ، وهو يدرك خطورة الموقف بالفعل :

- أعلم هذا يا سيدى .. أعلم هذا .

انصرف عائدا إلى مكتبه ، والتوتر يملأ كل خلية من خلاياه ، والتقى فى مكتبه بـ (أمجد) ، فسأله :

- عن آخر الأخبار ؟

أجابه (أمجد) بسرعة ، وكأنما كان ينتظر السؤال :

- لقد أنهى (إيدن) عشاءه مبكرا ، فى (دوانينج ستريت) ، واجتمع مع كبار السياسيين والعسكريين ، والسفير الفرنسى ، والقائم بالأعمال الأمريكى ، وأرسل برقية إلى (أيزنهاور) ، يطلب فيها وضع الاحتمال العسكرى فى الاعتبار .

ردد (حسين) فى قلق :

- الاحتمال العسكرى ؟!

ثم أضاف ، وهو يلتف حول مكتبه ، ويجلس على مقعده خلفه :

- يبدو أن الأمور ستتطور بأعنف مما كنا نتصور .

تمتم (أمجد) فى رهبة :

- يبدو هذا .

لم يكد يتم تمتمته ، حتى طرق (صلاح) الباب ، ثم دفعه ليدلف إلى الحجرة ، قبل أن يأذن له (حسين) ، الذى رفع عينيه إليه ، وقال فى دهشة :

- (صلاح) ؟! .. متى عدت من (باريس) ؟

أجابه (صلاح) بابتسامة كبيرة :

- فجر اليوم .

ثم غمز بعينه ، مستطردا :

- ولقد أحضرنا الطرد هذه المرة .

سرت قشعريرة فى جسد (حسين) ، عندما طرقت هذه العبارة أذنيه ..

إنه يفهم ما يعنيه (صلاح) ..

لقد نجحوا هذه المرة ..

نجحوا فى إحضار (عايدة) ..

تراجع مبهورا ، وتلاحقت أنفاسه فى سرعة ..

إذن فقد عادت (عايدة) إليه ..

عادت بعد أن خدعته ، ودفعته إلى تهريبها ، دون أن يقصد ..

وانتفض قلبه انفعالا ..

لم يدر لماذا انتابته كل هذه المشاعر ، عندما علم أنها صارت على قيد أمتار منه ؟ ..

لقد ظل يحلم سنوات بعودتها ، وبرؤيتها أمامه ذليلة كسيرة ، ولكنه

لا يجد فى نفسه القدرة الآن على الذهاب لرؤيتها ، بعد أن حقق حلمه بالفعل ..

لماذا يشعر بهذا ؟

لماذا يرتجف لمجرد التفكير فى مواجهتها ؟ ..

أهو وصولها فى وقت غير مناسب ، اشتعلت فيه المواقف كلها ، وارتفعت فيه درجة توتره وانفعاله ، إلى الحد الذى لم يعد يحتمل فيه مزيدا من الانفعالات ؟ ..

أم هى بقايا حب قديم ، ما زالت بصماته عالقة فى قلبه ؟ ..

أخافه الاحتمال الأخير ، وأقلقه كثيرا ، وخاصة عندما سأله (صلاح) ، مبتسما فى ظفر :

ـ أتحب رؤيتها الآن يا (حسين) بك ؟

رفع عينيه إليه ، وفكر لحظة فى رفض رؤيتها ، ثم لم يلبث ان قرر مواجهة مخاوفه فى حسم ، فنهض قائلا :

ـ نعم .. ولم لا ؟

ثم اشار إلى (امجد) ، مستطردا :

ـ انتظرنى .. سأعود بعد قليل .

وسار إلى جوار (صلاح) ، فى طريقهما الى قبو المبنى ، و (صلاح) يقول فى زهو :

ـ كانت خطة ناجحة هذه المرة ، نفذها (سليمان) فى مهارة ، يستحق عنها مكافأة استثنائية .

لم يجب (حسين) ، الذى راح يدفع قدميه دفعا نحو القبو ، وهو يتمنى لو يؤجل هذا اللقاء لأطول فترة ممكنة ، و (صلاح) يواصل :

ـ لقد قاومت فى شراسة ، واتصل صديقها بالصحافة ، التى كادت تصنع فضيحة كبرى ، لولا أن غطت أخبار التأميم على كل الأخبار الأخرى .

كان (حسين) يشعر بالضيق ، من استرسال (صلاح) فى هذا الأمر ، ولكنه لم يحاول مقاطعته ، وهو يهبط فى درجات السلم إلى القبو ، ثم يعبر ممره الطويل ، إلى حجرة نصف مظلمة ، وقف على بابها جندى حراسة ، لم يكد يلمح (حسين) و (صلاح) ، حتى أدى التحية العسكرية فى قوة ، وأفسح الطريق فى حركة سريعة منتظمة ..

وتوقف (حسين) لحظة عند باب الحجرة ..

توقف فى تردد ، وخشية المواجهة تعاوده على نحو أكثر عنفا ، حتى قال (صلاح) :

ـ هيا يا سيدى .

وهنا حسم تردده ، وخطا داخل الحجرة ..

ثم تجمد مرة أخرى فى مكانه ، عندما وقع بصره عليها ..

على (عايدة) ..

لم تكن تشبه أبدا آخر مرة رآها فيها ..

صحيح أنها كانت ترتدى ثوبا ثمينا ، يبلغ ثمنه قدرا تعجز عنه زوجة أى مسئول مصرى ، وطاقم من المجوهرات ، يكفى ثمنه لشراء أسلحة تكفى لواء مشاة كامل ، ولكن مظهرها ـ على الرغم من ذلك ـ كان يدعو إلى الرثاء ..

كانت منهكة إلى حد كبير ، وقد فقد وجهها تورّده ، واتسخ ثوبها ببقع من الشحم ، وتناثر شعرها الناعم الجميل حول وجهها ، على نحو غير منتظم ، واللاصق مازال يحيط بفمها ، ويداها مقيدتان خلف ظهرها ، بذلك القيد الحديدى ، وكذلك قدماها ، وهى ملقاة فى اهمال ، فوق جوال قديم متسخ ..

ولقد رفعت عينين دامعتين ، تتطلع بهما اليه فى قهر ومذلة ..

ولم يحتمل (حسين) ..

لم يحتمل أبدا رؤيتها على هذا النحو ..

صحيح أنه يبغض ما فعلته به ، ويسعى منذ زمن لرد الصاع صاعين اليها ، ولكنه لم يحتمل أبدا رؤيتها كسيرة مهانة هكذا ..

وبكل الدهشة والارتياع فى أعماقه ، هتف (حسين) :

ـ يا إلهى .. من فعل بها هذا ؟

تلاشت ابتسامة (صلاح) ، وارتبك وهو يقول :

ـ كنت أظنك ترغب فى ..

قاطعه (حسين) فى غضب :

ـ حل قيودها يا رجل ، وارفع تلك الكمامة اللعينة عن شفتيها .. لقد طلبت إحضارها ، ولم أطلب إهانتها .

ارتبك (صلاح) أكثر ، وأشار فى سرعة الى حارس الغرفة ، فأسرع يحل القيد من معصميها وكاحليها ، ثم جذب اللاصق عن فمها فى عنف ، جعلها تطلق شهقة ألم ، فهتف به (حسين) فى غضب :

ـ رفقا أيها الغبى .

انكمش الجندى فى مكانه ، وتمتم بكلمات اعتذار غير مفهومة ، ثم ابتعد عن (عايدة) فى سرعة ، فاقترب منها (حسين) ، وانحنى يمس كتفيها فى رفق ، قائلا :

ـ أأنت بخير ؟

رفعت إليه عينيها الجميلتين الدامعتين ، وتطلعت الى عينيه لحظة فى صمت ، قبل أن تقول بصوت باك :

ـ أتشعر بالانتصار الآن يا (حسين) بك ؟

شعر بسؤالها يطعن عقله وقلبه فى الصميم ..

انه نفس السؤال ، الذى يلقيه على نفسه ، عندما وقعت عيناه عليها منذ لحظات ..

هل يشعر حقا بالانتصار ؟ ..



وهنا حسم تردده ، وخطا داخل الحجرة ..
ثم تجمد مرة أخرى فى مكانه ، عندما وقع بصره عليها ..

لماذا لا يشعر به ؟ ..

لماذا يتمنى ، فى هذه اللحظة بالذات ، لو لم يكن قد سعى إلى إحضارها ؟ ..

لماذا يشعر بالخجل ، بدلا من القوة ؟

كررت (عايدة) سؤالها فى عصبية :

ـ أتشعر الآن بالنصر ؟

ثم انفجرت باكية فى مرارة ..

وانفطر قلبه مع بكائها ..

لم يحتمل قطرات الدمع الساخنة ، وهى تنهمر من عينيها ، فتلهب قلبه ومشاعره ..

لم يحتمل حتى التطلع الى وجهها ، وهى تبكى هكذا ..

كانت أول مرة ، فى حياته كلها ، يرى منها لحظة ضعف ..

وأول مرة يشعر نحوها بكل هذه الشفقة ..

وفى بطء ، نهض واقفا ، وقال لـ (صلاح) :

ـ لدينا منزل امن فى (جاردن سيتى) .. بالقرب من منزلى .. رافق سمو الأميرة إليه .

ردد (صلاح) فى دهشة مستنكرة :

ـ سمو الأميرة ؟!

اجابه (حسين) فى صرامة :

ـ نعم .. سمو الأميرة (عايدة) .. واتصل بمدام (لولى) ، لتأخذ مقاييسها ، وتصنع لها بعض الأثواب المناسبة ، ثم أرسل خادمة وطباخا لخدمتها ، حتى تنتهى أزمة القناة هذه .

تطلعت إليه (عايدة) فى دهشة ، فلم تكن تتصور أبدا أنه سيمنحها هذه المبادرة السخية الكريمة ، بعد أن نجح فى إحضارها إلى (القاهرة) ..

كانت تتوقع منه تصرفا انتقاميا متشفيا ، يسعى إلى تحطيمها وإهانتها وإذلالها ..

حتى (صلاح) شعر بالدهشة ، فهتف :

ـ اترسل اليها خدما ايضا ؟

صاح به (حسين) فى غضب :

ـ ارأيت فى عمرك كله أميرة ، تخدم نفسها بنفسها ؟

حدق فيه (صلاح) بدهشة ، ثم غمغم :

ـ كما تأمر يا (حسين) بك .

وفى شفقة ، التفت (حسين) الى (عايدة) ، التى تتطلع إليه فى دهشة ، وقال :

ـ ساراك فيما بعد .

لم تنبس ببنت شفة ، وهى تنظر إليه ، فاستدار ، وغادر القبو فى خطوات سريعة ، وهو يشعر فى أعماقه بشعور عجيب .. بالارتياح ..

* * *

ـ (سوسن) .. (سوسن) .. خطيبك هنا ..

تهللت أسارير (سوسن) ، وتضرج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتطلع إلى (مفيد) ، الذى اقترب من موضع عملها ، وهو يبتسم ابتسامته الهادئة الوسيمة ، وقال :

ـ مساء الخير .. ألم تنته ساعات العمل بعد ؟

تطلعت إليه زميلاتها فى فضول ، وارتسمت الابتسامات على وجوههم ، فى حين غمغمت هى فى خجل :

ـ بقيت خمس دقائق .

ابتسم قائلا :

ـ حسنًا .. سأنتظرك بالخارج ، لنذهب الى محطة القطار معًا .

أومأت برأسها إيجابا ، فلوّح لها بيده ، وانصرف على الفور ، فالتفّت زميلات (سوسن) حولها ، وهتفت إحداهن فى مرح :

ـ خطيبك وسيم للغاية يا (سوسن) .

صاحت أخرى :

ـ ولكنه نحيل جدا .

ضحكت (سوسن) فى حياء ، وقالت :

ـ إنه يروق لى .

هتفت فتاة أخرى :

ـ ولى أيضا .

ضحكن جميعا فى خفوت ، خشية أن يسمعهن مراقب القسم ، وواصلن عملهن للدقائق الباقية ، ثم أسرعت (سوسن) تستبدل ثياب العمل ، التى تحمل اسم المتجر ، والتقت بـ (مفيد) عند الباب ، وهتفت :

ـ هل تأخرت عليك كثيرا ؟

ابتسم ابتسامته الهادئة ، وهو يقول :

ـ يمكننى انتظارك للأبد .

التقت أصابعهما فى دفء ، وسارا متجاورين ، فى طريقهما إلى محطة القطار ، وهو يسألها :

ـ هل كان يومك جيّدا ؟

ابتسمت قائلة .

ـ كل أيامى متشابهة .. ماذا عنك أنت ؟

هزّ كتفيه ، قائلا :

ـ العمل فى شركة الآلات الزراعية يختلف كثيرا ، عن العمل فى مطعم صغير ، ولكنه أفضل بالتأكيد .

سألته فى مرح :

ـ ومتى ستصبح مدير الشركة ؟

ضحك قائلا :

ـ بعد عمر طويل .

ـ سارا صامتين بعض الوقت ، وكفه يحتضن كفها فى حنان ، ثم سألها فى اهتمام :

ـ أتظنين أن الأمر سينتهى إلى حرب ، كما يتوقع البعض ؟

لم تكن تميل كثيرا إلى الأمور السياسية ، أو تفهم تفاصيلها ، ولكنها أجابته فى دبلوماسية :

ـ ما رأيك أنت ؟

أجاب :

ـ ستندلع الحرب حتمًا ، فلن تضيع الدول الكبرى هذه الفرصة ، لتحطيم زعامة (عبد الناصر) ، التى امتدّت من المحيط إلى الخليج ، وهم يحاولون تدمير مبادرته ، باقتراح إشراف دولى على القناة ، وإغراء المرشدين الأجانب بترك العمل فى القناة .

قالت فى حماس :

ـ سيهزمهم (عبد الناصر) حتمًا .

ابتسم قائلا :

ـ لماذا تبدين واثقة هكذا ؟

قالت فى حماس أكثر :

ـ إنه زعيم العرب .. أليس كذلك ؟

شرد ببصره لحظات ، وتنهدَ قائلا :

ـ لست أشك لحظة فى زعامة (جمال) يا (سوسن) ، ولكن يضايقنى أنه هو نفسه لم يؤمن بزعامته بعد .

سألته فى حيرة :

ـ كيف ؟

هز كتفيه ، قائلا :

ـ أسمعت نتائج انتخابه ؟ .. لقد حصل على تسعة وتسعين ، وتسعة من عشرة فى المائة ، وهذا مستحيل .

هتفت معترضة :

ـ لماذا مستحيل ! .. الجميع يحبون (جمال عبد الناصر) .

ابتسم قائلا :

ـ وماذا عن أصحاب الألقاب المفقودة ، والإقطاعيين القدامى ، ورجال القصر ، والحرس الملكى ، والأحزاب المحلولة ، والـ ..

قاطعته :

ـ مجرد نسبة صغيرة من الشعب .

قال فى هدوء :

ـ وماذا عن رفض ترشيح أى شخص آخر ، أمام (جمال) ؟

قالت معترضة :

ـ ومن يجرؤ على الترشيح ضده ؟

هتف :

ـ أرأيت .. هذا ما أعنيه ، وهذا ما يؤسفنى .

شعرت أن هذه المناقشة تضايقها ، فقالت :

ـ هل سنتحدث طيلة الوقت عن السياسة ؟

ابتسم قائلا :

ـ لا .. ليس طيلة الوقت .

قالت فى اهتمام :

ـ أتحب رؤية حجرة النوم ، التى وقع اختيارى عليها ؟

قال مبتسما :

ـ بالطبع .. يروق لى رؤية ذوقك ، فى هذا المضمار .

جذبته من يده فى حماس ، قائلة :

ـ ستعلم أن ذوقى متميز ، فهى رائعة .

ثم همست ضاحكة :

ـ وسعرها مناسب أيضا .

ضحك بدوره ، وتبعها مستسلما ، وهما يعبران الطريق ، وقال محذرا :

ـ تذكرى أن القطار سيرحل بعد نصف الساعة فحسب .

قالت فى عجلة :

ـ لا عليك .. سنلحق به بإذن الله ، محطة القطار على قيد خطوات من هنا .

ابتسم لحماسها ، وتركها تقوده إلى متجر أثاث كبير ، وأشارت إلى حجرة نوم أنيقة ، قائلة فى لهفة :

ـ ها هى ذى ، ما رأيك ؟

لم يستطع اقناع نفسه بالاهتمام بالأمر ، وهو يتطلع إلى حجرة النوم ، قائلا :

ـ جميلة .

هتفت به :

ـ جميلة ؟! .. إنها رائعة .. ألا ترى النقوش والأركان ، و..

لم يسمع حرفا واحدا ، مما نطقت به ، بعد هذه الكلمات ، فقد تعلق بصره بصورة انعكست على زجاج المتجر ..

صورة جعلت قلبه ينبض فى قوة ، قبل أن يهتف لسانه فى لهفة :

- (مديحة) ؟!

انتفض قلب (سوسن) مع الكلمة ، وكادت تهوى فاقدة النطق والوعى ، عندما تركها (مفيد) فجأة ، واندفع كالصاروخ يعبر الطريق ، إلى الجانب الآخر ، وسط السيارات ، التى انطلق نفيرها وصرير عجلاتها فى عنف ، وهو يعبر بينها ، وكأنه لا يشعر بوجودها ، حتى بلغ الإفريز المقابل ، فأمسك كتفى فتاة ، وأدار وجهها إليه ، هاتفًا :

- (مديحة) ؟!

- خفق قلبه ، وخفق قلبها ، وارتجف صوتها وتهدج ، وهى تهتف :

- (مفيد) ؟!

وكان لقاءً عاصفًا .

* * *

٢١ - كل الحيرة ..

تنهد (حسين) فى عمق ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يسند ذقنه إلى إبهاميه ، قائلاً لـ (إبراهيم مكّى) :

- لم أستطع مس شعرة واحدة منها .. لم أكد أجدها أمامى ، فى هذه الحالة المزرية ، حتى تمنيت لو أحتويها بذراعىّ ، وأنهال على شفتيها تقبيلا .

ابتسم (إبراهيم) فى استخفاف ، مغمغمًا :

- هل شعرت بالضعف ؟

كان يتصوّر أن (حسين) سينكر ذلك تمامًا ، ولكنه فوجىء به يجيب فى أسف :

- نعم .. شعرت أمامها بضعف شديد ، وكأن الحب الراقد فى أعماقى ، والذى كنت أتصوّر أنه مات منذ رحيلها ، قد انبعث فجأة حيًا ، وراح يلهث بحب الحياة مرة أخرى .

كان الجواب مباغتا بالنسبة لـ (إبراهيم) ، الذى تخلّى دون أن يدرى عن حذره ، وهو يهتف :

- إذن فأنت تحبها !!؟

هز (حسين) رأسه إيجابا ، وقال فى خفوت :

- نعم .. يبدو هذا .

مضت فترة صمت طويلة ، بعد هذا الجواب ، و (إبراهيم) يحدّق فى وجه (حسين) فى دهشة واستنكار ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وابتسم

فى ظفر وخبث ، وكأنما وقعت يداه فى النهاية على نقطة ضعف كبيرة ، فى شخصية (حسين) ، وقال :

- هل التقيت بها ، بعد عودتها ؟

هز (حسين) رأسه نفيا ، وقال :

- لا .. لم أجد فى نفسى الشجاعة لرؤيتها ، بعد ما أحضرتها على هذا النحو .

تراجع (ابراهيم) ، واسترخى فى مقعده ، وهو يقول :

- اطمئن .. إنها لن تشير إلى هذا قط .

سأله (حسين) فى دهشة :

- لماذا تقولها بهذه الثقة ؟

أجابه فى بساطة :

- لأننى أعرف طريقة تفكير الأميرات .

لم يفهم (حسين) تمامًا ما الذى يعنيه (ابراهيم) ، إلا أنه لم يسأله تفسيرًا ، وإنما أطلق من أعماق صدره زفرة قوية ، وحاول أن يسترخى فى مقعده ، وهو يضع يده على جبينه ، ويغلق عينيه ، قائلا :

- كم أتوق لقليل من الراحة .. عقلى يكاد ينفجر ، من شدة التوتر والتفكير .

سأله (ابراهيم) فى اهتمام :

- كيف حال العمل ؟ .. أما زالت الأمور متوترة ؟

زفر (حسين) مرة أخرى ، وقال :

- أكثر مما تتصور .

كان (ابراهيم) يتوقع منه استطرادا ، وشرحا للأمور وتفاصيلها ، والأبعاد السياسية للموقف ، إلا أن طبيعة عمل (حسين) كانت قد وضعت بصمتها على شخصيته ، فلم يضف حرفا واحدا إلى ما قال ، وإنما نهض قائلا :

- أظننى أحتاج إلى إجازة قصيرة فى قريتى ، وإلا فلن يمكننى مواصلة العمل .

سأله (ابراهيم) :

- أمن الممكن أن تحصل على إجازة ، فى مثل هذه الظروف ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا ، وقال :

- لقد حصلت عليها بالفعل ، فهم يدركون جيدا ضرورة العمل بأعصاب هادئة ، فى مجالنا هذا .

ثم لوَّح بيده ، مستطردا :

- إلى اللقاء قريبا .

منحه (ابراهيم) ابتسامة هادئة ، وهو يغادره ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى غضب وصرامة ، وهو يقول :

- من الواضح أن الأمور تسير نحو منحنى جديد يا (حسين) بك ، ومن يدرى ؟ .. ربَّما عادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وأصبحت أنا الأقوى .

ثم أشعل سيجارته ، ونفث دخانها فى قوة محنقة ، قبل أن يضيف فى حسم :

- ربَّما ..

* * *

كان اللقاء حارًا عاصفا ..

وكانت الدهشة قوية عنيفة ..

لم يصدق كل منهما عينيه وأذنيه ..

ولثوان ظلَّ كل منهما يحدق فى وجه الآخر ، وعيناه تجوبان ملامحه فى لهفة ولوعة واشتياق ..

ثم هتف (مفيد) مرة أخرى ، وصوته يتهدج :

- (مديحة) .. مستحيل ! .. لقد بحثت عنك فى (مصر) كلها ، ولم أتصور أبدا أننى سأراك مرة أخرى ، فى هذه الدنيا على الأقل ..

اغرورقت عيناها بالدموع ، وامتدت أصابعها المرتعدة تتحسس وجهه ، وكأنها تحاول التيقن من أنه يقف أمامها بالفعل ، وأنها لا تحلم بوجوده ..

وخفق قلبها فى قوة ، عندما لامست أصابعها وجهه النحيل ، وتمنت لو ألقت نفسها بين ذراعيه ، وأفرغت دموعها على صدره ..

هى أيضا لم تتصور أنها ستراه مرة ثانية أبدا .

وفى حرارة ، سالت دموعها على وجنتيها ، وهى تردد :

- (مفيد) .. أهو أنت حقا ؟!

قال فى حب جارف ، تدفق مع كل حرف من حروف كلماته :

- نعم يا (مديحة) .. هو أنا .. لقد وجدتك يا (مديحة) .. وجدتك ولن نفترق أبدا .

هبطت يدها من وجهه إلى كفه ، وتعانقت أصابعهما فى شوق ولهفة ، ووجدا نفسيهما يسيران جنبا إلى جنب فى هيام ، وقد نسى كل منهما دنياه ، ولم يعد يذكر سوى أنهما قد التقيا ..

التقيا بعد طول فراق ..

ولم يتبادلا حرفا واحدا لربع ساعة كاملة ، وهما يسيران جنبا إلى جنب ، وكفه يحتضن كفها فى قوة ، وكأنما يخشى لو أفلت أصابعها ألا يجدها مرة ثانية ، حتى قادتهما أقدامهما إلى (جروبى) ، فدخلاه معا ، دون مناقشة الأمر ، واتخذا مائدة جانبية ، وتعانقت أصابعهما مرة أخرى فوقها ، لتنحل عقدة لسان (مفيد) ، وهو يسألها فى لهفة :

- أين كنت ؟ .. أين ذهبت ؟

أطرقت بعينيها أرضا ، وهى تقول :

- أنت تعلم ما فعله بنا (حسين) .

سألها فى خفوت :

- لماذا لم تحاولى الاتصال بى حينذاك ؟

هزت رأسها قائلة :

- لم يكن هناك ما يمكنك فعله .

كان يعلم أنها على حق ؛ لذا فلم يعترض على قولها ، وإن شعر فى أعماق صدره بمرارة ، أعادت إليه شعوره بالقهر والعذاب ، فى ذلك اليوم المشئوم ، الذى أجبر فيه (حسين) (مديحة) ووالدها عم (إسماعيل) على الرحيل من القرية ..

وسألها (مفيد) فى اهتمام :

- وماذا فعلت بكم الدنيا ، بعد رحيلكم ؟

تنهدت وقالت :

- لم نمت جوعا على الأقل .

صمتت لحظة ، ثم عادت تتابع :

- لقد نقلنا (حسين) بك إلى (القاهرة) ، وحصل لوالدى على عمل صغير ، فى جريدة (الاهرام) ، كعامل طباعة تحت التدريب ، وأجبر ابن عمى (فهمى) على عقد قرانه على ، ثم لم يلبث أن نسى أمرنا ، بعد أن اطمأن لسيطرته علينا .

ردد (مفيد) فى مرارة :

- عقدت قرانك على (فهمى) ؟!

خفضت عينيها ، قائلة :

- قرانا صوريا فحسب .. إرضاء لشقيقك ، ولكن (فهمى) كان شهما كريما ، لم تقبل رجولته الاقتران بى على هذا النحو ، وأبت كرامته إجبارى على معاشرته ، فانتظر بضعة أشهر ، حتى هدأت الأمور ، ثم أرسل لى قسيمة الطلاق فى صمت .

تهللت أسارير (مفيد) ، وهتف :

ـ حقا ؟! .. أيعنى هذا أنك .. ؟

قاطعته بإيماءة إيجاب من راسها فتنفس الصعداء ، وهتف فى سعادة :

ـ إنه قدرنا يا (مديحة) .. قدرنا أن نلتقى مرة اخرى ، وأن تكونى لى ، كما تمنينا دائما .

تغلب حبها على كل مشاعرها الاخرى ، فى هذه اللحظة ، فهتفت :

ـ لن نفترق هذه المرة ابدا يا (مفيد) .

قبض على أصابعها فى حرارة ، وهو يهتف من اعمق أعماق قلبه :

ـ أبدا يا (مديحة) .. أبدا .

ولم ينتبه فى هذه اللحظة إلى انه قد تخلى ، دون أن يدرى ، عن قلب اخر ، عندما عثر على قلبه القديم ..

عن قلب (سوسن) ..

★ ★ ★

تهللت أسارير (شريفة) ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة ، وهى تستقبل (حسين) فى السراى ، هاتفة :

ـ مرحبا يا (حسين) .. مرحبا يا اخى الحبيب .. اهلا بك فى دارك .

صافحها (حسين) ، وقبّل وجنتيها فى هدوء ، وابتسم ابتسامة منهكة ، وهو يسألها :

ـ كيف حالك يا (شريفة) ؟ .. كيف حال (حافظ) و (طارق) ؟

قالت فى حرارة ، وهى تحمل عنه حقيبته :

ـ الجميع بخير .

ثم سألته فى اهتمام :

ـ هل ستقضى معنا اجازتك كلها ؟

أومأ برأسه إيجابا ، وقال :

ـ نعم .. ولكنها اجازة قصيرة ، فسأعود إلى (القاهرة) فجر بعد الغد .

ثم هتف :

ـ ولكن أين (طارق) ؟ .. اريد أن أرى هذا (البنهاوى) الصغير ؟

مطت شفتيها ، وقالت :

ـ (البنهاوى) ابن المافونة .

ضحك قائلا :

ـ أما زالت علاقتك بـ (فاطمة) سيئة ؟

هزت كتفيها ، قائلة :ومن يصلحها ؟

صاح (حسين) فى صرامة :

ـ (فاطمة) .. (فاطمة) .. اين أنت ؟

هرعت إليه (فاطمة) من حجرتها ، وهى تقول :

ـ (حسين) بك .. مرحبا يابك .. مرحبا .

سألها فى خشونة :

ـ أين (طارق) ؟

أجابته فى خبث :

ـ مع والده .. انه يهوى تدليله .

مط (حسين) شفتيه فى ازدراء ، ثم أزاحها عن طريقه ، واتجه الى حجرة شقيقه ، ودفع بابها ، فالتفت إليه (حافظ) ، ولم يكد يراه ، حتى انكمش على نفسه ، وهو يردد فى خوف :

ـ أهلا يا (حسين) .. أهلا يا أخى .

ابتسم له (حسين) ابتسامة باهتة ، وقال :

ـ أهلا يا (حافظ) .. كيف حالك ، وكيف حال (طارق) ؟

احتضن (حافظ) ابنه بحركة غريزية ، وكأنما يخشى أن ينتزعه منه (حسين) قسرا ، وغمغم :

ـ بخير يا أخى .. بخير .

اتجه إليه (حسين) ، وقال :

ـ اعطنى الصغير .

انكمش (حافظ) على نفسه اكثر ، وضم الصغير إليه فى قوة ، ثم لم تلبث قوته أن تراخت ، وهو يتطلع الى (حسين) فى خوف ، ومد يده بالصغير الى شقيقه ، فالتقط (حسين) الصغير ، وارتفع حاجباه فى حنان ، وهو يتطلع اليه ، قائلا :

ـ كيف حالك أيها (البنهاوى) الصغير ؟

ابتسم له الصغير ، وداعب وجهه بأصابعه الصغيرة ، فاتسعت ابتسامة (حسين) فى سعادة ، وهتف فى فرح :

ـ انه يحبنى .

كان من الواضح ان الصغير يفجر فى أعماقه مشاعر خاصة ، كثيرا ما تكتمها صرامته ، وتمنعه طبيعته من اعلانها ..

ولثوان ، داعب (حسين) الصغير ، ثم أعاده إلى (حافظ) ، قائلا :

ـ أبقاه الله لك .

اختطف (حافظ) ابنه فى لهفة ، وضمه إلى صدره فى ارتياح ، فى حين غادر (حسين) الحجرة ، ولم يكد يخرج الى الردهة ، حتى وقع بصره على (توحيدة) وهى تتقدم نحوه ببطنها المنتفخ ، فاردة ذراعيها ، وهاتفة :

ـ (حسين) .. اخى الحبيب .. لم يكد شيخ الخفراء يخبرنى بوصول سيارتك ، حتى هرعت الى هنا لمقابلتك .

قبلها فى حرارة ، وربت على بطنها ضاحكا ، وهو يقول :

ـ يبدو أن ولى العهد الثالث سيصل قريبا .

ضحكت قائلة :

ـ أمامه أقل من شهر واحد .

جلس مع شقيقتيه فى حجرة الضيوف ، فى حين عادت (فاطمة) الى حجرتها ، وهتفت (توحيدة) :

ـ اصحيح أنك لن تقضى هنا سوى يومين .

أجابها بهزة من رأسه ، وقال :

ـ الموقف لا يحتمل أكثر من هذا .

قالت فى حدة :

ـ ولكن هناك أمورا تحتاج الى وجودك هنا .

أرجعت عبارتها الى ذاكرته عبارة أخرى ، نطقتها هى أيضا ، ليلة خطبة (مفيد) ، فاعتدل فى مقعده ، يسألها فى اهتمام :

ـ ما هذه الأمور بالضبط ؟

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ هل سجلت الأرض باسم (عبد الحميد) ، والد تلك المأفونة ، زوجة (حافظ) ؟

شهقت (شريفة) فى دهشة ، فى حين انعقد حاجبا (حسين) فى غضب ، وهو يقول :

ـ من أخبرك بهذا ؟

هتفت (شريفة) :

ـ هل فعلت ذلك حقا ؟!

أجابها فى خشونة وصرامة :

ـ نعم .. كان هناك ما يحتم هذا ، وأنا المسئول عن ميراث (البنهاوى) ، وأعلم كيف يمكننى حمايته .

قالت (توحيدة) فى حدة :

ـ وهل تعتمد حمايته على تسجيله باسم أضعف شخص فى العائلة ؟

أجابها فى غضب :

ـ (عبد الحميد) ليس أحد أفراد العائلة ، وليس ..

قاطعته هاتفة :

ـ لست أقصد (عبد الحميد) .. بل أقصد من سجل (عبد الحميد) الأرض باسمه .

هب من مقعده ، صائحا :

ـ سجل الارض باسمه ؟! .. من تعنين ؟

صاحت محنقة :

ـ (حافظ) .. لقد سجل الأرض باسم (حافظ) .

جاء من خلفهم صوت (فاطمة) تقول فى تشف :

ـ بل باسمى أنا .

التفت اليها الجميع فى ذهول ، فوضعت كفيها فى وسطها ، وقالت فى لهجة حاسمة :

ـ أنا الآن صاحبة الارض .

وبرقت عيناها فى قوة ، مع اضافتها :

ـ ارض (البنهاوى) .

* * *

٢٢ ـ البركان ..

لم يكد عم (اسماعيل) يعود من عمله منهكا ، حتى اندفعت ابنته (مديحة) تعانقه فى سعادة ، وهى تهتف :

ـ أبى .. أبى .. لن تصدق ما سأخبرك به .

ابتسم الرجل فى تعب ، وهو يسألها :

ـ هل عثرت على وظيفة ؟

هتفت فى سعادة جمة :

ـ بل على ماهو أعظم يا أبى .

ومالت نحوه تتابع ، والفرح يقفز من أطراف لسانها :

ـ لقد عثرت على (مفيد) .

اتسعت عينا والدها فى ذعر ، وتراجع فى حركة حادة كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ (مفيد) ؟! .. (مفيد البنهاوى) ؟!

تراجعت مشاعرها أمام رد فعله العنيف ، وتمتمت فى حيرة :

ـ نعم يا أبى .. (مفيد البنهاوى)

بدا لها شاحبا ممتقعا ، إلى حد كبير ، وهو يقول :

ـ أين التقيت به ؟

ـ أجابته ومشاعرها تتكمش أكثر وأكثر :

ـ فى شارع (قصر النيل) .. كنت أبحث عن عمل ، عندما ..

قاطعها فى ارتياع :

- وهل رآك ؟

اجابته فى حذر :

- نعم .. وتحدثنا معا ، و ..

بترت عبارتها بإرادتها هذه المرة ، مع ذلك الشحوب الشديد ، وتلك النظرات الزائغة ، التى تمتلىء برعب هائل ، يطل من عينى والدها ، الذى هتف :

- ياإلهى ! .. لماذا فعلت هذا ؟ .. لماذا فعلت هذا ؟

قالت وهى تكاد تبكى ذعرا :

- وما الذى فعلته يا أبى ؟ .. لقد التقيت بـ (مفيد) ، وتحدثت إليه قليلا .

صاح فى انهيار :

- وهل كان من العسير ان نعثر عليه؟ .. زيارة واحدة للقرية كانت تكفي .. ألم تفهمى بعد سر عزوفنا عن العودة لقريتنا ؟ .. ألم تفكرى لحظة فى أسرتك ، وفى عواقب فعلتك هذه .

سالت الدموع من عينيها بالفعل ، وهى تردد :

- إننى لم ..

قاطعها مواصلا :

- ألا تعلمين أننا نتصارع هنا ، لنحيا وسط خضم البشر ، وأننى أحتمل كل ما أحتمل ، فى سبيل هذه الأسرة ؟ ..

انهارت تماما ، وهى تقول :

- أعلم يا أبى .. أعلم .

سألها فى غضب :

- وهل أخبرت (مفيد) بك بعملى ومحل إقامتنا ؟

انكمشت فى خوف ، وهى تقول :

- نعم .. لقد أخبرته .

أخفى وجهه بكفه ، وهو يهتف :

- رحماك يا إلهى !

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يضيف :

- الله وحده يعلم ما الذى يمكن أن يفعله بنا (حسين) بك ، عندما يعلم ما حدث .. لقد جنيت على أسرتك كلها يا (مديحة) .. حطمتنا جميعا مرة أخرى يا بنيتى .

هوى قلبها بين ضلوعها كالصريع ، وعبارة أبيها تتردد فى عقلها ..

لقد حطمت أسرتها ..

حطمتها مرة أخرى ..

* * *

مرت لحظة ، ساد فيها الصمت التام ، داخل سراى (البنهاوى) ، وكأنما توقف الزمن ، وجمدت عقارب الساعة ، وتحول الجميع الى تماثيل من الرخام ، قبل أن ينفجر (حسين) فجأة كبركان ثائر ، وهو يصرخ :

- أنت ؟! .. أنت أيتها الحقيرة صاحبة أرض (البنهاوى) .

هتفت به (فاطمة) فى حدة :

- نعم .. أنا الآن صاحبة الأرض ، وكل شىء بالقانون .. أنت كتبت الارض باسم والدى ، وهو منحها لزوجى ، وزوجى أعطانى توكيلا عاما ، و ..

هوى (حسين) على وجهها بصفعة كالقنبلة ، وهو يصرخ :

- اخرسى .

ألقتها الصفعة أرضا ، و (توحيدة) تهتف :

- انها تستحق القتل .

أما (شريفة) ، فصاحت



ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يضيف :

ــ الله وحده يعلم ما الذى يمكن أن يفعله بنا (حسين) بك ، عندما يعلم ما حدث ..

ــ أنت أيتها الحقيرة تملكين أرض (البنهاوى) ؟! .. موتك أهون من هذا .

نهضت (فاطمة) هاتفة :

ــ بل أمتلكها .. كل قيراط من أرض (البنهاوى) مسجل باسمى .. كل شبر هنا أصبح ملكا لى ، حتى هذا السراى .

صرخ (حسين) مرة اخرى :

ــ قلت اخرسى .

وراح يهوى على وجهها بصفعات قوية متتالية ، وهى تصرخ :

ــ ليس من حقك أن تضربنى هكذا .. إن لى زوجا يحمينى .

ولكن (حسين) لم يتوقف عن صفعها ، حتى سقطت أرضا ، فانحنى يجذبها من شعرها فى قسوة ، وهو يقول :

ــ سألقى أباك فى السجن .. إننى أحمل عقدا موقعا منه ، يعيد إلى ملكية الأرض .

هتفت وهى تحمى وجهها بيدها :

ــ لقد سرقته .. لم تعد تلك الأرض أو العقد .

تراجع هاتفا :

ــ سرقته ؟!

ثم انتزع حافظة أوراقه من جيبه بحركة حادة ، وفحص محتوياتها فى سرعة ، قبل أن يحتقن وجهه ، ويهتف :

ــ أيتها الحقيرة .

صاحت فى شماتة :

ــ ألم أقل لك ؟ .. كل شىء قانونى .. أرضكم أصبحت ملكى .

أمسك عنقها فى عنف ، وهو يهتف :

- سأقتلك إذن ، قبل أن تنعمى بذرة رمل منها .

اختنق صوتها ، وهى تقول :

- اقتلنى ، وسيرث ابنى الأرض .

وفى هذه اللحظة خرج (حافظ) من حجرته ، واتسعت عيناه فى ذعر ، وهو يرى ما يفعله شقيقه ، وهتف :

- (حسين) .. ماذا تفعل ؟

وانفجر (طارق) باكيا ، وهو يهتف باسم أمه فى هلع ، فتراخت أصابع (حسين) ، من حول عنق (فاطمة) ، وتراجع خطوة فى رهبة ، ونهضت (فاطمة) تسعل فى شدة ، فى حين تفجرت الدموع من عينى (حافظ) ، وهو يردد :

- ماذا تفعل يا (حسين) ؟ .. ماذا تفعل ؟

اندفع نحوه (حسين) ، وأمسكه فى قوة ، وهو يقول :

- أخبرنى .. هل منحت تلك الحقيرة توكيلا شاملا ؟

ارتجف (حافظ) من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، وهو يقول :

- نعم .. لقد منحتها إياه .. إنها زوجتى .. أليس كذلك ؟ .. أليس كذلك يا (حسين) ؟

صاح به (حسين) ، وهو يهزه فى قوة :

- ألغ هذا التوكيل أيها الغبى .. سأصحبك الآن إلى الشهر العقارى ، لتلغيه على الفور .

هتفت (فاطمة) فى شراسة :

- لن يفعل .. لن أسمح له بفعل هذا .

التفت إليها (حسين) بكل ثورته ، وجذبها إليه فى قسوة ، هاتفا :

- لا يهمنى أن يفعل .. سأحصل على شهادات من الأطباء النفسيين ، تؤكد أنه غير مؤهل عقليا لمنحك مثل هذا التوكيل ، وسأحجر عليه ، و ..

صاحت فى حدة :

- ولكن الأرض لن تعود كلها إليك أبدا .. أبدا .

احتقن وجه (حسين) فى شدة ..

إنها على حق ..

لقد أصبحت الأرض ملكا لـ (حافظ) رسميا ، ولو تم الحجر عليه الآن ، فستعود إلى الجميع ، وليس إليه وحده ..

وسيفقد سطوته ..

سيفقد أرض (البنهاوى) ، التى يستمد منها جزءا من قوته ، وسط الأسرة كلها ..

ولكن لا ..

لن يسمح بهذا أبدا ..

وفى صرامة وقسوة ، انعقد حاجبا (حسين) فى شدة ، وقال :

- لا يا بنة (عبد الحميد) .. لن تهزمى (حسين البنهاوى) أبدا .. إنك لا تصلحين حتى خصما له .

والتفت إلى (شريفة) ، قائلا :

- أرسلى فى طلب جندى الحراسة من سيارتى .

هرعت (شريفة) لتنفيذ ما طلبه ، فى حين قالت (فاطمة) فى عصبية ، زادتها خشونة صوتها حدة :

- حتى لو أدخلتنى السجن ، ستظل الأرض ملكا لـ (طارق) .

رمقها بنظرة احتقار شديدة ، حتى وصل جندى الحراسة ، فالتفت إليه قائلا فى حزم :

- احتجز هذه المرأة فى حجرتها ، وأطلق عليها النار بلا تردد ، لو اعترضت بحرف واحد .

شحب وجه (فاطمة) فى شدة ، وهتف (حافظ) فى ارتياع :

- لا يا (حسين) .. لا تقتلها .. أرجوك .

انتزع (حسين) منه (طارق) فى صرامة ، وناوله للجندى ، قائلا :

- واقتل معها هذا الصغير أيضا .

صرخ (حافظ) فى رعب :

- لا .. لا يا (حسين) .

أما (فاطمة) فقد تراجعت فى هلع ، وارتجف قلبها على صغيرها ، وهتفت (شريفة) :

- (حسين) .. إنك لن ..

قاطعها (حسين) فى ثورة :

- اصمتى .

ثم جذب (حافظ) من ذراعه ، وقال فى قسوة بالغة :

- هيا يا شقيقى العزيز .. سنذهب معا إلى الشهر العقارى ، وهناك ستقوم بإلغاء التوكيل ، وتسجيل الأرض باسمى .. هل تفهم ؟

بكى (حافظ) فى انهيار ، وهو يقول :

- سأفعل كل ما تطلبه يا (حسين) .. كل ما تطلبه .. ولكن لا تؤذ ابنى .. أرجوك .

صاح به (حسين) :

- هيا إذن .

جذبه فى عنف إلى الخارج ، وعندما وصل معه إلى باب السراى ، التفت إلى (فاطمة) ، وقال فى غضب مخيف :

- سنعيد الأمور إلى نصابها ، ثم يأتى دورك ودور والدك الحقير .

ثم انصرف مع (حافظ) ، تاركا سحابة سوداء داخل السراى .. سحابة مخيفة ..

★ ★ ★

استقبل (عبد الحكيم) (عمر) فى منزله بالترحاب ، فصافحه فى حرارة ، ودعاه إلى الدخول ، وهو يقول :

- كيف حالك يا رجل ؟ .. لم نعد نراك إلا لماما .

غمغم (عمر) :

- إنها مشاغل الدنيا .

فسأله (عبد الحكيم) :

- وكيف حال مناحل العسل هذا العام ؟

أجابه (عمر) فى اقتضاب :

- جيدة .

ثم سأله :

- ألا تفكر فى بدء أعمال جديدة ؟

ابتسم (عبد الحكيم) ، وقال :

- إننى أكتفى بإيراد الحدائق هذه الأيام .

هز (عمر) رأسه ، وقال :

- لا يا رجل .. لن يكفيك هذا مع مرور الزمن ، ولابد لنا من عمل جديد ، يناسب العصر .

سأله (عبد الحكيم) :

- مثل ماذا ؟

مال نحوه ، قائلا :

- المقاولات مثلا .

هتف (عبد الحكيم) :

- المقاولات ؟! .. ومالنا نحن بها يارجل ؟

قال (عمر) فى حماس :

ـ آلن تبدأ الدولة مشروع السد العالى ، بعد فترة قصيرة ؟ .. سيحتاجون حتما إلى عدد من شركات المقاولات ، وهذه فرصتنا .

تراجع (عبد الحكيم) ، قائلا :

ـ لا أحد يعلم بعد ما الذى سيحدث ، بالنسبة للسد العالى .

هتف (عمر) :

ـ ماذا تعنى بأن أحدا لا يعلم بعد ؟ .. ألم يعلن (عبد الناصر) نفسه أنه سيقبل عرض التمويل السوفيتى ، لو سحب الأمريكيون والبريطانيون عرضهم ؟

أجابه (عبد الحكيم) :

ـ هذا صحيح ، ولكن بقاء (عبد الناصر) نفسه صار أمرا محاطا بالشكوك ، فقد تشتعل الحرب ، و ..

صاح (عمر) :

ـ وماذا ؟

ثم أضاف فى عصبية :

ـ لابد لنا من العثور على عمل بديل .. لقد أصبحت أمقت هذه القرية ، التى أنجبت شخصا مثل (حسين البنهاوى) .

ارتبك (عبد الحكيم) ، وهو يقول :

ـ اخفض صوتك يا رجل .. لا نريد مشاكل .

سأله فى سخرية :

ـ أتخشى أن يسمعك ؟

أجابه (عبد الحكيم) فى اضطراب :

ـ إنه هنا .

سأله فى دهشة :

ـ هنا فى منزلك ؟

هز رأسه نفيا ، وقال :

ـ بل فى القرية .. لقد أخبرنا (بسيونى) أنه فى السراى ، فذهبت (توحيدة) لمقابلته .

انعقد حاجبا (عمر) فى مقت ، وقال :

ـ فليلعنه الله فى كل خطوة يخطوها .

ابتسم (عبد الحكيم) ، وقال :

ـ ألم تنس ما فعله بك بعد ؟

هز رأسه نفيا ، وأجاب :

ـ وكيف يمكننى نسيانه ؟

ثم نطقت كل خلجة من خلجاته بالمقت الشديد ، وهو يضيف :

ـ ويوما ما سيدفع (حسين) ثمن ما فعله بى .. وسيكون الثمن باهظا .. باهظا جدًا .

وارتجف (عبد الحكيم) وهو يستمع إلى هذه العبارة ، وإلى الأسلوب الذى نطقها به (عمر) ، وأيقن أن الأيام القادمة تخفى الكثير لـ (حسين) ..

الكثير جدا .

* * *

٢٣ - انهيار ..

لم تبك (سوسن) هذه المرة ..

لم تذرف قطرة دمع واحدة ..

لقد رأت (مفيد) يتركها وحدها ، ويخاطر بعبور الطريق فى لهفة ، ليلتقى بحبيبته القديمة ، ثم يسير معها ، وقد نسى أو تناسى وجودها هى تماما ..

رأت هذا يحدث أمام عينيها ، وسمعت دوى قلبها يتحطم فى أعماقها ، ومادت بها الأرض ، وكادت تسقط جثة هامدة ..

ولكنها لم تبك ..

ترنحت قليلا كالذبيحة ، وزاغ بصرها وهى تراقبهما يسيران جنبا الى جنب ، ويبتعدان عن مجال رؤيتها ، وأصابعهما متعانقة فى ود وهيام ، و (مفيد) لا يلتفت ولو مرة واحدة اليها ، وكأنها لم تكن بالنسبة اليه .

أو كأنها من العدم ..

وربما هى كذلك بالفعل ..

إنها لم تعد تشعر حتى بوجودها ..

صارت بالنسبة الى نفسها أشبه بالعدم ، حتى أنها لم تعد تؤمن أن قلبها ينبض بين ضلوعها ..

وفى آلية ، واصلت طريقها إلى محطة القطار ، ولم تشعر إلا وهى تغادره فى طنطا ، وتسير مترنحة الى منزلها ..

وفى المنزل استقبلتها والدتها فى ارتياع ..

وكذلك استقبلها والدها ..

لم تكن تبكى أو تنتحب كالمرة السابقة ، ولكنهما ارتعدا لرؤيتها ، ولشحوبها الشديد ، فهتفت بها أمها :

- ماذا حدث يا (سوسن) ؟

التفتت إليها (سوسن) بلا مشاعر ، وقالت :

- لا شىء يا أماه .. لماذا تسألين ؟

تحسست أمها وجهها فى قلق ، وقالت :

- إنك تبدين شاحبة للغاية .

وسألها والدها الطبيب :

- أتشعرين بإرهاق يا بنيتى ؟

وجدت فى سؤاله ملاذا ، فغمغمت :

- نعم يا أبى .. إننى مرهقة .

قادتها أمها إلى حجرتها ، وهى تقول فى لوعة :

- ارقدى فى فراشك إذن يا بنيتى .. لا ريب أنهم حسدوك يا صغيرتى .. حسدوك على خطبتك ، وعلى أسرة خطيبك .

انطلقت فى أعماقها ضحكة ساخرة ..

حسدوها على خطبتها ..

يا لسخرية القدر ! ..

إنه ليس حسدا ، بل تاريخا ..

أو هو حب قديم ..

وعندما أغلقت أمها عليها باب حجرتها ، راحت تبدل ثيابها فى آلية ، ثم ألقت نفسها فوق فراشها ، دون أن تسقط من عينيها دمعة واحدة ..

نعم .. إنه حبه القديم ..

ذلك الحب الذى كانت تخشى عودته فى أية لحظة ..

كثيرا ما ارتجف قلبها ، وهى تتخيل ما حدث ..

دائما كانت تخشى عودة (مديحة) ..

واليوم عادت ..

واليوم أيضا أدركت حقيقة مشاعر (مفيد) نحوها ..

إنه لم يحبها ..

لم يحبها أبدا ..

ربما وجد فيها بديلا عن حبه الضائع ، أو سدا للفجوة قلبه ..

ولكنه أبدا لم يحبها ..

ليس كما أحب (مديحة) على الأقل ..

إنه حتى لم يشعر بوجودها ، منذ وقعت عيناه ، على (مديحة) ..

لقد نسيها تماما ، وهو يتعلق بحبه القديم ..

كم تحسد هى (مديحة) ..

كم تحسدها على كل هذا الحب ..

ومع كل هذه الأفكار والذكريات ، لم تذرف عيناها قطرة دمع واحدة ..

ولكن قلبها كان يبكى فى مرارة ..

يبكى بدموع من دم ..

* * *

« أتأمرين بأى شىء يا سمو الأميرة ؟ .. »

نطقتها الخادمة فى احترام بالغ ، وهى تنحنى أمام (عايدة) ، التى رمقتها بنظرة طويلة خاوية ، قبل أن تقول فى خفوت :

ـ لا .. ليس الآن .

انحنت أمامها الخادمة مرة أخرى ، وانصرفت فى خفة ، فى حين عادت الأميرة إلى شرودها ، الذى أخرجتها منه الخادمة ..

كانت قد استكانت لوجودها فى (القاهرة) ، بعد تلك المعاملة الكريمة ، التى أمر بها (حسين) ، وإن لم تفهم بعد سر ذلك السخاء الشديد ، الذى يعاملها به ، وهى التى كانت تنتظر انتقاما بشعا عنيفا على يديه ..

أما زال يحبها حقا ؟! ..

كلماته ولمساته ونظراته ، عندما التقى بها ، تشير كلها إلى هذا ..

بل تؤكده فى شدة ..

وانطلقت ذاكرتها تستعيد علاقتها القديمة معه ..

لقد كان دائما مهذبا ، كريما ، شهما ، فى كل تعاملاته معها ، فى حين لم تكن هى أبدا أمينة أو مخلصة ، فى تعاملها معه ..

ولكنه طموح ..

وطموحه هذا هو الذى يدفعه إلى كل ما يفعله ..

ولكن لماذا لم يأت لزيارتها ، منذ أمر بتسليمها هذه الشقة ؟

إنه حتى لم يأمر باحتجازها فيها ، فهى تخرج وقتما يحلو لها ، وتعود فى أى وقت تشاء ..

ما الذى يسعى إليه إذن ؟

لم يكن من السهل عليها أن تفهم شخصية (حسين) المتناقضة ، وإن شعرت فى أعماقها بشىء من الاحترام والود تجاهه ..

وفجأة انتزعها من شرودها وذكرياتها رنين الهاتف ، فأسرعت إليه تختطف سماعته ، هاتفة :

ـ أنا (عايدة) .

أتاها صوت (جان) ، يهتف بالفرنسية :

ـ أوه .. أخيرا يا (عايدة) .. كم يسعدنى سماع صوتك .. أأنت بخير ؟

لم تشعر بسعادة كبيرة لسماع صوته ، فقالت فى هدوء :

ـ نعم يا (جان) .. أنا بخير .

صاح فى لهفة :

ـ أيعاملونك هناك معاملة جيدة ؟ . هل تركوا لك مجوهراتك ؟

تجاهلت سؤاليه ، وهى تقول :

ـ كيف عرفت رقم الهاتف يا (جان) ؟

أجابها فى شىء من الزهو :

ـ لدىّ مصادرى .

ثم أضاف فى حماس :

ـ يبدو أننى سأنجح فى إعادتك إلى (باريس) قريبا يا عزيزتى .

غمغمت دون حماس :

ـ حقًا ؟!

هتف :

ـ نعم .. لقد وجدت وسيلة جديدة ، أظنها ستفلح .. وسيلة مباشرة مع ..

انقطعت المحادثة بغتة ، قبل أن يخبرها مالديه ، فهتفت فى فضول :

ـ ألو .. هل تسمعنى يا (جان) .. ألو .

ولكن لم يجاوبها سوى ذلك الرنين المتقطع ، الذى يعلن انتهاء المحادثة ، فأعادت سمّاعة الهاتف إلى موضعها ، وهى تسأل نفسها عما يعنيه ..

ومن ذلك الذى سيتصل به مباشرة ؟ ..

من ؟ ..

* * *

بكت (فاطمة) فى قهر ومرارة ، وهى مسجونة مع ابنها فى حجرتها ..

لم تكن تتصوّر أبدا أن خطتها واهية إلى هذا الحد ..

لم تكن تظن أنه من السهل تحطيم كل شىء بضربة واحدة ..

أو لم تكن تعلم أنها بكل هذا الضعف ..

لقد رسمت خطتها ، وأقنعت والدها بالتحايل على (حسين البنهاوى) ، والتصدى له ، وهى تتصوّر أنها ستحصل على الأرض كلها ، وستحكم عائلة (البنهاوى) ، التى تعاملها بكل هذا الازدراء والاحتقار ..

ولكنها تأخرت فى خطوة واحدة ..

تأخرت فى تسجيل الأرض باسمها هى ، بموجب التوكيل الذى منحها إياه زوجها ..

لو أنها فعلت ، لصارت الأرض ملكا لها ، وأصبح من العسير أن يستعيدها (حسين) ..

ولكن هل كان من الممكن أن تضحى بصغيرها ، من أجل الأرض ؟ ..

وهل كان (حسين) قادرا على قتل الصغير بالفعل ؟ ..

امتلأ عقلها بالتساؤلات ، التى لم تلبث أن انمحت جميعها ، ليستقرّ سؤال واحد فى عقلها ..

ما مصير والدها ، بعد ما حدث ؟ ..

ما الذى سيفعله به (حسين) ؟ ..

إنه سينتقم منه حتما ، ولكن كيف ؟ ..

توقفت أفكارها ، عندما سمعت صوت سيارة (حسين) تتوقف أمام السراى ، وسمعت صوت (حسين) ، وهو يقول فى غضب :

ـ أين ابنة (عبد الحميد) ؟

اندفع الجندى إليها ، ودفعها أمامه إلى الخارج ، ووجدت زوجها منكمشا فى رعب ، و (حسين) يمسك بعض الأوراق فى يده ، ويرمقها بنظرة نارية ، و (توحيدة) تسأله فى لهفة :

- هل استعدت الأرض ؟

أجابها فى صرامة ، وهو يلوّح بالأوراق :

- نعم .. لقد أعاد ملكيتها إلىّ رسميًا ، وسأخصم مصاريف تسجيلها من نصيبه .

ثم أشار إلى (فاطمة) ، وانتفض (حافظ) ، وهو يقول فى ذعر :

- أطلّقها ؟!

أجابه (حسين) فى حدة :

- نعم .. ستطلّقها الآن .

اغرورقت عينا (حافظ) بالدموع ، وهو يقول :

- لماذا يا (حسين) ؟ .. لقد استعدت كل الأرض ، فماذا تريد منها ؟

صاح به (حسين) :

- قلت لك طلّقها .

ارتجف قلب (فاطمة) ، وتطلّعت إلى زوجها ، الذى ارتجف ، وهو يقول :

- ولكنها زوجتى يا (حسين) .. زوجتى وأم طفلى الوحيد .

قال (حسين) غاضبا :

- هذه الحقيرة لا تستحق الانتماء إلى عائلة (البنهاوى) .

خفض (حافظ) عينيه ، وقال :

- لا يا (حسين) .. لا يمكننى تطليقها .

خفق قلب (فاطمة) فى قوة ، عندما نطق زوجها هذا ..

إنها لم تكن تتوقّع منه هذا الموقف ..

لم تكن تنتظر أن يواجه (حسين) ، الذى يخشاه الجميع ، بكل هذه الصلابة ..

وأن يرفض تطليقها بهذا الحزم ..

لقد قبل إعادة الأرض إلى (حسين) دون مناقشة ، ولكنه لم يقبل تطليقها ..

وتضاعف حبه فى قلبها ، مع هذا الموقف ..

تضاعف أضعافًا مضاعفة ، وهى تتمنى لو تحيط رأسه بذراعيها ، وتسنده على صدرها ، وتمنحه كل حبها وحنانها ودفئها ..

ومنحها شعورها هذا قوة ، و (حسين) يقول فى غضب :

- ستطيعنى أو أحطّم رأسك يا (حافظ) .. هيا .. طلّقها .. الآن .

اندفعت تقول فى حدة :

- من تظن نفسك يا (حسين) بك ؟ .. صحيح أنك تملك السلطة ، ولكنك لست إلهًا ، ولن يمكنك إجبار رجل على تطليق زوجته قط .

صرخ فى وجهها :

- اخرسى أيتها الحقيرة .. قتلك أفضل من انتمائك لعائلة (البنهاوى) .

أطلقت شهقة استنكار عالية ، وهتفت :

- ومالها عائلة (البنهاوى) يا (حسين) بك .. أتظنها عائلة الشرف والعفاف ؟

صاح غاضبًا :

- إنها كذلك برغم أنفك .

أطلقت ضحكة عصبية ساخرة ، وقالت :

- وما دامت كذلك ، فلماذا تتسلّل سليلة عائلة الشرف والعفاف إلى الحديقة ، فى ظلام الليل ، لتلتقى بـ (أمجد) بك .

اتسعت عينا (شريفة) فى رعب ، وعجزت قدماها عن حملها ، فتهاوت جالسة ، وحدّقت (توحيدة) فى وجهها بذهول ، فى حين انعقد

حاجبا (حسين) فى غضب هادر ، وهو يرمى (فاطمة) بنظرات مشتعلة كالحمم ، قبل أن يلتفت إلى (شريفة) ، قائلا فى ثورة :

ـ أهذا صحيح ؟

نظرة واحدة إلى وجه شقيقته ، كانت تحمل الجواب ..

كل خلجة من خلجاتها كانت تنبىء باعتراف صريح ، لا يقبل الشك ..

وعلى الرغم من هذا كرّر (حسين) بغضب الدنيا كلها ؟

ـ هل كنت تلتقين بـ (أمجد) سرا هنا ؟

أومأت برأسها إيجابا فى انهيار ، فضربت (توحيدة) صدرها براحتها ، هاتفة :

ـ أنت يا (شريفة) ؟ ..

تفجّرت الدموع من عينى (شريفة) ، وهى تقول فى انهيار :

ـ لم نرتكب أى خطأ .. إنه يريد الزواج منى فحسب ، ولقد رفض (حسين) مطلبه ، فلم يكن أمامنا سوى هذا .

صاح (حسين) ، وهو يضغط أسنانه فى غضب :

ـ يا للحقير !

ثم التفت إلى (فاطمة) ، مستطردا فى غضب مكتوم :

ـ عودى إلى حجرتك ، واعتبرى نفسك سجينة هنا ، حتى انتهى من إعادة النظام إلى العائلة كلها ، ومعاقبة من أساء إليها .

هتفت (شريفة) ، فى هلع :

ـ ماذا ستفعل به ؟ .. إنه لم يرتكب أى خطأ .. إننى ..

قاطعها بصيحة صارمة :

ـ اخرسى .. لا أريد كلمة واحدة .

اندفع نحو باب السراى ، وهو يهتف بجنديه :

ـ هيا بنا .

تبعه الجندى عدوًا ، فى حين هتفت (توحيدة) :

ـ هل ستعود ؟

التفت إليها ، وقال فى صرامة :

ـ فيما بعد .. عندما يعود كل شىء إلى مجراه .

وغادر السراى ، وقد أدرك جميع من فيه أن البركان قد ثار ، ولن يهدأ حتى تلتهم حممه الجميع ..

وبلا رحمة .

* * *

٢٤ ـ الغضب ..

مضت دقيقة كاملة من الصمت ، والأميرة (عايدة) تتبادل نظرة ملؤها الدهشة والحيرة والقلق ، مع (حسين) ، الذى لم يلبث أن قطع حبل الصمت ، قائلا :

ـ أتسمحين لى بالدخول ؟

تمتمت :

ـ عندما أخبرتنى الخادمة بوجود من يطلب مقابلتى ، لم أتصور أبدًا أنه أنت .

صمت متطلعًا إليها فى ارتياح ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، لا تعكس أبدًا ذلك البركان الثائر فى أعماقه ، فأفسحت له الطريق ، قائلة :

ـ تفضّل يا (حسين) بك .. تفضّل .

تقدم إلى الداخل فى خطوات بطيئة ، ثم التفت إليها وهى تغلق الباب ، وتأملها وقلبه يخفق فى هيام ..

لقد تغيرت بعض الشىء ، عن آخر مرة رآها فيها ، قبل رحيلها إلى (باريس) ..

صارت أكثر جمالا ونضجًا ..

وأكثر فتنة ..

وعندما التفتت تواجهه ، خفقت أجنحة قلبه ، وهو يهم بالطيران إليها ، والغوص فى بحر عينيها الواسعتين ، فتمتم بصوت متهدج :

ـ شعرت بالحاجة إلى رؤيتك .

قادته إلى حجرة الصالون فى رقة ، وهى تقول :

ـ كنت أنتظرك منذ زمن .

جلسا متقابلين ، وكلاهما يتطلع إلى الآخر فى صمت ..

وفى هذه اللحظة أيقن أنه يحبها ..

اعترف بهذا دون تردد ، مع تلك العاطفة الجياشة ، التى سرت فى عروقه ، وهو يتطلع إليها ..

وتساءل فى حيرة عن حقده القديم عليها ، وعن رغبته السابقة فى تحطيمها وإذلالها ..

تلك الرغبة التى تحطمت وتلاشت تماما ، عندما رآها أمامه منهكة مقيدة ذليلة ..

وهى أيضا سألت نفسها عن حقيقة شعورها نحوه ..

لقد كانت تتصور أنها تمقته ، وتتمنى إذلاله وإهانته ، باعتباره رمزًا لتلك الثورة ، التى انتزعت منها لقبها وثروتها وعلو شأنها يومًا ، ولكنها ، وهى تجلس أمامه الآن ، تجده شخصًا يختلف كثيرًا ، عن الصورة التى رسمها عقلها قديمًا ..

إنه مجرد رجل ..

رجل تثبت كل خلجة وكل لمحة فى جسده أنه غارق فى حبها ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ..

وما الذى تتمناه المرأة ، أكثر من هذا ؟

حتى لو كانت هذه المرأة أميرة ، فهى لن تسعد بأكثر من رجل يمنحها كل هذا الحب ..

وكل ذلك الاحترام ..

وفى خفوت ، سألته :

ـ لماذا لا تبدو بخير ؟

أجابها وهو يتنهد فى عمق :

- إننى عائد من قريتى على التو .
سألته فى اهتمامٍ :
- أتوجد مشكلات هناك ؟
أومأ برأسه متمتما :
- كالمعتاد .
التقطت من علبة سجائرها سيجارة ، وقدمت إليه أخرى . فرفضها بإشارة من رأسه ، جعلتها تسأله ، وهى تشعل سيجارتها :
- أما زلت لا تدخن ؟
أومأ برأسه إيجابا ، وقال :
- ويضايقنى مشهد المرأة المدخنة .
ترددت لحظة أمام عبارته ، وكادت تطفئ سيجارتها ، احتراما لرأيه ، إلا أن عنادها لم يلبث أن غلب عقلها ، فواصلت تدخين سيجارتها فى عمق ، وهى تقول :
- ما نوع المشكلات هذه المرة ؟
وجد نفسه يندفع قاصًا على مسامعها مشاكله كلها ، وكأنما كان ينتظر منها هذا السؤال ويتمناه ..
قصّ عليها قصته مع (عبد الحميد) و (فاطمة) ..
ومشكلة (شريفة) و (أمجد) ..
واستمعت إليه هى فى اهتمام ، ثم هزت رأسها ، قائلة :
- ولكن أية مشكلة فى موضوع شقيقتك وزميلك هذا ؟ .. إنهما يميلان إلى بعضهما البعض ، فلماذا لا يتزوّجان ؟
عقد حاجبيه فى توتر ، وهو يقول :
- لقد رفضت زواجهما من قبل .

هزت كتفيها ، قائلة فى بساطة :
- اقبله الآن .
هز رأسه فى قوة ، قائلا فى عناد غاضب :
- لا .. لن يضطرنى ذلك الحقير إلى الموافقة على ما رفضت من قبل .. إننى لن أغفر له هذا أبدا .. سأحطمه تحطيما .
قالت فى سخرية :
- وتحطّم معه بسمعة شقيقتك .
ازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :
- ماذا تعنين ؟
أجابته وهى تنفث دخان سيجارتها فى عمق :
- سينتشر الخبر حتما ، وحتى لو حاولت إخفاء الأمر ، سيعلم الجميع أن علاقة (أمجد) بـ (شريفة) ، هى السبب فى قتالك له .
صمت لحظة ، مفكرا فيما قالته ، ثم قال فى صرامة :
- ليس إلا إذا كان هناك سبب منطقى لتحطيمه .
سألته ، وقد عاودتها الرغبة فى معاندته :
- وأين ستجد هذا السبب المنطقى ؟
أجاب فى حدة :
- سأجده حتمًا .
ثم نهض دفعة واحدة ، مستطردا :
- الأمر يحتاج إلى بعض الصبر فحسب .
وذهبت صرامته بغتة ، وهو يتطلّع إليها ، قائلا :
- أهناك ما تحتاجين إليه ؟
أرادت أن تستغل الفرصة ، وتطلب منه إعادتها إلى (باريس) ، إلا أن

هذا بدا لها أشبه باعتراف بالهزيمة ، فهزت رأسها نفيا فى كبرياء ، وقالت :

ـ لست أحتاج شيئا .

ابتسم مغمغما :

ـ أراك فيما بعد .

وانصرف تاركا إياها فى حيرة من مشاعرها نحوه ، ولكن هذه الحيرة لم تلبث أن تلاشت ، وحلت محلها رغبة عارمة فى الانتصار عليه . فقفز ذهنها إلى (جان) ، وعادت تسأل نفسها مرة أخرى ..

من هذا الذى اتصل به (جان) ؟ ..

من هو ؟ ..

★ ★ ★

تطلع (مفيد) إلى ساعته فى لهفة ، وهو يجلس فى (جروبى) ، ويرفع عينيه بين لحظة وأخرى إلى الباب ، فى انتظار حضور (مديحة) ..

لقد تواعدا على اللقاء هنا ..

وهى لم تحضر بعد ..

لم يكن من عادتها أبدا أن تخلف موعدها ، وكان يقلقه فى شدة أن تفعل هذه المرة ، فراح يلتمس لها الأعذار ، متعللا بأن (القاهرة) تختلف عن القرية ، وأن بعض اختناقات المرور قد تحول بينها وبين وصولها فى موعدها ..

ولكن الوقت راح يمضى ، ويمضى ، دون أن تأتى (مديحة) ..

وتصاعدت نبضات قلب (مفيد) ، مع كل لحظة تمر ..

مع كل دقيقة ..

وكل ساعة ..

ثم انها قلبه تماما ، وكاد يتوقف عن النبض ، عندما انتبه إلى أن ساعتين قد مضتا ، على موعدها معه ..

ولم يعد هناك مبرر للانتظار ..

إنها لن تحضر حتما ..

شىء ما منعها من الحضور ..

شىء لا يدركه هو ..

وغادر (مفيد) المكان ، وهو يشعر بشعور أشبه بالذعر ..

ماذا أصابها ؟ ..

أى شىء منعها من الحضور ؟ ..

واستوقف أول سيارة أجرة صادفته ، وألقى عنوان (مديحة) لسائقها ، ثم جلس داخلها يرتجف ، من فرط انفعاله ..

كان يسترجع ذكريات تجربته السابقة معها ..

ذكريات حبهما ..

وفراقهما ..

وفى أعماقه وجد نفسه يلعن (حسين) ، الذى تسبب فى كل هذا ..

وبالكاد منع دموعه من الانهمار ، وإن غامت الدنيا أمام عينيه ، فلم يعد يرى سوى صورتها ، تطل من قلبه الحزين ..

وأخيرا بلغ العنوان ..

وبكل لهفته وتوتره ، صعد إلى حيث شقتها ، وراح يطرق بابها ..

وما من مجيب ..

وعندما ارتفع صوت طرقاته ، خرجت إليه جارتها ، وسألته فى حذر :

ـ من تريد هنا ؟

أجابها فى لهفة :

ـ عم (إسماعيل) ، وابنته الآنسة (مديحة) .

مصمصت شفتيها في حسرة ، وقالت :

ـ ليتك وصلت منذ نصف ساعة فقط .

سألها فى جزع :

ـ ماذا حدث ؟ .. هل أصابهم مكروه ؟

هزت رأسها نفيا فى قوة ، هاتفة :

ـ بُعد الشر .

ثم تراجعت وزفرت فى حرارة ، مستطردة :

ـ لقد انتقلوا من هنا ، منذ نصف الساعة فقط .

انتقلوا ..

أصابت الكلمة قلبه كقنبلة شديدة الانفجار ، واشتعل عقله وهو يستند إلى الجدار خشية السقوط ..

لقد فقد (مديحة) ..

فقدها مرة ثانية ..

★ ★ ★

انخرطت (شريفة) فى بكاء حار ، بعد رحيل (حسين) ..

لم تكن تصدق أن قصة حبها الوحيدة قد انتهت ، على هذا النحو ..

وكانت تشعر بالخوف الشديد على (أمجد) ، من انتقام (حسين) ..

ترى ماذا سيفعل به ؟ ..

أى عقاب سينزله ، بالرجل الذى منحته قلبها ؟ ..

وأية جريمة ارتكبها (أمجد) ، ليستحق هذا ؟ ..

أجريمته أنه أحبها ؟ ..

أخطيئته أن طلب الزواج منها ، على سنة الله ورسوله ؟ ..



أصابت الكلمة قلبه كقنبلة شديدة الانفجار ، واشتعل عقله وهو يستند إلى الجدار خشية السقوط ..

لماذا يفعل بها (حسين) هذا ؟ ..
لماذا هى ، من دون شقيقاتها ؟ ..
كلهن تزوّجن وأنجبن ..
حتى (ناهد) ..
حتى شقيقتها الصغرى ..
فلماذا هى ؟ ..

وعلى الرغم من دموعها ، التى تتفطر لها القلوب ، هتفت بها (توحيدة) فى غضب :

ـ أنت يا (شريفة) ؟! .. أنت تفعلين هذا ؟

صاحت بها (شريفة) :

ـ وماذا فعلت ؟ .. إننى لم أرتكب خطيئة .

هتفت بها (توحيدة) :

ـ بل ارتكبت .. التقيت بشاب غريب ، من خلف ظهورنا جميعًا ، وجعلت جربوعة مثل ابنة (عبد الحميد) تطعننا بك .

بكت (شريفة) ، وهى تقول :

ـ أمِن العار أن أحبّ وأتزوّج ؟

أجابتها فى صرامة :

ـ بل من العار أن تحبى دون زواج .

صاحت معترضة :

ـ فليوافق (حسين) على زواجنا إذن .

أجابتها (توحيدة) فى حدة :

ـ لن يوافق بعد ما حدث .

صرخت :

ـ لماذا ؟

صاحت (توحيدة) :

ـ لأن الناس ستقول إنه قبل زواجكما درءًا لفضيحة ما .

صرخت (شريفة) :

ـ فلتقطع ألسنتهم .. من يجرؤ على القول ؟

أجابتها (توحيدة) :

ـ (فاطمة) على الأقل .

صاحت (شريفة) :

ـ تلك الحقيرة .. سأقطع لسانها لو ..

قاطعها صوت (فاطمة) ، وهى تقول فى خشونة :

ـ لو ماذا يا سليلة الحسب والنسب ؟ .. هل ادعيت عليك شيئًا كذبًا ؟

أجابتها (شريفة) فى غضب :

ـ أنت سبب البلاء كله .

هزّت (فاطمة) وسطها الغليظ ، وقالت :

ـ لماذا يا سيّدة الدار ؟ .. هل كذبت ، أم خدعت ؟ .. إننى يا حلوة زوجة أمينة مخلصة ، لم أخن زوجى قط .

صاحت بها (توحيدة) :

ـ بل أنت سارقة حقيرة .. أنسيت سرقتك للعقد ، ومحاولتك لسرقة أرضنا ؟

عقدت (فاطمة) حاجبيها الكثين ، وقالت :

ـ لا .. لم أنس هذا .

ثم استدارت ، ودخلت إلى حجرتها ، وصفقت بابها خلفها فى عنف ، فهبّ (حافظ) من نومه ، صائحًا فى فزع :

- ماذا حدث ؟

اقتربت منه ، وربتت عليه فى حنان ، وهى تقول :

- لا شىء يا (حافظ) .. واصل نومك .. لم يحدث شىء .

سألها وهو يعود إلى نومه فى اطمئنان :

- ظننت أحدهم يقتحم الحجرة .

أجابته فى خلوت :

- لا أحد يجرؤ على هذا .

ثم أضافت فى غضب :

- ويومًا ما ستجدهم جميعًا هنا ، يطلبون رضاك .. وسترى .

وفى أعماقها برز سؤال ضخم ..

أيمكن أن يأتى هذا اليوم حقًا ؟..

وبقى السؤال دون جواب ..

فى الوقت الحالى على الأقل ..

* * *

٢٥ - الضياع ..

على الرغم من مرور أسبوعين على لقاء (مفيد) بـ (مديحة) ، إلا أن (سوسن) لم تذرف بعد قطرة دمع واحدة ..

ولم تلتق بـ (مفيد) ..

إنه لم يحاول الذهاب إليها ، والاعتذار حتى عن موقفه ، وكأنه نسى وجودها تمامًا ، مع ظهور (مديحة) ..

والعجيب أنها استسلمت للأمر تمامًا ، كما لو لم يكن يعنيها ..

صحيح أنها سألت فى البداية عن (مفيد) ، وعلمت أنه أصبح يستقل قطار الفجر إلى (القاهرة) ، وأنه حصل على إجازة طويلة من عمله ، ولكنها لم تعد تسأل بعد هذا ..

تقبلت مصيرها فى استكانة ، دون أن تقاوم، أو تدافع عن حبها ..

كانت تعلم أنها الخصم الأضعف فى هذا الصراع ..

(مفيد) نفسه أعلن هذا ، وحسم الأمر ، عندما نسى وجودها ، مع ظهور (مديحة) ..

وفى آلية ، واصلت حياتها ، وكأن شيئًا لم يكن ..

ولكن الجميع شعروا بما أصابها ..

الجميع انتبهوا إلى أن (سوسن) لم تعد كما كانت ..

صحيح أنها تحضر فى نفس الموعد ، وتستقل نفس القطار ، وتتناول نفس الأطعمة ، ولكن كل هذا كان يفتقر إلى شىء هام ..

إلى الروح ..

كل أفعالها كانت خالية من الروح والمشاعر ..
لم تعد تبتسم ..
أو حتى تتجاوب مع الآخرين ..
وذات يوم ، سألتها إحدى زميلاتها :
ـ ماذا أصابك يا (سوسن) ؟
التفتت إليها (سوسن) ، وسألتها بلهجة خاوية من أية انفعالات :
ـ وماذا أصابنى ؟
أجابتها زميلتها مشفقة :
ـ إنك تبدين كما لو أن شيئا فى العالم لم يعد يهمك .. أين مرحك المعهود ؟ .. أين سعادتك كلما تحدثت عن خطيبك ؟ وبالمناسبة .. أهو سبب كل هذا ؟
لم تجب (سوسن) ..
لم تشعر بالرغبة فى أن تجيب ..
وفى لامبالاة ، تركت زميلتها ، دون أن تمنحها جوابًا ، وعادت تواصل عملها فى هدوء ..
وحتى فى منزلها ، بكت والدتها طويلا ، وهى تسألها :
ـ ماذا أصابك يا (سوسن) ؟ .. أخبرينى يا بنيتى .. أرجوك .
أجابتها فى هدوء شديد :
ـ لم يصبنى شىء يا أماه .. أؤكد لك .
سألتها أمها فى حزن :
ـ لماذا لم يعد (مفيد) يأتى لزيارتنا إذن ؟ .. هل تشاجرتما ؟
هزت (سوسن) رأسها نفيًا ، وقالت :
ـ صدقينى يا أمى .. لم نتشاجر .. لم نتشاجر قط .

جفف والدها دموعه ، وقال لأمها سرًا :
ـ هناك خلاف بينهما .. هذا واضح للغاية .
وعندما اختلى بأمها فى حجرتهما ، قال فى حزن وحسم :
ـ سأذهب إليه .
لم تعترض الأم ، على الرغم من أن هذا يخالف التقاليد ، التى نشأت عليها ..
لم تعترض ، لأن الشىء الوحيد ، الذى كان يهمها ، هو ابنتها .. ابنتها فقط ..

★ ★ ★

رفع (مراد صقر) عينيه إلى (حسين) ، وهو يقول له فى صرامة :
ـ تعال يا (حسين) .
اقترب منه (حسين) ، حتى وقف فى مواجهته تماما ، وقال :
ـ أمرك يا (مراد) بك .
سأله (مراد) فى اهتمام :
ـ ما أخبار رجلك فى (إسرائيل) ؟
أجابه (حسين) :
ـ رجل (عبد المحسن) بك أرسل تقريرا شفويًا هاما ، يقول فيه أنه واثق من وجود اتصالات فرنسية بريطانية مع المسئولين فى (إسرائيل) ، ولكنه لم يؤيد هذا بأية وثائق ، أما الرجل الذى زرعناه نحن ، فهو فى موقع أفضل ، يتيح له الحصول على المعلومات والوثائق المطلوبة ، ولكنه يعجز ـ فى الوقت الحالى ـ عن الخروج من (إسرائيل) ، ولا توجد وسيلة للحصول على مالديه من معلومات .
قال (مراد) فى صرامة :

- لا وجود لهذه العبارة فى عالمنا يا (حسين) .. ابحث عن وسيلة للحصول على المعلومات ، حتى لو اضطررت إلى إرسال أحد رجالنا إلى (إسرائيل) ، لمقابلة عميلنا هناك ، والحصول منه على المعلومات المطلوبة .

برقت عينا (حسين) ، مع سماعه الجملة الأخيرة ، وقال :

- سنفعل يا (مراد) بك .. سنجد الوسيلة حتما .

ثم انصرف من حجرة (مراد صقر) فى سرعة ، فالتقى حاجبا (مراد) فى كراهية ، وغمغم :

- نعم إفعل يا (حسين) ، فقد تكون هذه آخر عملياتك معا .

والتقط سماعة هاتفه ، وطلب رقما خاصا ، وقال :

- مساء الخير يا سيادة المشير .. إنه أنا .. (مراد صقر) .. كيف حالك أنت ؟ .. شكرا لك .. اعذرنى ، فما سأخبرك به سيضايقك بعض الشىء .

ثم اعتدل ، مستطردا :

- لا .. إنه أحد رجالى .. ولقد قام بهذا العمل القذر لحسابه الخاص .. بالطبع .. سأخبرك ..

وابتسم فى خبث مظفر ، وهو يردف :

- سأخبرك بكل التفاصيل .

أما (حسين) ، فقد عاد إلى مكتبه ، وهو يفكر فى عمق ، والتقى هناك بـ (صلاح) ، الذى سأله بخبثه المعتاد :

- هل كان اللقاء مع (مراد) بك جيدًا ؟

أجابه (حسين) فى شرود :

- نعم .. كان يقترح إرسال أحد رجالنا إلى (إسرائيل) ، للحصول على المعلومات ، من عميلنا هناك .

هتف (صلاح) :

- إلى (إسرائيل) ؟! .. ولكن هذا خطأ عمليًا يا (حسين) بك ، فالموقف الآن مشتعل ، و (إسرائيل) تفكر فى التدخل عسكريًا ، وهذا يعنى أنهم سيكونون شديدى الحذر هناك ، ومن العسير التسلل وسط صفوفهم ، والأفضل أن يحاول عميلنا الاتصال بعميل (عبد المحسن) بك هناك ، وينقل إليه المعلومات المطلوبة .

ابتسم (حسين) فى شرود ، وهو يقول :

- ولكن (مراد) بك طلب إرسال أحد رجالنا هناك ، وعلينا تنفيذ أوامره .

أدرك (صلاح) على الفور أن (حسين) يخطط لشىء ما ، فمال نحوه ، يسأله :

- هل تقترح رجلا بعينه يا سيدى ؟

صمت (حسين) لحظات ، ثم التفت إليه ، قائلا :

- (أمجد) .

تألقت عينا (صلاح) ، وتراجع متطلعا إلى (حسين) فى دهشة ، قبل أن يقول فى خبث .

- ولكنها مهمة بالغة الخطورة ، وقد لا يعود المكلف إياها قط .

هز (حسين) كتفيه ، وقال :

- سيكون هذا قدره .

ارتسمت على شفتى (صلاح) ابتسامة خبيثة كبيرة ، وهو يقول :

- أهذا بسبب الآنسة (شريفة) ؟

التفت إليه (حسين) فى حركة عنيفة ، وانعقد حاجباه فى غضب ، فقال (صلاح) فى سرعة :

- إنها أول مرة أذكر فيها هذا لأى مخلوق .

ظلّ (حسين) يتطلع إليه لحظات فى غضب ، ثم أشاح بوجهه ، قائلا فى صرامة :

ـ اتصل بـ (أمجد) .. وقل له أن يستعد للسفر على الفور .

ثم انعقد حاجباه فى صرامة أكثر ، وهو يستطرد :

ـ إلى قلب (إسرائيل) ..

★ ★ ★

ـ هناك من يطلب مقابلتك ياعم (اسماعيل) ..

ارتجف جسد (إسماعيل) فى قلق ، عندما سمع عبارة زميله ، وترك الأوراق المعدّة للطباعة ، واتجه فى خطوات متوترة إلى حجرة الانتظار ، ولم يكد يعبر بابها ، حتى تجمد فى مكانه ، وتمتم فى لهجة أقرب إلى الارتياع :

ـ (مفيد) بك .

تطلع إليه (مفيد) بوجه شاحب ، وعينين زائغتين ، ونهض هاتفا فى لهفة :

ـ عم (إسماعيل) .. أخيرا وجدتك .

تهالك (إسماعيل) فى استسلام ، واتجه فى خطوات أشبه بالزحف ، إلى حيث يقف (مفيد) ، وجلس إلى جواره ، وهو يقول فى خفوت يعكس مرارته :

ـ كيف عثرت علىّ ؟

أمسك (مفيد) يده ، وهو يقول :

ـ (مديحة) أخبرتنى أنك تعمل فى مجال الطباعة ، فى جريدة (الأهرام) ، فذهبت أبحث عنك هناك ، وعلمت منهم أنك تركت العمل ، فجبت الصحف ومطابعها ، حتى عثرت عليك هنا .

ثم أردف فى ضراعة :

ـ كيف حال (مديحة) ؟

تطلع إليه (إسماعيل) لحظات ، ثم أشاح بوجهه ، قائلا :

ـ انس (مديحة) ياولدى .

هتف (مفيد) فى ارتياع :

ـ أنساها ؟! .. كيف تطالبنى بهذا ياعم (إسماعيل) ؟ .. ألا تعلم ما الذى يربطنى بها ؟

صاح به (إسماعيل) .

ـ ألا تدرك أنت كم أعول غيرها ؟

ثم انتبه إلى تصاعد صوته ، فعاد يخفضه ، وهو يتمتم :

ـ اسمع يا ولدى .. سأحصل على إذن بالانصراف ، ونخرج للتحدث فى مكان آخر ، فمن الخطر أن يسمع بعضهم ماسنناقشه .

أجابه (مفيد) فى استسلام :

ـ كما ترغب يا عم (إسماعيل) .. كما ترغب .

حصل (إسماعيل) على الإذن المطلوب ، وغادر مبنى الصحيفة مع (مفيد) ، وهو يقول :

ـ ارحمنا يا ولدى .. ارحم أسرة عانت الكثير ، لمجرّد أنك تحب واحدة من أفرادها .

قال (مفيد) فى ألم :

ـ لماذا تتحدث إلىّ وكأننى شيطان رجيم يا عم (إسماعيل) ؟ .. أننى لا أطلب سوى ما حلله الله (سبحانه وتعالى) ..

أومأ الرجل برأسه إيجابا ، وقال فى مرارة :

ـ أعلم يا ولدى .. أعلم ، ولكن هذا الحلال يراه شقيقك حراما .

صاح (مفيد) :

- لن يحرمنى (حسين) من (مديحة) مرة أخرى .. سأتصدى له بكل قواى هذه المرة .

هز (إسماعيل) رأسه ، وقال :

- من الواضح أنك تجهل الكثير عن شقيقك وسلطاته يا ولدى .. إنك لن تنجح فى التصدى له قط .

قال (مفيد) فى عناد :

- بل سأنجح .. سأنجح بإذن الله .

هتف به (إسماعيل) :

- على جثة من؟ .. قد يمكنك التصدى لشقيقك ، والتشاحن معه .. بل قد يمكنكما أن تتشاجرا بالأيدى ، ولكننا - أنا وأسرتى - سنكون ضحية هذا الصراع .. (حسين) بك سيسحقنا بقدمه ، فى طريقه للصراع معك .

قال (مفيد) فى حدة :

- لن يمكنه هذا .

ابتسم (إسماعيل) فى مرارة ، وهو يقول :

- ولكنه فعل من قبل مرة .. فما الذى أمكنك فعله حينذاك ؟

كانت العبارة أشبه بصفعة على وجه (مفيد) ، ألجمت لسانه ، ومنعته من النطق لحظات ، قبل أن يتمتم :

- لم أجد الوقت للتصدى له حينذاك .

أجابه فى أسى :

- ولن تجده هذه المرة أيضا .

ثم واجهه فى حزن ، قائلا :

- أرجوك يا (مفيد) بك .. أرجوك .. لا تحطم أسرة كاملة ، لمجرد أنك تحب (مديحة) .. صحيح أنك مستعد لفعل المستحيل من أجلها ، وهى

أيضا مستعدة لتحدى العالم من أجلك ، ولكن هذا يعد تفكيرا أنانيا محضا ، لو أن التقاءكما سيدمر حياتى وحياة أسرتى كلها .. وهى أسرة (مديحة) فى الوقت ذاته .. حتى ضميرها لن يحتمل ما سيحدث ، وستعتبرك المسئول عن هذا إلى الأبد ، حتى ولو لم تصرح لك بهذا .

انهار (مفيد) ، وهو يقول فى لهجة أقرب إلى البكاء :

- ولكننى أحبها .

قال (إسماعيل) فى مرارة :

- ولكن شقيقك يرفضها يا ولدى .. ويرفضنا بالتالى ، وسيكون ثمن زواجكما فادحا .. سيكون أكثر هولا مما تتصور .

ثم أمسك كف (مفيد) ، وأضاف متوسلا فى ضراعة شديدة :

- انسها يا ولدى .. أرجوك .. أقبل يديك .

قالها وانحنى بالفعل لتقبيل يديه ، ولكن (مفيد) سحبهما فى سرعة ، قائلا :

- أستغفر الله العظيم يا عم (إسماعيل) .. أستغفر الله العظيم

انهمرت الدموع من عينى الرجل ، وابتعد منهارا ، وكأنما تضاعف عمره عشرات السنين ، فى هذه الدقائق ، التى قضاها مع (مفيد) ، أو كأنما ناء كتفاه بحمل أنهكهما ، فانحنى ظهره فى تهالك ..

أما (مفيد) ، فقد احتواه فجأة شعور بالضياع ..

مستحيل أن يكون هذا ما حدث !! ..

مستحيل أن يجد (مديحة) ويفقدها مرة ثانية ، على هذا النحو ..

هل بلغت سطوة (حسين) هذا الحد ؟ ..

هل بلغ الظلم ذلك القدر ، الذى يحرم حبيبين من التلاقى والزواج ؟ ..

أى زمن هذا ؟ ..

بل أية دولة ؟ ..

وفى ضياع تام ، اتخذ طريقه إلى محطة القطار ، وكأنما تقوده يد خفية ، وضعته داخل القطار ، وأيقظته من شروده فى محطة (طنطا) ، فغادر القطار كالنائم ، واستقل واحدة من سيارات الأجرة إلى قريته ، دون أن تفارق المرارة حلقه ..

لقد علم ما فعله (حسين) بـ (حافظ) و (فاطمة) ..

وعلم قبلها بكل ما يفعله (حسين) بمن يعارضه ..

ولكن مرارته لم تبلغ قط هذا الحد ..

حتى فى المرة السابقة ، عندما حرمه (حسين) من (مديحة) ، لم يكن يشعر بكل هذه المرارة ..

بل كان يشعر بالقهر ..

أما فى هذه المرة ، فهو لا يشعر إلا بالمرارة ..

ربما يشعر بها ؛ لأن (مديحة) كانت قاب قوسين أو أدنى منه ، عندما انتزعها منه الظلم هذه المرة ..

الظلم الذى حطم الكبرياء فى النفوس ، وسلب النفس إيمانها وأمنها ..

وعندما غادر السيارة ، على مشارف القرية ، كان يبدو أكثر شحوبا وتهالكا من عادته ، فهتف به (جودة) :

ـ مساء الخير يا (مفيد) بك .. تفضل يابك .. تفضل .

تطلع إليه بنظرات خاوية ، ثم وجد قدميه تقودانه إلى المقهى ، حيث استقبله (جودة) فى ترحاب شديد ، وأفرد له مائدة خاصة ، فى ركن شرفة المقهى ، وجلس أمامه ، يسأله فى خبث :

ـ ماذا بك اليوم يا بك ؟ .. لست تبدو على ما يرام .

تمتم (مفيد) ، فى صوت يكاد يقطر بدموع المرارة :

ـ لا شىء يا معلم (جودة) .. لا شىء .

ردد (جودة) فى دهاء :

ـ لا شىء ؟! .. لا تقل هذا يا (مفيد) بك .. إننا أولاد بلد ، ونفهم الحزن من رائحته .

وجذب نفسا عميقا من نرجيلته ، وأطلقه فى الهواء الطلق ، ثم مال نحو (مفيد) ، مستطردا :

ـ ما رأيك فيمن يزيل أحزانك فى لحظات ؟

ابتسم (مفيد) فى مرارة ، وغمغم :

ـ كيف ؟

أدار (جودة) يديه فى الهواء بحركة مسرحية ، ثم دس أصابعه فى جيب صديريته ، وأخرج منه سيجارة ذات طرف رفيع ، قدمها إلى (مفيد) ، قائلا بابتسامة ملؤها المكر والدهاء :

ـ بهذا .. هذا هو الشافى الوافى ، من جميع الأمراض .

تطلع (مفيد) إلى السيجارة ، قائلا فى دهشة :

ـ السيجارة ؟!

هز (جودة) رأسه نفيا ، وهو يبتسم قائلا :

ـ إنها ليست سيجارة عادية ، فهى لا تحوى مجرد التبغ ، بل هناك مع التبغ ذلك الدواء الجديد ، الذى تزيل أبخرته الأحزان والهموم .

أدرك (مفيد) ما يقصده (جودة) ، وارتجف فى خوف ..

لقد رأى العديدين يدخنون ذلك الدخان الأزرق ..

رآهم وقد ذهبت عقولهم ، وذهبت معها كرامتهم ورصانتهم ..

رأى رجال تهتز لهم المجالس ، وهم يترنحون ، ويسقطون ..

وفى حزم هب واقفا ، وهو يقول :

ـ لا .. لا يا (جودة) .

قال (جودة) بابتسامته الماكرة :

ـ جربه مرة واحدة فحسب .

لوّح (مفيد) بكفه فى قوة ، هاتفًا :

ـ لا .. لا .

واندفع مغادرا المقهى فى سرعة ، وكأنما يفرّ من شيطان رجيم ، ومن خلفه هتف (جودة) ضاحكا :

ـ لا بأس يابك .. ستجدها فى انتظارك ، فى أى وقت .

واصل (مفيد) سيره بسرعة ، متجهًا نحو سراى والده ، ولم يكد يبلغه ، حتى استقبلته (شريفة) ، وهى تهمس فى عصبية :

ـ لماذا تأخرت يا (مفيد) ؟ .. الرجل ينتظرك منذ زمن .

سألها فى حيرة وقلق :

ـ أى رجل ؟

نهض والد (سوسن) واقفًا ، وهو يقول :

ـ أنا يا ولدى .

واتسعت عينا (مفيد) فى هلع ..

الآن فقط تذكّرها ..

بعد أسبوعين كاملين ، تذكّر (سوسن) ..

وانهار قلبه فى هذه المرة ..

انهار بحق .

* * *

٢٦ ـ صدمة ..

استقبلته (سوسن) فى هدوء شديد ، لم يكن يتوقعه منها أبدا ..

كان هو يرتجف من فرط الخجل ، فى حين لم ترتجف ذرة واحدة من كيانها الظاهر ، وهى تصافحه قائلة :

ـ صباح الخير يا أستاذ (مفيد) .

ارتبك وهو يتمتم :

ـ صباح الخير يا (سوسن) .

أشارت إليه بالجلوس ، قائلة :

ـ تفضل .. ألم تذهب إلى عملك اليوم ؟

أجاب وهو يتحاشى النظر إلى عينيها :

ـ اليوم الأحد كما تعلمين .

جلست على المقعد المقابل صامته ، تتطلع إليه فى هدوء ، وكأنها تنتظر منه بدء الحديث ، فداعب أصابعه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ كيف يمكننى أن أعتذر ؟

سألته فى هدوء :

ـ عن ماذا ؟

أدهشه قولها ، فرفع عينيه إليها ، ورأى ملامحها جامدة مبهمة ، على الرغم من شحوبها الواضح ، وأضاف فى حيرة :

ـ عن ذلك الموقف .

سألته بنفس الجمود :

- أى موقف ؟

كان أسلوبها يربكه أكثر وأكثر ، ويدفعه إلى التلعثم ، وهو يقول :

- موقفى مع (مديحة) .. أرجوك أن تقدّرى هذا .. لقد رأيتها فجأة ، ولم أستطع كتمان مشاعرى ، و ..

قاطعته فى هدوء :

- إننى أقدّر هذا .

قال فى توتر :

- لقد شرحت لك علاقتى بـ (مديحة) ، بكل تفاصيلها ، ومن الضرورى أن تقدّرى ما حدث .. لقد كانت فرصة نادرة أن أراها ، ومصادفة يمكن ألا تتكرّر أبدا .

قالت :

- بالطبع .

فرك أصابعه بعصبية أكثر ، وهو يقول :

- كان من الضرورى أن أتحدث إليها ، وأن أعرف ما حدث منذ افترقنا .

سألته فى هدوء :

- وهل عرفت ؟

لم يعد يحتمل هذا الأسلوب ، فصاح فى عصبية :

- (سوسن) .. لماذا تتحدثين معى بهذه الطريقة ؟

ظلت ترمقه بنظرة باردة خاوية ، ثم قالت فى هدوء :

- هل يضايقك أسلوبى هذا ؟

قال فى حدّة :

- يضايقنى كثيرا .

مالت نحوه قليلا ، وهى تسأله :

- وماذا عن أسلوبك أنت ؟

ارتجف للسؤال ، وارتبك وهو يجيب :

- أسلوب الحديث ؟

قالت فى صرامة :

- بل أسلوب التعامل معى .

لم ينبس ببنت شفة ، وهو يشعر فى أعماقه بفداحة الخطأ ، الذى ارتكبه فى حقها ، فتابعت فى شىء من الحدة :

- لقد كنت تسير معى ، ودبلتى تتوسط أصابعك ، ثم رأيت حبيبتك القديمة ، فتركتنى فجأة ، دون حتى أن تعتذر ، وهرعت إليها ، وأمسكت يدها فى حب وحنان ، دون أن تهتم بمشاعرى ، أو تشعر حتى بوجودى ، وسرت معها مبتعدين ، وكأننى لم أكن ، وغبت أكثر من أسبوعين كاملين ، دون أن تعتذر ، ودون حتى أن تحاول شرح موقفك ، وبعدها تأتى بعد زيارة والدى لك ، وتقول أنك آسف .. أتجد هذا كافيًا ؟

ردد والخجل يكاد يلتهم كلماته :

- إننى أعترف بالخطأ .

قالت وحدة كلماتها تتصاعد :

- بعد أسبوعين أو أكثر .

قال فى عصبية :

- يمكننا أن ننسى ما حدث ، وأن ..

هتفت فى استنكار :

- ننساه ؟! .. أمن السهل أن تنسى مشاعرك ؟ ..

ثم تراجعت ، قائلة فى حدة :

- وماذا لو كان الأمر عكسيًا ؟

رفع عينيه فى دهشة ، قائلا :

- ماذا تعنين ؟

قالت غاضبة :

- ماذا لو أننى أنا التى تركتك فى منتصف الطريق ، وهرعت إلى حبيب قديم ، ووضعت يدى بين أصابعه ، وتجاهلتك تماما ، وأنا أمضى معه ؟ .. أكنت تغفر لى هذا ؟

انتفض جسده لهول الصورة بالنسبة إليه ، وهتف فى ارتياع :

- ماذا تقولين يا (سوسن) ؟

هتفت :

- أرأيت ؟ .. إنك حتى لم تحتمل الفكرة .. ماذا عنى أنا إذن ، وقد عايشت كل لحظة منها ؟!

كان انفعالها يتفجر لأول مرة ، منذ وقع الأمر ، فراح جسدها يرتعد ، وهى تتابع :

- هل لك أن تفسر لى سر اختفائك التام ، طوال هذه المدة ؟ أهو الخجل ، أم النسيان ؟

اعترف فى قرارة نفسه أن السبب هو النسيان ..

لقد نسيها بالفعل ، فى غمرة توتره وانفعاله ، وبحثه عن (مديحة) لثانى مرة ..

نسيها تماما ..

ولكن كيف يعترف بهذا ؟ ..

كيف يعترف لها أنه نسيها ؟ ..

وفى خفوت ، قال :

- (سوسن) .. صدقينى .. لم أكن أدرك ما أفعل .. كانت مشاعرى كلها مضطربة ، متوترة ، وكانت الحيرة تملأ نفسى ، و ..

أسكتته فى صرامة :

- لا تعتذر يا (مفيد) .. الأمر لا يستحق الاعتذار .. لقد واجهت لحظة اختيار فحسب ، وأصدر قلبك حكمه بشأنها .

ردد فى حيرة :

- لحظة اختيار .

أجابته فى كبرياء :

- بالطبع .. كنت تسير معى ، ثم رأيت (مديحة) ، وكان عليك أن تختار فى حزم ، بينى وبينها ، فاخترتها دون تردد .. بل ونسيتنى تماما فى الوقت نفسه .

غمغم فى صعوبة :

- الأمر ليس بهذه الصورة .

قالت فى حدة :

- بل هو كذلك ، ولكنك تأبى الاعتراف بالحقيقة .

قال فى توتر :

- (سوسن) .. ما رأيك لو نبدأ من جديد ؟

رمقته بنظرة صامتة طويلة ، ثم سألته بغتة :

- لماذا عدت يا (مفيد) ؟

ارتبك لسؤالها ، وأجاب :

- عدت من أجلك يا (سوسن) .

سألته :

- وأين (مديحة) ؟

كان بمكنه أن يكذب ، وأن يدعى أنه اختارها هى ، وأن قلبه رفض (مديحة) ، ولكنه عجز عن قول هذا ، ووجد نفسه يقول فى خفوت وعيناه تنخفضان أرضا :

- لقد فقدتها مرة ثانية .

رفعت رأسها فى كبرياء ، ورمقته بنظرة نارية طويلة ، قبل أن تقول فى صرامة :

ـ بل فقدتنا معا يا (مفيد) .

هتف فى ذعر :

ـ ماذا تعنين ؟

نهضت من مقعدها ، واتجهت إليه ، وخلعت دبلته من إصبعها ، ووضعتها أمامه قائلة فى حزم :

ـ لقد انتهى كل شىء يا (مفيد) .

هتف :

ـ لا يا (سوسن) .. أرجوك .

أدارت ظهرها له ، وهى تقول فى صرامة :

ـ كل شىء قسمة ونصيب يا أستاذ (مفيد) .

نهض وهو يردد :

ـ (سوسن) .. لا تفسدى كل شىء .

ترقرقت عيناها بالدموع لأول مرة ، منذ بدأت المشكلة ، وهى تهز رأسها ، قائلة :

ـ لقد فسد كل شىء بالفعل يا (مفيد) .. فسد ولم يعد يصلح مرة ثانية .

كان يعلم أنها على حق ..

ولهذا لم يناقش ..

التقط دبلتها فى استسلام ، وغادر المكان فى صمت ..

وهنا ..

هنا فقط انفجرت (سوسن) باكية ..

وفى لوعة هرعت أمها إليها ، وضمتها إلى صدرها ، وقلبها يبكى حزنا من أجلها ..

ومن وسط دموعها الحارة الغزيرة ، هتفت (سوسن) :

ـ لقد انتهى كل شىء يا أمى .. انتهى .

وانتقلت الدموع إلى قلبها ..

★ ★ ★

ابتسم (ابراهيم مكى) فى سخرية ، وهو يتطلع الى (حسين) ، هاتفا :

ـ أرسلته إلى (إسرائيل) ؟! .. أهذه وسيلتك للتخلص منه ؟

أجابه (حسين) فى حزم :

ـ إنها ضربة مزدوجة . فلو فشل فى مهمته ، سيلقى الإسرائيليون القبض عليه ، وتكون فى هذا نهايته ، أما لو نجح ، فستكون ضربة رائعة ، ويحصل على ترقية استثنائية ، ويصبح بهذا مؤهلا للزواج من شقيقتى .

تلاشت ابتسامة (إبراهيم) الساخرة ، وهو يقول :

ـ يا إلهى ! .. لقد أصبحت خبيرا .

ابتسم (حسين) فى ثقة ، وقال :

ـ تلميذك يا (ابراهيم) بك .

شعر (إبراهيم) ـ لأول مرة ـ بالخوف ، من هذا التقدم الهائل ، الذى يحرزه (حسين) ، فى مجال التآمر والتخطيط ، وغمغم فى خفوت :

ـ من الواضح أنك تتعلم بسرعة .

تطلع إليه (حسين) فى استخفاف ، وقال :

ـ أسرع مما تتصور يا صديقى .

ران عليهما الصمت لحظات ، قبل أن يسأله (إبراهيم) . وكأنه يتعمد إبدال موضوع الحديث :

ـ هل التقيت بـ (عايدة) مرة أخرى ؟

هز (حسين) رأسه نفيا ، وقال :

ـ لا .. ليس بعد تلك المرة ، التى أخبرتك عنها .

سأله (إبراهيم) :

ـ وماذا تنوى أن تفعل بها ؟

تنهد (حسين) ، وقال :

ـ لست أدرى .

ثم استدرك فى حزم :

ـ ولكننى لن أعيدها إلى (باريس) على الأقل .. ليس فى الوقت الحالى .

سأله (إبراهيم) فى خبث :

ـ هل تفكر فى الزواج منها ؟

صمت (حسين) قليلا ، ثم أجاب :

ـ لم أحسم رأيى فى هذا الشأن بعد .

كان من الواضح أن الحديث فى هذا الأمر لا يروق له ، ولقد أدرك (إبراهيم) هذا بحاسته المرهفة ، فقال :

ـ وماذا عن (عبد الحميد) ؟ .. ماذا تنوى أن تفعل به ؟

انعقد حاجبا (حسين) فى صرامة غاضبة ، وهو يقول :

ـ سأحطمه .

سأله (إبراهيم) فى جذل ، وكأن مثل هذه الأمور تروق له :

ـ كيف ؟

ضمّ (حسين) قبضته ، وهو يقول :

ـ سأسلبه كل ما منحته إياه ، ثم ..

اعتصر قبضته فى غضب ، مستطردا :

ـ أسحقه .

سأله (إبراهيم) :

ـ ولماذا لم تفعل حتى الآن ؟

برقت عينا (حسين) فى شراسة ، وهو يقول :

ـ لأن الانتظار يحطم أعصابه أكثر ، فهو يعلم الآن أننى سأنتقم منه حتما ، وانتظار هذا الانتقام أسوأ من وقوعه بالفعل .

ردّد (إبراهيم) :

ـ ، وقوع البلاء ولا انتظارْه .. أليس كذلك ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا ، وانعقد حاجبا (إبراهيم) فى شدة ..

لقد صار (حسين) خبيرًا بالفعل .

بل صار أكثر خبرة منه هو ..

كم سيكون الصراع عنيفا ، لو التقيا مرة أخرى كخصمين فى الساحة ؟

هذا لو عاد هو إلى عمله ..

ولو اكتسب (حسين) مزيدًا من الخبرة ..

أراد (إبراهيم) أن ينفض تلك الفكرة عن رأسه ، فسأله ، محاولا البحث عن موضوع جديد ، بعيد عن كل الأحداث :

ـ قل لى : هل ستحتفلون بعيد ميلاد (طارق) ، كالعام السابق ؟

هزّ (حسين) رأسه نفيا ، وقال :

ـ لا .. والداه لا يستحقّان هذا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- كما أنّ الأمور تزداد التهابا .

سأله (ابراهيم) :

- كيف ؟

أجابه فى اهتمام :

- القرار الذى أصدره مجلس الأمن ، فى الخامس من هذا الشهر ، كان يمكنه أن يحلّ المشكلة ، ولكن (بريطانيا) و (فرنسا) أفسدتا الأمر ، والجميع يتوقعون أن يكون شهر (أكتوبر) هذا حافلا بالأحداث .

وكالعادة ، اكتفى (حسين) بهذا القول ، دون أن يكشف أية أسرار تتعلق بعمله ، ولكن (ابراهيم) كان مصرًا على معرفة المزيد هذه المرة ، فسأله :

- وماذا عن التقارير الواردة من (إسرائيل) ؟

لم يجب (حسين) ، ولم يلتفت إليه ، بل قال فى هدوء ، وكأنه لم يسمع السؤال :

- أتحب تناول قدح من الشاى ؟

كان فى الواقع مخلصا لعمله ، على الرغم من كل عيوبه ، وكان يصرّ دائما على كتمان كل مالديه من أسرار ، حتى عن أقرب المقربين إليه ..

ولكن (ابراهيم) كان أشد عنادا وخبثا ، لذا فقد قال وهو يبتسم :

- ليس الآن .. أخبرنى أولا : ما موقف الإسرائيليين حتى الآن ؟

هزّ (حسين) كتفيه ، وقال :

- لم يعلنوا موقفا رسميًا حتى الآن .

كان تهربًا رائعا من الجواب ، حتى أنه أثار إعجاب (إبراهيم) نفسه ، فقال مبتسما :

- هكذا ؟!

لم يكد ينطق كلمته ، حتى ارتفع رنين الباب على نحو متصل ، جعل (حسين) يعتدل قائلا فى قلق :

- من هذا الطارق المتعجّل ؟

فى حين هرع خادمه إلى الباب ، وفتحه ، ثم تراجع فى حركة حادة ، فنهض (حسين) من مقعده ، قائلا :

- من الطارق .

فوجىء برجلين يدخلان الردهة ، وهما يرتديان الزى الخاص برجال الحرس الجمهورى ، وواجهه أحدهما قائلا :

- (حسين) بك .. لدى أوامر مشدّدة بحملك إلى السيّد الرئيس ، بأسرع وسيلة ممكنة .

شحب وجه (حسين) ، وهو يغمغم :

- الرئيس (جمال) ؟!

أجابه ضابط الحرس الجمهورى فى صرامة :

- ومن غيره .. إنها أوامر سيادة الرئيس (جمال) .. (جمال عبد الناصر) .

وارتجف قلب (حسين) بين ضلوعه ..

وكذلك قلب (إبراهيم مكّى) ..

* * *

٢٧ ـ اللقاء ..

سار (أمجد) الهوينى ، بالقرب من أسوار ميناء (تل أبيب) ، وهو يرتدى تلك الثياب نصف الرثة ، التى يرتديها عمال الميناء ، وتظاهر بنقل صندوق صغير ، وهو يختلس النظر إلى رجال الأمن الإسرائيليين ، الذين يفحصون كل من يدخل إلى الميناء ، ثم تلفت حوله ، بحثا عن الرجل ، الذى خاض كل هذه المخاطر ؛ للالتقاء به ..

لقد نجح فى دخول (إسرائيل) ، منذ ما يزيد عن شهر كامل ، ومنتحلا شخصية سائح أمريكى ، وساعده بعض الفلسطينيين هناك على انتحال شخصية عامل من عمال الميناء ، وحصلوا له على ترخيص زائف بالعمل فى دائرة الشحن ، ومن هناك راح يبذل أقصى جهده ، للوصول إلى العميل المصرى هناك ، والحصول على مالديه من معلومات ..

كان يعلم أن مهمته بالغة الخطورة ، ولكنه لم يكن ليتردد لحظة واحدة فى أدائها ، لو أن هذا يخدم وطنه ..

واليوم يخوض مخاطرته الكبرى ..

لقد نجح أخيرا فى الاتصال بالعميل المصرى ، الذى أكد له وجود المعلومات لديه ، واتفق معه على اللقاء فى الميناء ، لتسليمه المعلومات كلها ..

وها هوذا ينتظر العميل ..

ومن بعيد ، لمح الرجل يتجه إليه فى اضطراب واضح ، وهو يتلفت حوله فى حذر ، فتحرك نحوه بدوره ، وانحرفا معا خلف صندوق ضخم ، وهناك قال العميل فى توتر بالغ :

ـ أسرع .. لا وقت لدينا .

ثم التقط من جيبه مظروفا ، ناوله إلى (أمجد) ، مستطردا :

ـ ها هى ذى المعلومات .. لابد من إبلاغها إلى (القاهرة) بأسرع مايمكن ، فهؤلاء الأوغاد يعدون لهجوم شامل ، فى التاسع والعشرين من هذا الشهر ، وأظنهم يشكون فى أمرى .

سأله (أمجد) فى قلق :

ـ لماذا ؟

أجابه مضطربا :

ـ سأشرح لك الأمر فيما بعد .. المهم أن تبتعد الآن بأقصى سرعة ، وأن تحاول الخروج من هنا ، و ..

بتر الرجل عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى هلع ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! .. لقد كشفوا الأمر .

التفت (أمجد) فى سرعة ، إلى حيث يشير الرجل ، ورأى عددا من رجال الأمن الإسرائيليين يندفعون نحوهما ، فى حين صاح العميل :

ـ أسرع يا رجل .. أسرع .

والتقط من جيبه مسدسا ، وضعه فى يد (أمجد) ، مستطردا :

ـ فليكن ثمنك غاليا .

لم يضع (أمجد) لحظة واحدة بعدها ، وإنما حمل مسدسه ، وانطلق يعدو بأقصى قواه ، محاولا الفرار من قبضة الإسرائيليين ..

ولكن لم يكن هناك مفر ..

لقد أحكم الإسرائيليون الفخ جيدا ، فها هوذا محاصر ، مابين أسوار الميناء ، ومياه الخليج ..

وارتفع من خلفه صوت أحد الإسرائيليين يهتف :

ـ توقف أيها المصرى .. توقف أو نطلق النار .

ولم يتوقف (أمجد) ..

كان يعلم أن الأمل فى نجاته يكاد يكون معدوما ، ولكنه لم يتوقف ..

إنه يعلم ضرورة وصول هذه المعلومات إلى (القاهرة) بأى ثمن ، وسيبذل كل ما يمكنه ليرسلها إلى هناك ، حتى ولو كانت حياته نفسها هى الثمن ..

ومن خلفه انطلقت رصاصة ..

وثانية ..

ولم يعد هناك سوى حاجز المياه ..

وبلا تردد ، اندفع (أمجد) نحو حاجز المياه فى الميناء ، ورأى جنديين إسرائيليين يعترضان طريقه ، فأطلق نحوهما النار ، وشعر برصاصة تحتك بجانب فخذه الأيسر ، ولكنه واصل انطلاقه ..

وقفز ..

ومع قفزته انهالت عليه الرصاصات ، قبل أن يرتطم جسده بالماء ، ويغوص فيه ..

ولحق الإسرائيليون بموضع غوصه ، فأمطروا الماء برصاصات مدافعهم الآلية ، حتى تصاعدت بقعة من الدماء إلى سطح الماء ، فاعتدل الإسرائيليون ، وابتسم قائدهم فى ظفر ، وهو يرفع جهاز اللاسلكى الخاص به إلى فمه ، ويقول فى زهو :

ـ تم احباط العملية ، والمصرى الآن فى قرار الخليج .

وأنهى الاتصال ، وهو يتطلع إلى بقعة الدم على سطح الماء ، وهى تتسع ..

وتتسع ..

★ ★ ★



ومع قفزته انهالت عليه الرصاصات ، قبل أن يرتطم جسده بالماء ، ويغوص فيه ..

كانت المرة الثانية ، التى يقف فيها (حسين) ، فى حجرة مكتب (جمال عبد الناصر) الخاصة ..

وفى المرتين كان يرتجف ..

وعندما دخل (عبد الناصر) الحجرة هذه المرة ، كان ذلك الغضب البادى على وجهه ، والمطل من عينيه العميقتين ، الشبيهتين بعينى الأسد ، كافيا ، لتتحول ارتجافة (حسين) الى قشعريرة رعب ، شملت جسده كله ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، الى الحد الذى عجزت معه قدماه تقريبا عن حمله ، لولا أن تشبث بالمقعد المجاور له ، وهو يقول فى صوت متحشرج :

- (حسين البنهاوى) فى خدمتك يا فخامة الرئيس .

رمقه (جمال) بنظرة نارية ، قبل أن يقول فى غضب هادر :

- أية سخافات ترتكب هذه الأيام يا (حسين) ؟ .. ألا تدرك ما تمر به الدولة من مخاطر ؟ .. أمن المفروض أن أترك كل هذا ، وأتجاهل عنق الزجاجة ، الذى تمر به الدولة ، لأهتم بالمباذل والمساخر ، التى تتركون عملكم لارتكابها ؟

شحب وجه (حسين) أكثر ، وهو يقول :

- مباذل ومساخر ؟! ما الذى تعنيه يا سيادة الرئيس ؟ .. إننا جميعًا نؤدى عملنا بكل إخلاص ، و ..

قاطعه الرئيس فى غضب :

- بل بكل قذارة وحقارة .

ثم التقط من فوق مكتبه ورقة ، لوح بها فى وجه (حسين) ، مستطردا :

- أتعلم ما الذى تحتويه هذه الورقة ؟ .. إنها استقالة (عبد الحكيم عامر) .. فى مثل هذه الظروف يرسل لى استقالته ، ويعلن غضبه ، بسبب بعض الأعمال القذرة ، التى تقوم بها أنت ، لمراقبة وتصوير ممثلة من

ممثلات الدرجة الثانية .. أى تهريج يحدث فى هذه الدولة ؟ .. أى استهتار هذا بكل القيم والمبادئ والظروف ..

قال (حسين) ، وهو يرتجف فى قوة :

- سيدى الرئيس .. إننى ..

لم يبد أن الرئيس مستعد لسماعه ، وهو يواصل هتافه الغاضب :

- أبهذا تدار الدولة ؟ .. أيدخل ذلك ضمن مهام وظيفتكم ، التى تتقاضون من أجلها أجوركم ؟

تمتم (حسين) :

- أرجوك يا سيادة الرئيس .. إننى ..

لوح (عبد الناصر) بذراعه فى غضب ، هاتفا :

- لا توجد سوى وسيلة واحدة ، لرتق الثقوب ، وإصلاح الأخطاء ، فى هذه المرحلة الحاسمة .. أتعلم ما هى ؟

ازدرد (حسين) لعابه فى صعوبة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو يتطلع الى عينى (عبد الناصر) ، الذى تابع فى صرامة :

- فصلك من الخدمة يا (حسين) .. هذا هو الحل الوحيد ، الذى يرضى (عبد الحكيم) ، ويدفعه الى نسيان غضبته السخيفة هذه ، الاهتمام بمشاكل الدولة ، ونحن نواجه احتمال تدخل عسكرى أجنبى .

كاد (حسين) يسقط فاقد الوعى ، عندما لفظ الرئيس عبارته الأخيرة ..

إنه لن يحتمل هذا ..

لن يحتمله أبدا ..

فصله من الجهاز ، يعنى ضياع كل ما كافح من أجله حتى الآن ..

وضياع سلطته وسطوته ..

وفى انهيار ، هتف :

ـ سيّدى الرئيس .. إنك تظلمنى بقرارك هذا .

صاح به (عبد الناصر) :

ـ إننى لا أظلم أحدا ، ولكننى أبغض تجاوز حدود الاخلاق والتقاليد .

قال (حسين) فى ضراعة :

ـ كنت أنفذ الأوامر .

لوّح (جمال) فى وجهه بغضب ، صائحا :

ـ لا يا (حسين) .. لا تحاول خداعى .. لقد فعلت هذا لحسابك الشخصى ، ولغرض ما فى نفسك ، يتنافى مع عراقة تقاليدنا وأخلاقنا .

هتف (حسين) :

ـ بل كنت أنفذ الأوامر يا سيّدى ، ولدى الدليل .

عقد (عبد الناصر) حاجبيه فى صرامة ، وهو يتطلع إليه فى صمت ، فأسرع (حسين) يخرج من جيبه شريط تسجيل صغير ، من طراز لم يكن مألوفا فى هذه الأيام ، وهو يقول :

ـ كنت أشعر بالقلق ، وأنا أنفذ هذه المهمةَ يا سيدى الرئيس ، لنفس السبب الذى ذكرته فخامتك .. لأنها تتنافى مع قيمنا وأخلاقنا .. ولكن طبيعة عملنا تحتم علينا تنفيذ الأوامر ، دون السؤال عن سببها وهدفها ، ولذلك فقد تجاوزت حدود العمل بعض الشىء ، وسجلت كل محادثاتى مع (مراد بك صقر) ، وهو يأمرنى بتنفيذ هذه المهمة القذرة .

ازداد انعقاد حاجبى الرئيس ، وهو يقول :

ـ (مراد صقر) ، هو الذى أمرك بتنفيذ هذه المهمة ؟

أجابه (حسين) فى انفعال :

ـ أقسم لك أن هذا ما حدث يا سيدى الرئيس ، وهذا الشريط دليلى على ذلك .

التقط منه الرئيس شريط التسجيل ، وهو يحدجه بنظرة صارمة ، ثم قال ، وقد هدأت ثورته كثيرا :

ـ هذا الشريط يحتاج الى جهاز خاص ، للاستماع إليه .

ثم ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يضيف :

ـ لدى جهاز يناسبه ، فى حجرة نومى .

ثم غادر حجرة المكتب ، وتركه وحده فيها ، ولم يكد يُغلق الباب خلفه ، حتى انهار (حسين) فوق أقرب المقاعد إليه ، وتصبب على جبينه عرق غزير ، وهو يلهث فى انفعال ..

لقد فعلها (مراد صقر) إذن ..

أعد له فخا للإطاحة به ، وتحطيم مستقبله ..

ياله من عالم قذر !! ..

من حسن حظه أن استمع الى نصيحة (ابراهيم مكّى) ، وسجّل كل كلمة دارت بينه وبين (مراد صقر) ..

هذا وحده قد ينقذه من الضياع هذه المرة ..

ومضت نصف ساعة كاملة ، تركه فيها الرئيس وحده ، فى حجرة مكتبه الخاصة ، قبل أن يعود إليه ، من دون شريط التسجيل ، ويتطلع إليه لحظة ، بنظراته القوية النفاذة ، قبل أن يقول فى هدوء ، لا يخلو من الحزم :

ـ من الخطأ أن تُسجّل ما يدور بينك وبين رئيسك من محادثات .

عاد الخوف يملأ قلب (حسين) ، وهو يقول :

ـ العلاقة بينى وبينه شديدة التوتر يا سيّدى ، ولقد راودتنى الشكوك فى طبيعة المهمة .

قال (جمال) فى حزم :

ـ ولو .

ثم اتجه إلى مكتبه الضخم ، وجلس خلفه متطلعا إلى (حسين) لحظة ، قبل أن يقول بصوته القوى العميق :

ـ اسمع جيدا يا (حسين) .. عندما أبلغنى (عبد الحكيم) بهذا الأمر ، رفضت تصديقه فى البداية ، لأننى عرفتك عن قرب ، وشاهدت بيتك وأسرتك ، وأنا أعلم أن من تربى فى بيئة كهذه ، يستحيل أن يؤدى عملا قذرا كهذا ، ولعل هذا هو السبب الوحيد ، الذى دفعنى إلى مقابلتك ، وكان بإمكانى أن أصدر أمرا بفصلك ، أو حتى باعتقالك ، دون رؤية وجهك ، أو سماع دفاعك .

حاول (حسين) أن يقول شيئا ما ، ولكن الرئيس منعه بإشارة من يده ، وهو يواصل حديثه :

ـ إننا نبنى مجتمعا جديدا يا (حسين) ، وكل المجتمعات الجديدة تواجه تحديات صعبة ، ونحن نواجه تحديا يفوق كل التحديات المعروفة ، فهو تحد عالمى ، لابد لنا من التصدى له ، والوقوف فى وجهه ، حتى نتجاوزه ، ونحكم سيطرتنا على دولتنا .. وعندما يحدث هذا سنكون قد وضعنا أيدينا على أول الطريق ، وبدأنا فى بناء دولة قوية ، يمكنها أن تتصدى يوما ـ وبحق ـ لكل القوى العظمى .. وبداية الطريق هذه قد تضطرنا إلى احتمال مالايحتمله الآخرون ، والاستعانة بكل الطرق والوسائل والأشخاص ، الذين يمكنهم إدارة عجلة الدولة ، فى ظروف الطوارئ .

ثم ابتسم ابتسامة باهتة ، وأضاف :

ـ و (مراد صقر) واحد من هؤلاء .

صمت (حسين) ، ولم يحاول التعليق بحرف واحد ، فى حين تراجع الرئيس فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه فوق سطح مكتبه ، وهو يتابع :

ـ وقد يكون (مراد صقر) عنيفا ، وقاسيا ، وبلا قلب فى بعض

الأحيان ، ولكنه رجل مخلص لوطنه ، يجيد عمله فى كفاءة ، ويبذل أقصى جهده من أجل الثورة .

تمتم (حسين) :

ـ إنه يبغضنى .

ابتسم الرئيس ، قائلا :

ـ هذا أمر شخصى ، وسأعمل على منعه من التربص بك مرة أخرى ، ولكن هذا لا يتعارض مع ثقتى به ، وبكفاءته وقدراته .

ثم اعتدل مضيفا :

ـ سأنهى المشكلة مع المشير يا (حسين) ، ولكن عليك ألا تذكر حرفا واحدا ، مما دار بيننا هنا .. هل تفهم ؟

نهض (حسين) ، وقد عادت إليه روحه ، وقال فى حماس :

ـ أفهم يا سيادة الرئيس .. أفهم كل أوامرك وتوجيهاتك .

عاد الرئيس يتراجع ، وهو يقول :

ـ هناك أمر آخر .

خفق قلب (حسين) مرة أخرى فى قلق ، وهو يقول :

ـ ماهو يا سيدى ؟

حدجه الرئيس لحظات بنظرة صامتة متفحصة ، قبل أن يقول فى عمق :

ـ الأميرة (عايدة) .

انتفض جسد (حسين) فى عنف ، وحدق فى وجه الرئيس فى ذهول ، وهو يقول :

ـ الأميرة (عايدة) ؟!

أجابه الرئيس فى هدوء :

ـ نعم .. الأميرة (عايدة) ، التى تم اختطافها من قلب (باريس) ، وإحضارها إلى (القاهرة) فى صندوق دبلوماسى .

ارتجف صوت (حسين) ، وهو يقول :

ـ ماذا عنها يا سيادة الرئيس ؟

أجابه الرئيس فى هدوء :

ـ لقد أخبرنى (حسنين هيكل) أن رئيس تحرير (لوموند) الفرنسية ، قد سأله التوسط لدى ، لإعادتها إلى (باريس) .

ثم انعقد حاجباه فى بغتة ، وهو يستطرد فى صرامة :

ـ وأنا أكره أعمال القرصنة .

تمتم (حسين) فى خوف :

ـ أنا رهن إشارتك يا فخامة الرئيس .

قال (جمال) فى حزم :

ـ لن أسألك عن سبب اختطافها ، ولا عن سر حضورها ، أو إحضارها إلى هنا ، ولكننى أرغب فى أن تظل صورتنا جيدة ومتحضرة ، فى عيون الجميع ، وهذا يعنى حتمية عودة الأميرة (عايدة) إلى (باريس) .. هل تفهم ؟

غمغم (حسين) :

ـ أفهم يا سيدى .. أفهم .

وفى رأى (حسين) ، كانت المقايضة عادلة ..

لقد ربح مستقبله ..

وخسر (عايدة) ..

وهذا يرضيه .

* * *

٢٨ ـ لمسة الرحمة ..

اختفى عم (إسماعيل) ..

لم يجد له (مفيد) أدنى أثر هذه المرة ..

لقد ترك حتى ذلك العمل ، الذى انتقل إليه ، ولا أحد يعلم عنوانه ، أو عمله الجديد ..

ومعه اختفت (مديحة) ..

مرة ثانية يفقدها (مفيد) ..

وفى هذه المرة لم يفقدها وحدها ..

لقد فقد معها كل شىء ..

كان اليوم يوافق عيد مولده الثالث والعشرين ، ولكنه كان ـ على الرغم من هذا ـ أتعس أهل الأرض جميعا ..

وبعد يوم شاق ، حفيت فيه قدماه ، بحثا عن أى أثر لـ (مديحة) أو (إسماعيل) ، ألقى جسده المكدود داخل واحدة من سيارات الأجرة ، التى تنقله من (طنطا) إلى قريته ، وغامت عيناه بسحابة من الدمع المكتوم ، وهو يفكر فى كل ما أصابه ..

لماذا التقى بـ (مديحة) مرة أخرى ؟ ..

لماذا ظهرت فى حياته ليوم واحد ، فتحطمت حياته كلها ؟

ألم يكن من الأفضل ألا يراها ، فى ذلك اليوم ؟ ..

كان على الأقل سيحتفظ بـ (سوسن) ..

لم يكد يذكر (سوسن) ، بملامحها الوديعة البشوش ، وابتسامتها المرحة الهادئة ، حتى شعر بندم يعتصر قلبه وصدره ..

لماذا فعل بها هذا ؟ ..

لماذا حطم ذلك الحب الهادئ ، الذى كان يجمع بين قلبيهما ؟ ..

اعتدل فى مجلسه ، وتظاهر بطرد ذبابة وهمية عن وجهه ، ليمسح دمعة كادت تخدعه ، وتفر من عينيه ، وهو يسأل نفسه : أكان يحب (سوسن) حقا؟! ..

صحيح أنه كان يسعد لقربها ، ويرتاح لحديثه معها ، ويجد الدفء ، كل الدفء فى عناق أصابعهما ، ولمساتها ، ولكنه تخلى عنها دون تردد ، حينما لمح (مديحة) ..

وهذا لا يعنى أبدا أنه يحبها ..

والواقع أنه يشعر بالحيرة ، عندما يحاول تفسير مشاعره نحوها ، بعد مافعل ..

وبالندم ؛ لأنه تخلى عنها ..

قطع السائق حبل أفكاره بغتة ، وهو يسأله :

ـ ألا تفكر فى شراء سيارة خاصة يا (مفيد) بك ؟

التفت إليه (مفيد) لحظة فى شرود ، ثم استوعب عقله السؤال بعدها ، فقال فى سرعة ، وكأنما يحاول نفى شروده :

ـ لا .. لم أفكر فى هذا بعد .

هتف السائق :

ـ كيف يا بك ؟ .. من المحتم أن يركب أمثالك أفخر وأعظم السيارات .. أتعرف (رضا) .. ابن (على العبد) ؟ .. إنه يمتلك الآن سيارة (فورد) ، من أحدث طراز ، ويقولون أنه يخطط لعمل بعض المشروعات الصناعية الكبيرة ، و ..

لم يسمع (مفيد) باقى العبارة ..

كان قد اعتاد أحاديث السائقين ، واعتاد عدم سماع ثلاثة أرباعها ، وهو

يسبح مع أفكاره وذكرياته ، حتى بلغت السيارة القرية ، فغادرها مسرعا ، وعبر أمام مقهى (جودة) ، الذى هب من مقعده ، ولوح بيده ، هاتفا :

ـ تفضل يا (مفيد) بك .. تفضل .

لوح له (مفيد) بيده ، وواصل سيره إلى السراى ، وهناك وجد شيخ الخفراء (بسيونى) ينتظره ، جالسا على إحدى درجات السلم ، ولم يكد يراه حتى هب واقفا ، ورفع يده بالتحية ، وهو يقول :

ـ حمدا لله على سلامتك يا بك ..

سأله (مفيد) فى قلق :

ـ ماذا هناك يا (بسيونى) ؟

تلفت شيخ الخفراء حوله فى قلق ، ثم مال عليه ، هامسا :

ـ العمدة يرغب فى مقابلتك .

لم يفهم (مفيد) سر هذا الهمس ، فقال :

ـ فليتفضل على الرحب والسعة .

هز (بسيونى) رأسه ، وقال فى حسرة :

ـ إنه لا يستطيع الحضور يا (مفيد) بك ، فهم لا يسمحون له بالدخول إلى السراى ، حتى لرؤية ابنته ، والرجل منهار ، منذ موقف (حسين) بك مع (حافظ) بك ، وهو يتوقع أن ينتقم منه (حسين) بك فى أية لحظة ، وهذا يحطمه ، حتى أنه لم يعد قادرا على مغادرة فراشه .

ردد (مفيد) فى إشفاق :

ـ إلى هذا الحد ؟!

كان يعلم ما حدث بين (حسين) و (فاطمة) ، ويعلم ما فعلته (فاطمة) ، من محاولتها الاستيلاء على الأرض ، وما أسفر عنه ذلك ، ولكنه كان يرى أن هذا التمرد مجرد نتاج لقسوة (حسين) ، وسيطرته على مشاعر الجميع ..

حتى قصة شقيقته مع (أمجد) ، كانت فى رأيه نتاج أسلوب (حسين) ، فى التعامل مع أسرته ، ومع الآخرين ..

وكان يشعر بالاشفاق على الجميع ، من هذه القبضة الباردة القاسية ، التى لا ترحم ..

حتى (فاطمة) ..

وحتى والدها ..

ولهذا قال لشيخ الخفراء فى حسم :

ـ سأحضر معك .

صحبه إلى منزل العمدة ، وهاله مرأى الرجل ، وقد شحب ونحل كثيرا ، حتى بدا أشبه بهيكل عظمى حى ، ولم يكد يرى (مفيد) ، حتى هتف :

ـ (مفيد) بك .. حمدا لله .. حمدا لله .

همّ بالنهوض من فراشه ، ولكن ضعفه أعجزه عن هذا ، فتهالك فوق الفراش مرة أخرى ، مما جعل (مفيد) يهتف به :

ـ سلامتك يا عم (عبد الحميد) .. ماذا أصابك ؟

تشبث الرجل بكفه ، وقال وهو يكاد يبكى :

ـ الرحمة يا (مفيد) بك .. الرحمة .. ليس لدى من أمل سواك .

جلس (مفيد) إلى جواره ، وهو يقول :

ـ لماذا يا عم (عبد الحميد) ؟ .. ماذا حدث ؟

بكى الرجل فى انهيار ، وهو يقول :

ـ (حسين) بك يتوعدنى بانتقام بشع .. أكاد لا أنام ، من شدة رعبى مما ينتظرنى .. أرجوك يا (مفيد) بك .. أتوسل إليك أن تطلب منه العفو عنى .. أرجوك .

كانت هذه أبشع صورة رآها (مفيد) للخوف ..

وتضاعفت كراهيته للظلم مع رؤيتها ..

كان يعلم أن (حسين) يتعمد ترك الرجل على هذا الوضع ، ليحطمه .. وكان يبغض هذا ..

وبكل كراهيته ومقته لهذا الأسلوب ، شد على يد الرجل ، قائلا :

ـ لن يفعل بك (حسين) شيئا يا عم (عبد الحميد) .. سأتصدى أنا له هذه المرة .. وبكل حزم .

تهالك (عبد الحميد) ، وهو يقول :

ـ حمدا لله يا ولدى .. حمدا لله أن وجدتك .

ولكن (مفيد) كان يعلم أن وعده هذا قد لا يساوى شيئا ، أمام سطوة (حسين) وقوته ..

ولكن هذا الوعد كان كل ما يملكه ..

وكل ما يستطيعه ..

* * *

استقبلت الأميرة (عايدة) (حسين) فى شقتها هذه المرة ، وهى تبدو كأكثر ما تكون فتنة وجمالا ، وكأنها تسعى للتأثير عليه ، وابتسمت ابتسامة ساحرة ، وهى تقول فى عذوبة :

ـ لم أصدق نفسى ، عندما تلقيت مكالمتك ، وأسعدنى كثيرا أن تأتى لزيارتى .

تطلع إليها فى افتتان ، وهو يتمتم :

ـ تبدين رائعة هذا المساء .

قالت فى دلال :

ـ حقًا ؟!

ثم قادته فى نعومة إلى شرفة المنزل ، وهى تقول :

ـ سنقضى هذه الأمسية معا ، وسنستعيد ذكريات أمسيات الماضى .

تبعها فى صمت ، واستقرَ على أحد مقعدين ، يحيطان بمائدة صغيرة ، يتوسطها شمعدان فضى أنيق ، على نحو أضفى رومانسية محببة على الموقف ، وسألته هى فى خفوت ، يتناسب كثيرا مع الموقف :

ـ أنتناول شرابا أولا .

أشار بيده نافيا ، وقال :

ـ (عايدة) .. أريد أن أتحدث إليك .

ابتسمت فى عذوبة ، قائلة :

ـ كلى آذان صاغية .

خفض عينيه عنها لحظات ، وكأنه يفكر فى عمق ، ثم عاد يرفعهما إليها ، قائلا :

ـ إننى أشعر بالأسف ، لذلك الأسلوب ، الذى أحضرتك به إلى (القاهرة) .

نبض قلبها فى قوة ، وتألقت عيناها ، وهى تستمع إليه يضيف :

ـ لم أكن أحب أبدا أن نلتقى على هذا النحو ، ولا أن تعود علاقتنا على كره منك .

اعتدلت تشعل سيجارتها فى عصبية ، وهى تستمع إليه ..

كان من الواضح أنه يطرق مباشرة ذلك الموضوع ، الذى تحاول هى جذبه إليه منذ عادت إلى (القاهرة) ، وأنه يسير نحو النقطة التى تتمناها ..

نحو العودة إلى (باريس) ..

أما هو فقد كان يلعب لعبته الكبرى ، فى علاقته بها ..

كان يعلم أنه مضطر لإعادتها إلى (باريس) ، بناء على أوامر رئيس الجمهورية ، ولكنه يحاول الإيحاء إليها بأنه يتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه ..

كان يسعى لمد جسر من الود بينهما ، قبل أن ترحل على الرغم منه .. ولقد نجح فى هذا ..

كان صوته يتهدج بانفعال مدروس ، وهو يقول :

ـ لن أجبرك على البقاء هنا يا (عايدة) ..

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وحاولت أن تقول شىء ما ، ولكنها عجزت عن هذا تماما ، فى حين تابع هو :

ـ لقد اتخذت قرارا حاسما ، تحطم له قلبى ، وارتاح له ضميرى .

خفق قلبها أكثر ، وهو يضيف :

ـ ستعودين يا (عايدة) .

كادت تنفجر باكية ، من فرط الانفعال ، وهى لا تصدق أذنيها .. ستعود ..

أخيرا سيتحقق حلمها القصير ..

ستعود إلى (باريس) ..

لم تصدق أن (حسين) قد اتخذ هذا القرار ..

كل شىء كان يسير على عكس ما توقعت ، منذ وصلت إلى (القاهرة) ..

وفى حزن حقيقى ، أخرج (حسين) من جيبه تذكرة طائرة ، ناولها إياها ، وهو يقول :

ـ سيكون لديك وقت ضيق ، لإعداد حقيبتك يا (عايدة) ، فستقلع طائرتك بعد ثلاث ساعات فحسب .

اتسعت عيناها فى دهشة وسعادة ..

ثلاث ساعات فقط ، وتبدأ رحلة العودة ..

ثلاث ساعات فحسب ..

وفى حماس وسعادة ، نهضت من مقعدها ، واتجهت نحو (حسين) ، وقالت :

ـ سأنتظرك يا (حسين) .

رفع عينيه إليها ، فمالت نحوه ، حتى استنشق أنفاسها العطرة ، وهى تضيف :

ـ سأنتظرك فى (باريس) .

ورقص قلبه طربًا ..

* * *

تنهدت (شريفة) فى عمق ، وهى تتطلع من نافذة حجرتها إلى القمر والنجوم فى حزن ..

لقد انقطعت صلتها بـ (أمجد) ، منذ تلك الليلة المشئومة ، التى أعلنت فيها (فاطمة) عن تلك اللقاءات المختلسة ، التى كانت تحدث بينها وبينه ..

وحتى (حسين) لم يعد إلى القرية ، منذ ذلك الحين ..

وهى لا تعلم ما أصاب (أمجد) ..

الشىء الوحيد ، الذى يوقن منه قلبها ، هو أنه لن يكون أبدا بخير ، ما دام (حسين) قد علم ما بينهما ..

قاس هو (حسين) ..

عنيف فى كل ما يتعلق بسطوته ونفوذه ..

ولكنها لا تستطيع أن تكرهه ..

إنه شقيقها ، وكبير الأسرة ، بعد رحيل والدها ، ولقد نشأت على حب واحترام كبير الأسرة ، مهما كانت الأسباب ..

ولكنها تكره (فاطمة) ..

تضاعفت كراهيتها لها ، بعد ما فعلته ..

كل شىء فى (فاطمة) يحنقها ويثير ضيقها ..

غلظتها ..

خشونة صوتها ..

ألفاظها السوقية ..

حتى حب (حافظ) لها ..

بل لعل هذا أكثر ما يحنقها بشأن (فاطمة) ..

إنها فى ـ رأيها ـ تفتقر إلى كل معالم وملامح الأنوثة والجمال ، وعلى الرغم من هذا فشقيقها (حافظ) يحبها إلى درجة العبادة ..

يكفى أنه قضى حياته كلها سلبيًا ، فيما عدا مرتين ، تصدى خلالهما للجميع ، من أجل زوجته ..

من أجل (فاطمة) ..

إنها لن تنسى أبدا ذلك الموقف ، عندما طلب منه (حسين) تطليق (فاطمة) ، فاعترض ورفض ، على الرغم من خشيته الطبيعية من (حسين) ، وخوفه منه ..

وتمنت من أعماقها لو أن (حافظ) طلق (فاطمة) ، فى ذلك اليوم ..

تمنت لو أنه أطاع شقيقه ، وطلقها ، وألقاها إلى عرض الطريق بلا رحمة ..

ثم تذكرت (طارق) ..

والعجيب أنها كانت تحب الصغير ، بنفس القدر الذى تكره به أمه ..

ابتسامته وحدها كانت الطريق لنزع الأسى والحزن من قلبها ..

عدوه خلفها ، ومناداتها بحروف متعثرة ، كان ينتزع منها حتمًا ابتسامة حب وحنان ، مهما كانت الأحزان ، التى تحيط بها ..

ربما لأنه يوقظ الأمومة الكامنة فى أعماقها ..

أو لأنه الطفل الوحيد ، فى الأسرة كلها ، الذى يحمل اسم (البنهاوى) .. الذى شهدت مولده ونموه لحظة فلحظة ..

حتى تذكرها له ينتزع من قلب حزنها ابتسامة ، تألقت على وجهها ، وانعكس فوقها ضوء القمر ونجومه ..

وفجأه انتفض جسدها ، مع تلك الطرقات العنيفة المباغتة ، على باب حجرتها ، وصوت (مفيد) ، وهو يهتف :

ـ (شريفة) .. لقد حدثت كارثة .

أسرعت تفتح الباب ، وهى تسأله فى هلع :

ـ ماذا حدث ؟

أجابها فى صوت أقرب إلى البكاء :

ـ لقد بدأت الحرب .. الإسرائيليون يهاجمون قواتنا فى (سيناء) .

وارتجف قلبها فى رهبة :

ـ وتذكرت شخصا واحدا ..

(أمجد) .

* * *

٢٩ ـ الحرب ..

هكذا كانت البداية ..

أعلن الإسرائيليون أنهم أرسلوا طابورا مدرعا إلى (سيناء) ، للقضاء على الفدائيين هناك ، ليلة التاسع والعشرين من أكتوبر ، عام ١٩٥٦ م ، وبعدها هبطت قوات المظلات التابعة لهم فى ممر (متلا) ، فى الليلة نفسها ..

ثم صدر الإنذار الأنجلو فرنسى ، على نحو جاف ، يطالب بوقف إطلاق النار ، وانسحاب (مصر) و (إسرائيل) لعشرة أميال ، على جانبى (قناة السويس) ، وإلا فستضطر (انجلترا) و (فرنسا) للتدخل عسكريا ، بعد اثنتى عشرة ساعة من الإنذار ، الذى ينتهى فى السادسة والنصف من صباح آخر أيام أكتوبر ..

واجتمع رجال الأحزاب ، وطالبوا (جمال عبد الناصر) بالتنحىّ عن الحكم ، بحجة أن هذا العدوان يستهدفه بالدرجة الأولى ، فصدرت الأوامر باعتقالهم جميعا ، وبنقل (محمد نجيب) ، من فيلا (زينب الوكيل) بـ (المرج) ، إلى (طما) بجنوب الصعيد ، خشية أن يحاول الغزاة الاستعانة به ، فى حال نجاح الغزو ..

وتم سد القناة بسفينتين من سفن الشحن ، جعلا العبور فى القناة مستحيلا ..

ومع ضرب الإذاعة فى (القاهرة) ، أسرعت إذاعات (عمان) و (دمشق) تذيع برامج مصرية ، تحمل العبارة الشهيرة (هنا القاهرة) ، وتآزر العرب جميعا لصد العدوان ، والوقوف إلى جوار (مصر) ، فى معركتها الكبرى ..

ووقف المصريون صفا واحدا ، فى وجه العدوان الثلاثى ..

الجميع نسوا خلافاتهم ..

الكل تحمس لقضية واحدة ..

خطبة (جمال عبد الناصر) ، فى (الأزهر الشريف) ألهبت حماس الجميع ، وأقنعتهم بالقتال والمقاومة ، ولو من قرية إلى قرية ..

وأنزل العدو قواته فى (بور سعيد) ، التى قاومت مقاومة باسلة ، سجلها لها التاريخ فى أعظم صفحاته وأخلدها ..

وفى (باريس) ، أطلق (جان) ضحكة ساخرة عالية ، وهو يرفع كأسه فى وجه ضيوفه ، هاتفا :

ـ نخب قواتنا الباسلة ، التى ستجبر المصريين على الركوع والخضوع .

رفع الجميع كؤوسهم فى مرح ، فيما عدا الأميرة (عايدة) ، التى عقدت حاجبيها فى ضيق ، وأزاحت كأسها جانبا ، فقال (جان) ضاحكا :

ـ ألا تشربين نخب هذا ؟

قالت فى ضيق :

ـ لا يحق لى كمصرية أن أفعل .

سألها فى دهشة :

ـ أما زلت تشعرين بالانتماء إلى (مصر) ؟ .. أنسيت ما فعله بك المصريون ؟

هتفت فى حدة :

ـ إننى مصرية .. صحيح أننى أبغض الثورة ورجالها ، ولكننى لا أبغض (مصر) نفسها .

قهقه ضاحكا ، وهو يقول :

ـ عجيب هذا القول ، من مصرية تحيا فى (باريس) .

قالت فى غضب :

ـ إنه أمر مؤقت .. سينتهى عصر الثورة ورجالها يوما ، وعندئذ سأعود .

ثم رفعت كأسها ، مستطردة فى حزم :

ـ هذا هو النخب ، الذى سأشرب من أجله .

وجرعت كأسها دفعة واحدة ..

كعادتها ..

* * *

تصاعدت فقاقيع الهواء فى نرجيلة (جودة) ، ونفث هو الدخان عاليًا فى قوة ، قبل أن يقول بصوته الجهورى المرتفع :

ـ سيد الرجال هو زعيمنا (جمال عبد الناصر) .. إنه يقف كالأسد فى وجه المعتدين .. لن يمكنهم هزيمته أبدا .

غمغم الحاج (سعفان) فى قلق :

ـ ليتنى أشاركك ثقتك هذه يا (جودة) ، ولكن الأخبار التى وصلتنى ، تقول : إن الإسرائيليين قد احتلوا (سيناء) كلها ، فى حين نجح البريطانيون والفرنسيون فى احتلال (بور سعيد) .

هتف (جودة) :

ـ ليس كلها .

ثم أضاف ، وهو يلوح بأصابعه :

ـ لقد هبطوا فيها فحسب ، ولكن المقاومة الشعبية هناك تمنعهم من احتلالها ، كما أن (صلاح سالم) صنع من (السويس) حصنا .

تنهد الحاج (سعفان) ، وقال :

ـ كل هذا جميل ، ولكن ماذا عن الجيش ؟ .. أين الجيش ؟

تلفت الجميع حولهم فى خوف ، خشية أن يكون بعض رجال الحكومة

قد سمعوا عبارة الحاج (سعفان) ، ثم هتف أحدهم ، وكأنه يحاول تغيير الموضوع :

ـ سمعت أن (مفيد) بك ، ابن المرحوم الحاج (البنهاوى) ، تطوّع فى المقاومة الشعبية .. أهذا صحيح ؟

أجابه (جودة) فى سخرية :

ـ أبناء البهوات لا يقاتلون .. إنه لم يغادر السراى قط ، منذ بدأت الحرب .

وعلى الرغم من سخريته ، كان (جودة) على حق ..

إن (مفيد) لم يغادر السراى بالفعل ، منذ بدأت الحرب ..

كان يتصوّر أن هذه الحرب هى نهاية العالم ..

أو ربّما هكذا صوّرت له نفسه المحبطة ، بعد أن مرّ بكل ما مرّ به .

كان يتابع الأخبار بكل اهتمام ، ولكن بقلق لا حدود له ..

وكان يبنى موقفه على حسابات منطقية ..

على قوة الجيوش البريطانية والفرنسية والإسرائيلية ، ومقارنتها بقوة الجيش المصرى ..

وهذا يورثه شعورًا بالعجز واليأس ..

ولقد شعرت (شريفة) بالقلق من أجله ، وهو يقضى جل وقته فى حجرته ، فطرقت باب الحجرة فى حذر ، وهى تقول :

ـ (مفيد) .. أيمكننى أن أجلس معك بعض الوقت ؟

فتح لها الباب ، وهو شاحب الوجه ، مطلق اللحية ، وقال :

ـ ادخلى يا (شريفة) .. كنت أستمع إلى بعض الإذاعات الأجنبية .

سألته :

ـ وماذا تقول هذه الإذاعات ؟

جلس إلى جوار المذياع ، قائلًا :

ـ العالم كله يغلى ، من أجل ما يحدث .. (إيدن) و (جى دى موليه) يتعرضان لموجة نقد ومعارضة عنيفة ، والمظاهرات تبلغ ذروتها ، فى (لندن) و (باريس) ، وتهتف بسقوط (إيدن) و (دى موليه) .. حتى مجلس العموم البريطانى يواجه ثورة وسط أعضائه ، ووزير الدولة (أنتونى ناتنج) استقال ، احتجاجا على هذا العمل العدوانى ، والولايات المتحدة بدأت تتخذ موقفا معارضا لـ (انجلترا) و (فرنسا) .

هتفت فى دهشة :

ـ وهل تتابع كل هذا ؟

أومأ برأسه إيجابا ، وقال :

ـ وهل لدى ما أفعله سوى هذا ؟

سألته :

ـ وعملك ؟ .. إنك لم تذهب إلى العمل ، منذ أكثر من شهر .

أجاب فى خفوت :

ـ لقد استقلت .

هتفت مستنكرة :

ـ استقلت ؟! .. لماذا كان كل سعيك خلف الوظيفة إذن .

قال فى مرارة :

ـ أصبحت أكره السفر .

حدقت فيه بدهشة وحيرة ..

إنه لم يعد (مفيد) الذى تعرفه ..

هذا الجالس أمامها لا يشبه (مفيد) إلا فى هيئته فحسب ، أما فى أعماقه وتصرفاته ، فهو شخص يختلف ..

يختلف تماما ..

* * *

فجأة اختلفت الصورة ..

فى مساء الخامس من نوفمبر أرسل الماريشال (نيكولاى بولجانين) رسالة إلى (إيدن) ، يحذره فيها من استمرار الأمر ، ويعلنه أن هذا سيعنى أن تتطور الحرب إلى حرب عالمية ثالثة ، ويشير فيه فى صراحة إلى ان (الاتحاد السوفيتى) قد يضطر إلى ضرب (لندن) بالصواريخ عابرة القارات ، لو لم تتوقف الحرب ، وتضع أوزارها ..

وخطاب مماثل إلى (دى موليه) ..

وثالث إلى (بن جوريون) ..

ولم يتردد الأمريكيون فى تأييد الإنذار السوفيتى ..

وكان على العالم أن يستوعب هذه الحقيقة الجديدة ..

لقد اختلف ميزان القوى ..

لم تعد (إنجلترا) و (فرنسا) هما القوتين العظميين ، كما كانتا قبل بداية الحرب العالمية الثانية ..

الآن أصبح هناك معسكران ، شرقى وغربى ..

وعلى باقى الدول أن تخضع لهذا ..

وفى صباح السادس من نوفمبر تم إعلان وقف إطلاق النار ، فى منتصف الليل ، بتوقيت (جرينتش) ..

أى فى الثانية صباحا ، بتوقيت (القاهرة) ..

ووضعت الحرب أوزارها ..

وانتصر (جمال عبد الناصر) ..

كان انتصارًا سياسيًا ، بأكثر مما هو عسكرى ، ولكنه كان انتصارًا حقيقيًا لـ (جمال عبد الناصر) ، الذى قفزت شعبيته إلى الذروة ، ليس فى (مصر) وحدها ، وإنما فى العالم العربى كله ..

وانعكست الأدوار على نحو عجيب ..

لقد بدأت الحرب ، وهم يستهدفون إسقاط النظام ، وإقصاء (عبد الناصر) عن حكم (مصر) ، وانتهت وقد قويت مكانة (عبد الناصر) أكثر ، وبدأ انهيارهم هم ..

(إيدن) اعتزل الحكم ، وانزوى فى جزيرة (جامايكا) ، حتى تقدم باستقالته ، فى التاسع من يناير عام ١٩٥٧ م ..

و (جى موليه) سقطت وزارته بعدها ، فى مايو من العام نفسه ..

أما فى (مصر) ، فقد بدأ الانسحاب فى ديسمبر ١٩٥٦ م ، ورحل آخر المعتدين يوم الثانى والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦ م ..

وأصبح الثالث والعشرين من ديسمبر عيدًا للنصر ، تحتفل به (مصر) فى كل عام ..

أما الاسرائيليون ، فقد تحدوا القرار كعادتهم ، ثم لم يلبثوا أن انسحبوا ، مدمرين كل شىء خلفهم ، لينتهى انسحابهم فى السابع من مارس عام ١٩٥٧ م ..

وفى ذلك اليوم فقط انتهت الحرب رسميًا وفعليًا ، وبدا (حسين) شديد المرح والسعادة ، وهو يقول لـ (صلاح) فى مكتبه :

ـ انتصرنا يا رجل .. رحل آخر الغزاة بالفعل .

غمغم (صلاح) :

ـ لم يرحلوا دون مكاسب .

سأله (حسين) فى تحد :

ـ وأى مكسب هذا ؟

أجابه (صلاح) :

ـ لقد حصل الإسرائيليون على حق المرور فى خليج العقبة .. أليس كذلك ؟

قهقه (حسين) ضاحكا ، وقال :

- إنها خسارة بسيطة يا رجل ، لو قورنت بما كان يحتمل أن يحدث .. لقد ربحنا (قناة السويس) على الأقل ..

لم يكن قد انتهى من ضحكته بعد ، عندما فوجئ بـ (مراد صقر) يدخل إلى مكتبه ، فاعتدل فى سرعة ، وكذلك فعل (صلاح) ، وهتف (حسين) :

- أهلا (مراد) بك .. مرحبًا بك فى مكتبى المتواضع .

كان حاجبا (مراد) معقودين فى غضب ، وهو يواجه (حسين) ، وأشار بيده إلى (صلاح) ، الذى فهم الإشارة ، فأسرع يغادر الحجرة ، ويغلق بابها خلفه فى إحكام ، وظلّ (مراد) يتطلّع بعدها إلى (حسين) لدقيقة كاملة فى صمت ، ثم قال فى صرامة :

- إذن فقد التقيت بـ (جمال) .

لم ينبس (حسين) ببنت شفة ، وإن ارتسمت على شفتيه ابتسامة ثقة ، ضاعفت من غضب (مراد) ، وهو يقول :

- لقد وصل قرار خاص من رياسة الجمهورية بشأنك اليوم .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يتابع :

- الرئيس (عبد الناصر) أصدر قرارا جمهوريًا ، بتعيينك المسئول الخاص على أمور رياسة الجمهورية هنا .

تألّقت عينا(حسين) فى ظفر ..

هذا إذن ما كان يقصده الرئيس (جمال) ، بالوسيلة التى ستمنع (مراد صقر) من التربص به مرة أخرى ..

لقد حصل على ترقية ، وحماية فى الوقت ذاته ..

ولكن هل سيغفر له (مراد صقر) هذا ؟ ..

كان من الواضح أن الجواب سلبيًا ، فقد بدا (مراد صقر) شديد الحنق والسخط ، وهو يبلغه القرار ، وخاصة عندما قال :

- أتعشم أن يكون هذا بداية لاهتمامك بشئون العمل ، أكثر من شئونك الشخصية .

تمتم (حسين) :

- أشكرك يا سيدى .

غادر (مراد) مكتب (حسين) ، والحنق يملأ وجهه ونفسه ، وأشار إلى (صلاح) ، قائلا :

- اتبعنى إلى مكتبى .

تبعه (صلاح) إلى مكتبه ، ولم يكد يُغلق بابه خلفه ، حتى سأله (مراد) فى صرامة :

- لماذا لم تبلغنى أن (حسين البنهاوى) كان يُسجّل كل محادثاته معى ؟

شحب وجه (صلاح) ، وقال :

- لم أكن أعلم هذا يا (مراد) بك .. أقسم لك .

ضرب (مراد) سطح مكتبه فى غضب ، وهو يقول :

- إننى أبغض كلمة (لم أكن أعلم) هذه .. مهنتك هنا هى أن تعلم .

أومأ (صلاح) برأسه إيجابا ، وقال :

- بالطبع يا سيدى .. بالطبع .

جلس (مراد) خلف مكتبه ، وراح ينفث غضبه مع زفراته الحارة ، قبل أن يرفع عينيه إلى (صلاح) ، قائلا فى صرامة :

- أريد منك أن تكون أكثر يقظة هذه المرة .. كل حرف ينطق به (حسين البنهاوى) ، وكل حركة يأتيها ، وكل مكان يذهب إليه ، أو شخص يلتقى به ، أريد أن يكون لدى تقرير كامل عنه .

ابتسم (صلاح) فى خبث ، وقال :

- كما تأمر يا سيدى .

تابع (صلاح) فى حدة :

- ضع أيضا وحدات تسجيل ، فى كل مكان يذهب إليه ، أو يجلس فيه .. فى مكتبه ، ومنزله ، وحتى فى سراى أسرته ، لو أمكنك هذا .

أومأ (صلاح) برأسه ايجابا ، وقال فى لهجة أقرب الى الجذل :

- سأبذل قصارى جهدى يا سيدى .

لوح (مراد) بكفه ، قائلا :

- هيا .. اذهب .

لم يكد (صلاح) يستدير لينصرف ، حتى استوقفه (مراد) ، قائلا :

- هل تعرف عنوان (ابراهيم مكى) ؟

التفت إليه (صلاح) ، قائلا :

- بالطبع يا سيدى .. هل ترغب فى زيارته ؟

شرد (مراد) ببصره ، وقال فى حدة تشف عن غضبه ومقته :

- نعم .. إننى أحتاج إلى (إبراهيم مكى) هذه المرة .

ثم تطلع إلى (صلاح) مستطردا :

- فلا يفل الحديد إلا الحديد .

وأطل من عينيه الغضب ..

كل الغضب .

* * *

٣٠ - الحساب ..

« (حسين) وصل .. »

لم تكد (شريفة) تهتف بهذه العبارة ، حتى سقط قلب (فاطمة) بين قدميها ..

إنها تخشى مجئ (حسين) ، منذ ذلك الصدام ، الذى حدث بينهما .. تخشاه ؛ لأنها تعلم أنه سيكون بداية النهاية لوالدها المسكين ، الذى يكاد يلقى حتفه ، قبل حتى أن يصل إليه (حسين) ..

وفى هلع أسرعت توقظ زوجها ، هاتفة :

- (حافظ) .. (حافظ) .. لقد عاد (حسين) .

انتفض (حافظ) ، وهب جالسا ، وهو يهتف فى رعب :

- عاد ؟!

حاولت مساعدته على النهوض ، وهى تقول :

- نعم .. عاد .. هيا .. استيقظ .. لا تقضى حياتك كلها نائما .. شقيقك أتى لينتقم منى ومن والدى ، وينبغى أن تتصدى له .

ارتجف صوته ، وهو يقول :

- أتصدى لـ (حسين) ؟! .. لن .. لن يمكننى هذا أبدا .

لطمت خديها ، هاتفة :

- انهض وقف فى وجهه يا رجل .. ماذا أفعل ؟ .. بمن أستنجد ؟

استيقظ (طارق) باكيا فى فزع ، فحملته فى حنان ، وهى تبكى قائلة :

- لم يعد لنا من نستند إليه يا ولدى .. لم يعد هناك من يحمينا .

تضاعف بكاء الصغير ، وكأنه فهم ما تعنيه ، فضمته إلى صدرها ، تحاول إسكاته ..

وفجأة فتح (حسين) الباب

ارتجفت وتراجعت فى رعب ، وهى تحمى (طارق) بجسدها ، وانكمش (حافظ) فى مكانه هلعا ، وهو يهتف :

- ارحمهما يا (حسين) .. ارحمهما .

هتفت (شريفة) ، من خلف (حسين) :

- هذه الحقيرة لا تستحق الرحمة .

ولكن (حسين) ابتسم ابتسامة غامضة ، يصعب تحديد مغزاها ، وهو يتقدم نحو (فاطمة) ، ثم مد يده اليها ، قائلا :

- أعطينى الصغير .

تشبثت بابنها فى رعب ، ولكن (حسين) أمسك (طارق) فى رفق ، وقال فى حنان عجيب ، بدا - لحظتها - بعيدا أشد البعد عن طبيعته :

- تعال أيها (البنهاوى) الصغير .. لا تخف .. تعال .

استسلم له الصغير فى هدوء ، جعل (فاطمة) تتخلى عنه فى آلية ، فاحتضنه (حسين) ، وداعبه فى حنان ، استجاب له الصغير بضحكة عالية ، وردد اسم (حسين) على نحو مضحك ، فابتسم له هذا الأخير ابتسامة كبيرة ، وقال :

- أتعلم أيها (البنهاوى) الصغير ؟ .. لقد ارتكبت أمك ، فى حق الإسم الذى تحمله ، جريمة كبرى ، تستحق القتل من أجلها .

امتقع وجه (فاطمة) ، والتصقت بزوجها فى رعب ، وردد (حافظ) :

- لا يا (حسين) .. أرجوك .

نقل (حسين) بصره بين وجهى (حافظ) و (فاطمة) فى هدوء ، قبل أن يتابع :

- ولكننى سأغفر لها ، من أجلك .

شهقت (شريفة) فى استنكار ، فى حين انفجرت (فاطمة) باكية ، غير مصدقة بنجاتها من انتقام (حسين) ، الذى تابع فى برود :

- ولكن من العسير أن يمضى الأمر دون عقاب .

جحظت عينا (فاطمة) مرة أخرى فى هلع ، و (حسين) يستطرد :

- فيما مضى كنت أحصل على إيراد الأرض كله ، وأقوم بتوزيع

الأنصبة الشرعية منه على الجميع ، طبقا لوصية والدى ، ولكن (حافظ) أتى من الأفعال ما يؤكد أنه غير قادر على القيام بمسئولياته ، فما الذى يحدث ، فى مثل هذه الأمور ؟

قالت (فاطمة) فى خوف :

- هل ستحرمنا نصيبنا ؟

أجابها (حسين) بنفس البرود :

- بل سأحجر على (حافظ) ، يا زوجة أخى العزيزة .. لن يحصل على مليم واحد من إيراد أرضه ، ولكنه سيحصل على مطالبكما الضرورية فحسب .. الطعام والكساء .

هتفت باكية :

- هذا ظلم .

ولكن (حسين) أدار عينيه الى (حافظ) ، وقال فى صرامة :

- أتوافق على هذا العقاب ؟

أطرق (حافظ) بعينيه أرضا ، وقال فى مرارة واستسلام :

- أوافق يا (حسين) .. أوافق .

رفع (حسين) رأسه فى ظفر ، وداعب أصابع (طارق) قائلا :

- أرأيت يا صغيرى ؟ .. لقد انتهى الأمر فى سلام .

أتاه صوت (مفيد) من خلفه ، يقول فى صرامة :

- لا يا (حسين) .. لم ينته الأمر بعد .

التفت إليه (حسين) فى صرامة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما رآه بلحيته الطويلة ، ووجهه الشاحب ، فقال له فى غضب :

- ما هذا ؟ .. لماذا تبدو أشبه بشحاذين (الحسين) هكذا ؟

تجاهل (مفيد) قوله ، وقال فى حدة :

- ليس من حقك أن تحرم (حافظ) من نصيبه .

قال (حسين) فى صرامة :

- لا تتدخل فيما لا يعنيك .

صاح (مفيد) فى غضب :

ـ أنت الذى يتدخل فيما لا يعنيه .. من أعطاك الحق فى التحكم فى شئوننا إلى هذا الحد ؟ .. أنت ظالم ! ظالم !

فجأة ارتفعت يد (حسين) ، وهوت على وجه شقيقه بصفعة هائلة .. صفعة ارتج لها كيان (مفيد) كله ..

وعندما حنق فى وجه (حسين) فى غضب ، صاح به هذا الأخير فى صرامة :

ـ لقد حذرتك من قبل .. كلمة واحدة زائدة ، وتكون حياة (مديحة) هى الثمن .

انفجر (مفيد) باكيا فجأة ، وهو يقول :

ـ لقد ضاعت (مديحة) .. ضاعت إلى الأبد .. لقد فقدتها للمرة الثانية ، بعد أن نجحت فى العثور عليها .. فقدتها لأن والدها كان يخاف الظلم .. يخافك أنت .

انعقد حاجبا (حسين) فى حدة ، وهو يقول :

ـ خيرا فعل ، فلقد أقسمت أن ألقيه فى غياهب السجن الحربى إلى الأبد ، لو عادت ابنته إليك .

صرخ (مفيد) :

ـ أيها الظالم !

صاح به (حسين) مرة أخرى :

ـ اخرس .

ثم التفت إلى (شريفة) ، مستطردا فى صرامة :

ـ ارسلى فى طلب الحلاق .. أريد هذا الصبى نظيفا متألقا ، بعد ساعة واحدة ، وإلا فلن ترضى خطيبته بالنظر إلى وجهه .

ترددت وهى تقول :

ـ لقد ترك خطيبته .

صاح (حسين) غاضبا :

ـ ولماذا لم يخبرنى أحد ؟ .. لماذا أكون دائما آخر من يعلم هنا ؟

ثم اندفع خارجا ، وهو يستطرد :

ـ هذه الأسرة تحتاج إلى المزيد من الحزم حتما .

اندفعت (فاطمة) خلفه هاتفة :

ـ (حسين) بك .. اغفر لوالدى .. أرجوك يا (حسين) بك .

التفت إليها يرمقها بنظرة ازدراء ، وهو يقول :

ـ لا تأملى بأكثر مما حصلت عليه بالفعل .

هوت على قدميه تقبلهما ، وهى تهتف :

ـ لا .. الرحمة يا بك .. الرحمة .

واندفع (مفيد) نحوه ، صائحا :

ـ إياك أن تمس عم (عبد الحميد) بسوء ، لقد وعدته .

صرخ به غاضبا :

ـ لا تعد بما لا يمكنك الوفاء به .

صاح (مفيد) :

ـ قلت لك اتركه .. اتركه وشأنه .

اندفع شيخ الخفراء (بسيونى) داخل السراى ، فى هذه اللحظة ، وهو يهتف :

ـ (فاطمة) .. والدك يا (فاطمة) .. والدك .

امتقع وجه (فاطمة) ، وتهالكت منهارة ، فى حين هتف به (مفيد) :

ـ ماذا أصابه ؟ .. ماذا أصاب عم (عبد الحميد) ؟

بكى (بسيونى) فى مرارة ، وهو يقول :

ـ لم يكد يسمع أن (حسين) بك قد وصل إلى القرية ، مع عدد من الجنود ، حتى سقط فاقد النطق ، وحاولنا إسعافه ، ولكن ..ولكن ..

لم يكن بحاجة إلى إكمال قوله ، وهو ينتحب فى حزن .. الجميع فهموا ما يعنيه ..

وانطلقت صرخة من حلق (فاطمة) ، ثم انهارت باكية فى حرارة ..

ـ أما (مفيد) ، فقد وقف كالمذهول ، يردد :

- مستحيل ! .. مستحيل !

وبكت (شريفة) لهول الموقف ، فى حين بقى (حسين) صامتا جامدا لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

- هذا أفضل .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف :

- له .

وفى رصانة وقوة ، اتجه نحو باب السراى ، فى طريقة للانصراف ، قبل أن يصرخ (مفيد) من خلفه :

- هذا ظلم ! ظلم ! ظلم !

ولكن (حسين) لم يبال بصراخه ..

لقد انتهت الأمور إلى ما كان يريد ..

ودون مجهود كبير ..

أمر واحد بقى دون أن يُحسم ..

أمر جعله يتوقف ، قبل أن يبلغ باب السراى ، ويلتفت قائلا :

- (شريفة) .

هرعت إليه شقيقته متسائلة ، فقال فى صرامة :

- كانت هناك مهمة دقيقة ، فى قلب (إسرائيل) ، تحتاج إلى متطوع شجاع .

لم تفهم ما يعنيه ، فتطلعت إليه فى حيرة ، حتى قال :

- ولقد تقدم (أمجد) متطوعا للقيام بها .

اتسعت عيناها فى ذعر ، وتراجعت فى هلع ، وأخفت فمها بكفيها ، وكأنها تكتم صرخة هائلة ، أرادت أن تنطلق من بين شفتيها ، وهى تقول :

- وماذا أصابه ؟

قال فى حزم :

- ستنال أسرته معاش شهيد .

أطلقت (شريفة) صرخة ذعر ، وسقطت فى لوعة ، وتفجرت عيناها

بالدموع ، فألقى (حسين) عليها نظرة باردة ، وغادر السراى فى خطوات حازمة ، واستقل سيارته مغادرا القرية ، وتاركا خلفه بحرا ضخما ..

بحرا من المرارة ..

والغضب ..

* * *

صافح (عبد الحكيم) زوج (توحيدة) ، (عمر) فى حرارة ، وهو يسأله :

- مساء الخير يا (عمر) ..لماذا طلبت رؤيتى ؟

دعاه (عمر) إلى الجلوس ، ومال نحوه يسأله :

- أبلغك ما فعله (حسين) بك صباح اليوم .

هز (عبد الحكيم) رأسه فى أسف ، وقال :

- إنها مأساة .

مط (عمر) شفتيه ، وهو يقول :

- أما زلت تفضل البقاء هنا ، واستثمار حدائقك ؟

سأله (عبد الحكيم) :

- ماذا تعنى ؟

اعتدل (عمر) ، وقال فى حماس :

- ألم تسمع ما يرددونه فى هذه الأيام ؟ .. إنهم يشجعون الصناعة .. كل الصناعات .. الكبيرة والصغيرة .

سأله (عبد الحكيم) :

- وماشأننا بهذا ؟

أجابه وكأنه يفشى سرا :

- أتعرف (رضا) ؟ .. ابن (على العبد) .

أومأ (عبد الحكيم) برأسه إيجابا ، فتابع (عمر) :

- لقد بدأ مشروع مصنع صغير ، للغزل والنسيج ، فى (المحلة الكبرى) ، وهو يحتاج إلى شركاء .. ما رأيك ؟

عقد (عبد الحكيم) حاجبيه مفكرا ، ثم سأله :

ـ وكم يحتاج من المال ؟

أجابه (عمر) :

ـ حوالى عشرة آلاف جنيه .

رفع (عبد الحكيم) حاجبيه ، هاتفا :

ـ يالهى .. إنه مبلغ ضخم .

قال (عمر) :

ـ ولكنه مشروع مربح .. وصدقنى يا رجل .. هذه الدولة مقبلة على عهد التصنيع ، وليس عهد الزراعة .. ومشروع السد العالى وحده سيحتاج إلى عشرات الصناعات والأعمال المعاونة ، ويمكننا من الآن أن نتعاقد مع شركات المقاولات العاملة به ، لصنع وتوريد ملابس العمال فيها .. ما رأيك ؟

بدت علامات التفكير طويلا على وجه (عبد الحكيم) ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ لا بأس .. لست أظننى أندم على هذا الأمر .

تهللت أسارير (عمر) ، ومد يده يصافح (عبد الحكيم) قائلا :

ـ رائع يا (عبده) .. أؤكد لك أن مشروعنا الصغير هذا لن يلبث أن يصبح قلعة صناعية ضخمة ، تتضاءل إلى جوارها مشاريعنا الزراعية الصغيرة .

وحملت عيناه كل علامات التشفى والحقد ، وهو يتابع :

وسنصبح أكبر حتى من (حسين) بك نفسه .

وردّدت جدران المنزل ضحكته لأول مرة ، منذ سنوات ..

وكانت ضحكة واثقة ..

وظافرة ..

* * *

ارتفع رنين جرس الباب ، فى شقة (إبراهيم مكى) الجديدة ، فنهض

(ابراهيم) فى تراخ ، وتمتم وهو يتجه إلى الباب :

ـ من المؤسف أن راتب التقاعد لا يكفى لاستجار الخدم والحشم ، مثلما يفعل (حسين) بك .

فتح باب شقته بنفس التراخى ، ولكنه لم يكد يرى زائره ، حتى اعتدل فى احترام ، وهتف فى دهشة :

ـ (مراد) بك ؟!

حدجه (مراد صقر) بنظرة طويلة باردة ، قبل أن يقول :

ـ أتسمح لى بالدخول ؟

أسرع (ابراهيم) يفسح له الطريق ، هاتفا :

ـ بالطبع يا (مراد) بك .. تفضل .. إنه منزلك .

خطا (مراد) فى هدوء داخل المنزل ، وألقى نظرة سريعة على محتوياته ، قبل أن يقول :

ـ منزلك أنيق يا (ابراهيم) .

قال (ابراهيم) ، وهو يتساءل فى أعماقه ، عن سر هذه الزيارة العجيبة المفاجئة :

ـ بعض ما عندكم يا (مراد) بك .

انتقى (مراد) أفضل مقاعد الردهة ، واستقر فوقه ، وهو يقول :

ـ ترى من انتقى أثاث هذا المنزل ؟ أنت أم ..

رفع عينيه ، تلتقيا بعينى (ابراهيم) بغتة ، قبل أن يستطرد :

ـ أم (حسين البنهاوى) ؟

لم يكن من السهل أن يستفز ذلك الأسلوب رجلا محنكا ، مثل (ابراهيم مكى) ، الذى ابتسم ابتسامة ماكرة ، تشف عن حنكته ، وخبرته فى هذا المضمار ، وهو يقول :

ـ إنها شقة مؤثثة مسبقا .

ظل (مراد صقر) يتفحصه بنظراته لحظات ، ثم قال :

ـ إذن فأنت الرأس المدبر لـ (حسين البنهاوى) .

جلس (ابراهيم) فى هدوء ، وهو يجيب :

- كان هذا فى البداية فقط يا (مراد) بك ، ولكنه أصبح الآن أستاذًا .

تمتم (مراد) فى بغض :

- لقد لاحظت هذا .

وتنهد فى عمق ، ثم استطرد :

- كان ينبغى أن أنتبه إلى هذا ، عندما سعى (حسين) للإفراج عنك .

هز (ابراهيم) كتفيه ، وقال :

- كانت صفقة مناسبة .

رمقه (مراد) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول فى حذر :

- لدى صفقة أفضل .

اعتدل (ابراهيم) ، وسأله فى اهتمام :

- ما هى ؟

تراجع (مراد صقر) فى مقعده ، وقال :

- (حسين البنهاوى) يرأس الآن إدارة جديدة ، وهذا يعنى أن إدارته السابقة تحتاج إلى رئيس جديد ، وأنت تعلم أن اختيار رؤساء الإدارات ، فى مهنتنا ، عملية شاقة ، وتحتاج إلى الموثوق فيهم ، بأكثر مما تحتاج إلى الخبراء .

ضاقت حدقتا (إبراهيم) ، وهو يقول :

- أهو عرض بعودتى إلى العمل ؟

عقد (مراد صقر) حاجبيه ، وكأنما لا يروق له أن يفسد (ابراهيم) مفاجآته ، وقال فى صرامة :

- لقد استصدرت أمرا بعودتك إلى عملك بالفعل .

برقت عينا (ابراهيم) ، وكاد يطلق صيحة ظفر قوية ، إلا أنه سيطر على مشاعره فى قوة وحزم ، وهو يسأل :

- وما المقابل ؟

قال (مراد صقر) فى حذر :

- إننا نحتاج إلى خبرتك .

قال (ابراهيم) :

- فقط .

انعقد حاجبا (مراد صقر) مرة أخرى ، وهو يقول :

- وأنا أحتاج إلى علاقتك الجيدة بـ (حسين البنهاوى) .

ثم اعتدل ، مستطردا فى بغض :

- إننى لم أعتد أبدا أن يهزمنى أحد رجالى ، ولن أقبل قط تلك الهزيمة ، التى كبدنى إياها (حسين) هذا .. لقد حصل على حماية (عبد الناصر) نفسه ، ولكننى لن أهدأ ، حتى أحطم ثقة (عبد الناصر) به ، وأذيقه مر الهزيمة .

قال (ابراهيم) ، وهو ينتقى كلماته فى حذر :

- الرئيس (جمال عبد الناصر) ليس سهلا ، واللعب ضده يحتاج إلى مزيج من القوة والجرأة والذكاء .

أجابه (مراد) فى حزم :

- ولست أفتقر إلى كل هذا .

ثم واجه (ابراهيم) فى صرامة ، مستطردا :

- والآن .. هل تقبل العودة إلى العمل ، بشرط أن تلتحق بفريقى أنا .

أجابه (ابراهيم) بلا تردد :

- بالطبع .

نهض (مراد) على الفور ، وكأنه ينتظر هذا الجواب ، وصافحه قائلا فى حزم :

- اتفقنا .. أراك غدا ، فى مكتبك الجديد .

وغادر المنزل فى ارتياح ، تاركا (إبراهيم مكى) فى سعادة لا يمكن وصفها ، يملؤه شعور عارم بالثقة والظفر ، وهو يضم قبضته ، هاتفا :

- الآن فقط يبدأ الصراع الحقيقى بيننا يا (حسين) .

واعتصر قبضة فى قوة ..

وأعلن بدء صراع جديد .

* * *

٣١ ـ كل القـوة ..

لم يحظ (عبد الحميد) ، والد (فاطمة) ، فى مماته ، كما فى حياته ، بالاحترام والتقدير الكافيين ، فعلى الرغم من أنه مات وهو العمدة الرسمى للقرية ، إلا أن جنازته كانت صغيرة صامتة ، لم يخرج فيها سوى أقل القليل من أهل القرية ، وعلى رأسهم الحاج (سعفان) ، و (بسيونى) ، و (مفيد البنهاوى) ، الذى أصرّ فى شدة على أن يتمّ دفن الرجل فى مدافن أسرة (البنهاوى) ، وكأنما يحاول بهذا التكفير عن قدر ، ولو ضئيل ، من ذنب (حسين) فى مصرع الرجل ، الذى قضى نحبه خوفًا وانهيارًا ..

وخلف الجنازة سارت (فاطمة) فى ثوبها الأسود ، تبكى فى حرارة ومرارة ، دون أن تنطلق من حلقها صرخة واحدة ، على عكس المتبع فى القرى ..

ولم يجرؤ الكثيرون على حضور الجنازة ..

كان الجميع يعلمون بقصة (حسين) مع (عبد الحميد) ، حتى أن بعضهم خشى حضور الجنازة ، حتى لا يبدو حضوره وكأنه تأييد لموقف المتوفى المسكين ..

حتى بعد وفاة الرجل ، خشى الجميع الانضمام إليه ..

ولم يبك أمام قبره سوى رجل وامرأة ..

(مفيد البنهاوى) ، الذى رأى فيما حدث أكبر دليل على الظلم والقهر ، فى ذلك العهد ، و (فاطمة) الملتاعة بفقد والدها ، آخر سند لها فى الدنيا ..

وبعدها عادت (فاطمة) إلى السراى ..

عادت كسيرة الفؤاد ، محطمة القلب ، لا تملك سوى المزيد من البكاء والحسرة ..

أما (مفيد) ، فلم يطق العودة إلى السراى ..

كان هناك شعور عنيف بالاختناق يحيط بعنقه ، وهو يعتبر نفسه مسئولا عن جزء مما حدث ؛ لمجرّد أنه يحمل اسم (البنهاوى) ..

كان قد حلق لحيته ، ولكنه بدا أشبه بجثة تمشى على قدمين ، من شدة شحوبه ونحوله ، حتى أن الحاج (سعفان) سأله فى قلق :

ـ ماذا بك يا ولدى ؟ .. أأنت مريض ؟

هزّ (مفيد) رأسه نفيا ، وقال :

ـ لا يا حاج (سعفان) .. لقد تذكرت والدى فحسب .

ربّت الحاج (سعفان) على ظهره ، وتنهّد قائلا :

فلتعش طويلا وتتذكّر يا ولدى .. كان والدك سيّد الرجال .

قال (مفيد) فى مرارة :

ـ ولكنه ظلمنا جميعا يا حاج (سعفان) .

هتف الرجل مستنكرا :

ـ ظلمكم ؟! .. لا تذكر والدك (رحمه الله) بهذا يا ولدى .

قال (مفيد) ، وصوته يكاد يختنق :

ـ كيف تصف ما فعله بنا إذن ، عندما خالف شرع الله (سبحانه وتعالى) ، ومنح الأرض كلها لـ (حسين) ؟

تنهد الرجل مرة أخرى ، وغمغم :

ـ اذكروا محاسن موتاكم يا ولدى .. ولكل جواد كبوة .

هزّ (مفيد) رأسه ، وقال فى مرارة شديدة :

ـ كلنا ندفع ثمن هذه الكبوة يا حاج (سعفان) .. حتى (عبد الحميد) المسكين ، (رحمه الله) ، دفع حياته جزءا من ثمنها .

قال الحاج (سعفان) فى حزم :

ـ وصية والدك لم تمنح (حسين) كل هذه السلطة والقسوة يا ولدى .

تمتم (مفيد) :

- ولكنها ساعدته على هذا .

زفر الحاج (سعفان) ، وهو يقول :

- لست أظن هذا .

لم يجد (مفيد) فى نفسه ميلا للمناقشة ، فاكتفى بالسير إلى جوار الحاج (سعفان) فى صمت ، حتى اقتربا من مقهى (جودة) فخرج (جودة) يهتف كالمعتاد :

- تفضل يا (مفيد) بك .. تفضل .

كان هذا النداء يدفع (مفيد) للإسراع مبتعدا فيما مضى ، أما فى هذه المرة ، فقد مال إلى تلبيته فى شدة ، فانحرف نحو المقهى ، وهو يقول للحاج (سعفان) :

- ما رأيك لو نتناول قدحين من الشاى عند (جودة) يا حاج ؟

أجابه الحاج (سعفان) فى بساطة :

- لا بأس يا ولدى .. لا بأس .

استقبلهما المعلّم (جودة) فى ترحاب شديد ، وهتف بصبيه فى حرارة :

- أفضل قدحى شاى فى المقهى كله ، على نفقتى الخاصة .

قال الحاج (سعفان) ، وهو يلكز (جودة) بمرفقه :

- أما زلت منافقا ؟

هتف (جودة) ، وهو يجذب مقعده ونرجيلته ، ليجلس معهما :

- إننى أرحّب بالأصدقاء والأحبّه يا حاج .

ثم جذب نفسا عميقا من نرجيلته ، وتابع :

- الحق يقال أن (عبد الحميد) هذا كان رجلا طيبا ، ولكنه كان يحتلّ مقعدا متسعا بالنسبة إليه ، وكان من الصعب أن يمتلئ به المقعد .

غمغم الحاج (سعفان) :

- ولكنه كان يؤدى عمله بأمانه ؟

لوّح (جودة) بكفه ، قائلا :

- الامانة وحدها لا تكفى .. من الضرورى أن يمتلك العمدة أيضا شيئا من المهابة والقوة ، الى جوار الامانة .

تطلع اليه (مفيد) لحظة ، وقال :

- أنت على حق .

ابتسم (جودة) فى زهو ؛ لان (مفيد) أيد قوله ، وقال :

- ولكن من يمكنه الترشيح لمنصب العمدة الان ؟ .. ما رأيك يا حاج (سعفان) ؟

قال الحاج (سعفان) ..

هناك كثيرون .. (خليفة الصاوى) ، و (نعمان القط) ، و ..

قاطعه (جودة) :

- كلهم لا يصلحون .

ثم مال نحوه ، وغمز بعينه ، مستطرداً :

- ما رأيك لو رشحت نفسك للمنصب يا حاج (سعفان) ؟

هتف الحاج مستنكرا :

- أنا ؟!

أجابه (مفيد) :

- إننى أراك أصلح من يتولى هذا المنصب ، فى القرية كلها يا حاج (سعفان) .

تفكر الحاج (سعفان) لحظات فى الأمر ، ثم هز كتفيه ، ونهض قائلا :

- لا .. لست أظن هذا .

ثم سأل (مفيد) :

- هل نرحل ؟

غمغم (مفيد) فى تردد :

- لم أتناول قدح الشاى بعد .

قال الرجل :

- حسنا .. إلى اللقاء إذن .

انصرف من المقهى فى رصانة ووقار ، فقال (جودة) :

- صدقنى ، هو خير من يصلح لها .

تمتم (مفيد) :

- بالتأكيد .

وتردد لحظة ، ثم سأل (جودة) :

- قل لى : أما زلت تحتفظ بها ؟

سأله (جودة) فى لا مبالاة :

- بماذا ؟

تردد (مفيد) لحظة أخرى ، ثم سأله :

- بتلك السيجارة .

تألقت عينا (جودة) فى ظفر ودهاء ، وهو يهتف فى حرارة :

- بل هناك ماهى أفضل منها .

ودس يده فى جيب صديريته ، والتقط سيجارة أخرى مدببة الطرف ، ناولها إلى (مفيد) ، قائلا بأسلوبه السوقى :

- أفضل صنف وصل إلى الأسواق .. طازج وقوى .

ثم ابتسم ساخرا ، وهو يضيف :

- يطلقون عليه اسم (العدوان الثلاثى) .

ابتسم (مفيد) ابتسامة مضطربة ، والتقط السيجارة ذات المخدر ، ودسها بين شفتيه ، مغمغما فى توتر :

- كم يبلغ ثمنها يا (جودة) ؟

صاح (جودة) :

- ثمنها ؟! .. أقسم بالطلاق ثلاث مرات ألا تدفع قرشا واحدا .. هذه السيجارة هدية محبة منى إليك .

ثم أشعل له السيجارة ، مستطردا فى خبث :

- ربما فيما بعد .

التقط (مفيد) أنفاس السيجارة ، وسعل فى البداية . ثم راح يستنشق الأبخرة الزرقاء اللعينة ..

وفى لحظات ، مرت أمامه عشرات الذكريات ..

تذكر (مديحة) ..

وعم (إسماعيل) ..

و (سوسن) ..

تذكر حتى (حسين) و (شريفة) و (فاطمة) ..

ثم انمحى كل شىء من ذاكرته ، ولم يتبق سوى سحب الدخان .. الدخان الأزرق ..

وفى مكر ، سأله (جودة) :

- ما رأيك ؟

أجابه وهو يسعل :

- أظنها عنيفة بعض الشىء

فهقه (جودة) ضاحكا ، وهو يقول :

- فى البداية فحسب .

التقط (مفيد) أنفاسا أخرى من المخدر ، وهو لا يدرك أنها بالفعل البداية ..

بداية عهد جديد ..

* * *

وقف (حسين البنهاوى) فى شرفة منزله . فى (جاردن سيتى) ، يطل على نيل (القاهرة) الساحر فى الليل ، وقد انعكست فوقه الأضواء وتألقت ..

وكان يشعر - فى هذه اللحظة - أن الدنيا كلها ملك يديه ..

لقد حقق الكثير هذه المرة ..

هزم كل من تصدى له ..

نال ترقية جديدة ، ومنصبا ذا شأن ..

أكد سلطته وسطوته فى العائلة ..

أى شىء يتمناه أكثر من هذا ؟ ..
شرد ببصره لحظات ، ثم ارتسمت أمام عينيه صورة جميلة ..
صورة الأميرة (عايدة) ..
كانت المعركة الوحيدة ، التى لم يحقق فيها انتصارا قويا ..
بل نال فيها هزيمة ..
وللمرة الألف ، اعترف فى أعماقه بحبه لها ..
كان يحبها من كل قلبه ..
ويعشقها .
وانتزعه صوت خادمه من شروده ، وهو يقول :
ـ برقية لك يا سيدى .
التفت إليه فى هدوء ، والتقط منه البرقية ، الموضوعة داخل مظروف حكومى ، وقال :
ـ اريد قدحا من الشاى .
ذهب الخادم ليعد الشاى ، فى حين فض هو المظروف ، والتقط البرقية من داخله ، وخفق قلبه عندما رأى ، فى خانة (الجهة المرسل منها) ، اسم (باريس) ، فهبطت عيناه فى سرعة إلى كلمات البرقية ، التى تقول :
ـ مازلت أنتظرك .
ثم توقيع (عايدة) ..
وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظفر وثقة ، وهو يرفع عينيه مرة ثانية إلى النيل ، ويملأ صدره بهواء (مصر) فى انتعاش ..
الآن لم تعد فى حياته هزيمة واحدة ..
الآن أصبح يشعر بالقوة ..
كل القوة .

* * *

[نهاية الجزء الثانى]

رقم الإيداع : ٥٠٠١